© أوراق فلسطينية

تصدر عن مؤسسة ياسر عرفات

رئيس التحرير: يحيى يخلف

مدير التحرير: غسان زقطان

مستشار التحرير: فيصل دراج

يشارك في التحرير: عبد الفتاح القلقيلي
أحمد نجم

ادارة: وليد قنة

التصميم الفني والإخراج: عاصم ناصر

جميع الحقوق محفوظة لمؤسسة ياسر عرفات

ISBN 978-9950-375-04-8

AWRAQ FELASTINIA

أوراق فلسطينية

فصليّة فكريّة عربيّة تصدر عن مؤسّسة ياسر عرفات

العدد «٣١» شتاء ٢٠٢٣

المراسلات:

العنوان: ص. ب: ٥٧٣

رام الله – فلسطين

هاتف: ٢٩٥٧٣٧٣ – ٩٧٠٢ + / + ٩٧٠٢ – ٢٩٥٧٣٧٢ – ٩٧٠٢ +

Email: awraq.falastinya@gmail.com

www.yaf.ps/awraqfelastinia

الاشتراكات السنوية:

٥٠ دولاراً للأفراد، ٨٠ دولاراً للمؤسسات (بما فيها نفقات البريد)

ترسل الاشتراكات شيكاً إلى العنوان البريدي أو حوالة بنكية على حساب المؤسسة:

البنك العربي

رام الله – فلسطين

فرع الماصيون

رقم الحساب: ٥١١ – ٤٨٠٢٥٢ - ٩٠٩٠

Ps 57 arab00000000090904802525 10

الفهرس

الافتتاحية

٧ الشعب في مواجهة الأبرتهايد

أوراق فلسطينية

١١ مآلات القضية الفلسطينية على ضوء نتائج الانتخابات الإسرائيلية

عبد الغني سلامة

١٩ بيبي الملك ... قصة سلام الأمن والقلب والجيب

شذى يحيى

٣٥ الانتخابات الإسرائيلية، نتائجها وأبعادها على الفلسطينيين

عليان الهندي

٤٣ عاد حتى قبل أن يغادر نتنياهو وبضاعته الرديئة في سوق أردأ

د.محمد حسني

أوراق البدايات

٥٥ الاتحاد العام لطلبة فلسطين درع م.ت.ف فرع مصر نموذجاً للتأسيس ج٢

أ.حسام أبو النصر

٧٩ لجنة الدفاع عن الثقافة القومية (١)

أسماء الغرباوي

٨٧ المثقفون يبشرون بالثورة

عبد القادر ياسين

أوراق الذاكرة

٩٩ برنامج توثيق تاريخ الثورة الفلسطينية

الآراء الواردة تعبر عن رأي الكتّاب، وهي لا تعبر بالضرورة عن رأي المؤسسة.

الفهرس

شهادة الاخ مروان عبد الحميد، عن هايل عبد الحميد (أبو الهول) ما بين ١٩٥٥ إلى ١٩٦٥م

اعداد وتحرير يحيى يخلف

أوراق ثقافية

١١٣ "الطنطورة» وأخواتها.. إنتاجات سينما إسرائيلية تحت سقف «البيت الصهيوني»!

يوسف الشايب

١٣٣ البحث عن إسرائيل القديمة !

أحمد الدبش

١٥١ فاروق وادي.. استعادات من الأرشيف!

بديعة زيدان

١٧١ ما كُـنْـتَهُ سَنَكونُهُ يَوْماً

عبد الناصر صالح

١٧٩ قصص قصيرة

سما حسن

تقارير وكتب

١٨٧ «احتضار على حافة الذاكرة» رواية لأحمد الحرباوي:

تحسين يقين

١٩٣ الشعر الفلسطيني قبل النكبة: هيمنة الرجال وغياب النساء

دنيا الأمل إسماعيل

أوراق المؤسسة

١٩٩ تقرير مؤسسة ياسر عرفات

الشعب في مواجهة الأبرتهايد

بعد أربعين عاماً من الأسر أفرج عن عميد الأسرى كريم يونس، وتنفس هواء الحرية مع شعبه ووطنه وأهله وذويه، ويواصل المسيرة كعضو لجنة مركزية في حركة فتح..

الشعب الفلسطيني فتح له ذراعيه مرحباً وكذلك فصائل منظمة التحرير.

كريم يونس كان وما زال قامة وقيمة وطنية وانسانية نفخر به ونعتز، وقد احتفى به شعبه في بلدة عاره، وكان ذلك حدثا يليق به، وجاء شعبه من كل المدن والقرى حاملين راية فلسطين، وحملوه على الأكتاف.

كما جاء وفد من قيادات حركة فتح تقديراً له ولنضاله وللترحيب به من أجل أن يأخذ دوره في المسيرة النضالية.

***

جاء ذلك في مرحلة تشكيل وزارة نتنياهو الأكثر تطرفا، والتي تنحو أكثر الى الابرتهايد، ومن الأكثر تطرفا بالاضافة الى نتنياهو كلٌ من: ايتمار بن غفير الأكثر تطرفا الذي يقتحم المسجد الأقصى ويطلق تصريحات يطالب فيها بتوسيع المستوطنات في الضفة الغربية، واطلاق تصريحات فاشيّة ضد الشعب الفلسطيني.

ومن غلاة اليمين الفاشي كان أيضا (تسلئيل سموتريتش) وزيراً للمالية، ومنحه سلطات واسعة ذات طابع فاشي.

وكذلك أرييه درعي وأحزاب قومية دينية يمينية متشددة تشد أزر وسياسات حزب الليكود، حزب نتنياهو، وأجمع المحللون على ان هذه الحكومة ستكون الأكثر يمينية وتطرفاً في تاريخ إسرائيل.

***

جاءت حكومة نتنياهو التي تعادي الشعب الفلسطيني وحقوقه، وتواصل سياسة الاستيطان في ستين بالمائة من أراضي الضفة تشكل المنطقة (ج)، ولا تعترف بحل الدولتين، وتتخذ خطوات وقرارات تعيد انتاج الحل الذي اقترحه الرئيس الأميركي السابق ترامب، والذي أطلق عليه (صفقة القرن) الذي يتعبر القدس عاصمة دولة إسرائيل، ومصادرة أراضي في الضفة الغربية وتحويل باقي أراضي الضفة الغربية الى جزر معزولة في اطار ما سماه دولة إسرائيل، وهو الحل الذي رفضته السطلة الفلسطينية وأعلن رفضه الرئيس محمود عباس.

***

عندما خرج الأسير كريم يونس من سجنه، وأحتفى به أبناء شعبه الفلسطيني، ورفعت الوفود الاعلام الفلسطينية، وزاره وفد من اللجنة المركزية، صدر قرار من الجهات الإسرائيلية بمنع رفع العلم الفلسطيني وبسحب بطاقات الـ v.i.p التي تسهّل تحركات القيادات في السفر، كما تم إطلاق تصريحات يمينية بسحب بطاقات وهويات المواطنين العرب وطردهم الى الضفة الغربية.

كل ذلك يحدث في الوقت الذي خرج فيه المناضل الشجاع والقائد الوطني كريم يونس، بل زد على ذلك التهديد بفرض عقوبات مشددة على الأسرى الفلسطينيين في سجون الاحتلال.

لكن ابطالنا في السجون، ومنهم كريم يونس وغيره من القادة الذين ما زالوا في الاسر ومن رموزهم: مروان البرغوثي، ونائل البرغوثي وأحمد سعدات، وشيخ الاسرى فؤاد الشوبكي.

***

لا يستطيع نتنياهو ومن معه ان يحقق خططه التي يرفضها شعبنا، وترفضها أمتنا العربية والاسلامية، ويرفضها الراي العالم العالمي والدولي، وتسقط سياسة الابرتهايد في آخر معاقلها بعد جنوب أفريقيا.

***

تتصدى دولة فلسطين الى تلك السياسات الاسرائيلية، بالتوجه الى الى الأمم المتحدة ومجلس الأمن الدولي، وتحقق انجازات على الصعيد العالمي.

ويحقق شعبنا مواجهات ومقاومة شعبية بالوسائل السلمية ويتمسك بحقوقه في التحرر الوطني، وبرحيل الاحتلال طال الزمان أو قصر.

هيئة التحرير

أوراق فلسطينية

«الانتخابات الاسرائيلية... الرحلة الفاشية»

ملف يشارك فيه:

عبد الغني سلامة

شذى يحيى

عليان الهندي

د.محمد حسني

مآلات القضية الفلسطينية على ضوء نتائج الانتخابات الإسرائيلية

عبد الغني سلامة*

مقدمة

في الانتخابات الإسرائيلية الخامسة التي جرت خلال أقل من أربعة أعوام، حقّق معسكر أقصى اليمين بزعامة "نتنياهو"، فوزاً حاسماً على كتلة التغيير بقيادة "يائير لابيد"، و"غانتس". وبحصوله على ٦٤ مقعداً من أصل ١٢٠ مقعداً في الكنيست سيكون بوسع "نتنياهو" تشكيل حكومة أكثر استقراراً، ستضمّ حزب الليكود، وحزب الصهيونية الدينية، وحزب شاس، وحزب يهودات هاتوراه.

وبنظرة سريعة على تركيبة الحكومة يمكن التنبؤ ببرنامجها السياسي والاقتصادي، بل وبمستقبل دولة إسرائيل في المدى المنظور، فإلى جانب حزب الليكود اليميني القومي صاحب مشروع النيوليبرالية والاستيطان، لدينا حزب الصهيونية الدينية بقيادة المتطرف "إيتمار بن غفير"، الذي يدعو علانية إلى ترحيل الفلسطينيين، بل والتخلص منهم، وحزب شاس، الذي يمثّل اليهود المتدينين الشرقيين الذي يزاود بصهيونيته وتطرفه على حزب يهودات هاتوراه، ممثل اليهود المتدينين الغربيين (الأشكناز).

وفي واقع الأمر، عكست نتيجة الانتخابات الأخيرة مسارا طويلا من نمو وصعود اليمين المتطرف (القومي والديني) بدأ مع فوز الليكود لأول مرة في انتخابات العام ١٩٧٧، ونتيجة هذا المسار أدت إلى تحوّل المجتمع الإسرائيلي (أو أغلبه حتى الآن) إلى مجتمع ديني متعصب،

* كاتب فلسطيني.

تغذيه وتوجهه ماكينة إعلامية دأبت على بث ثقافة الخوف من "الأغيار"، وكراهية العرب والفلسطينيين.

ومع تشكيل هذه الحكومة يمكن القول بأن إسرائيل بدأت تنتقل بصورة مضطردة ومتسارعة إلى مرحلة جديدة عنوانها تحكم الفاشية الجديدة في المجتمع والدولة، وليس في الحكومة فقط، الأمر الذي سيغير هوية إسرائيل وإلى أمد طويل من دولة شبه علمانية تترأسها حكومات براغماتية إلى دولة دينية فاشية، يحكمها اليمين المتطرف. وهذا الأمر سيكون له انعكاسات مهمة وخطيرة على مستقبل إسرائيل، وعلى صورتها (خاصة في الغرب)، وعلى مستقبل العملية السلمية.

توقعات حول برنامج الحكومة اليمينية

استنادا إلى مواقف سابقة، وإلى تصريحات إعلامية لأبرز وزراء حكومة "نتنياهو" يمكن توقع مزيد من التصعيد في الساحة الفلسطينية، فبزعامة "نتنياهو"، ومع وجود المتطرف "بن غفير"، وتوليه وزارة الأمن الداخلي، ستتصاعد اقتحامات المسجد الأقصى، الذي طالما شكّل عنوانا للانفجار، خاصة إذا ما أقدمت الحكومة على تشريع التقسيم الزماني والمكاني للأقصى، وستزداد عمليات هدم البيوت العربية في القدس، أو الاستيلاء عليها، مما سيعيد القدس مرة ثانية إلى واجهة الأحداث، وستزداد وتيرة الاستيطان بما يهدد بنسف العملية السلمية كلياً؛ سيما وأن عمليات الاستيطان لن تقتصر على الضفة الغربية، بل ستشمل النقب والجليل، وستكون بالتأكيد على حساب الوجود الفلسطيني، وبالتالي سيكون فلسطينيو الداخل في قلب المواجهة من جديد.

ويتوقع أيضا تزايد الاعتداءات الممنهجة على الفلسطينيين خاصة على الحواجز وفي نقاط التماس، بعد أن أُعطيت للجنود توجيهات بالقتل، بدليل سقوط شهداء في كل يوم تقريبا، وزيادة عمليات مصادرة الأراضي ما ينذر بنكبة جديدة.

أما العملية السلمية فيمكن القول أنها انتهت تماما، وليس في الأفق ما يشير إلى إمكانية بدء مفاوضات مع الفلسطينيين، بعد أن توقّفت كليا منذ العام ٢٠١٤، بعد تمسّك إسرائيل بالاستيطان وتراجعها عن إطلاق سراح من تبقى من الأسرى الفلسطينيين القدامى المعتقلين قبل اتفاق أوسلو.

وبناء على ما سبق سيتغير شكل العلاقة مع السلطة الوطنية، ولن تكتفِ الحكومة الإسرائيلية بسياسة إضعاف السلطة وإحراجها، والضغط عليها، وحصارها ماليا، وابتزازها بورقة "ضريبة المقاصة"، وفتح ملفات أسر الشهداء والأسرى، واستمرارها بزعم ربط المقاومة الفلسطينية بالإرهاب، والإدعاء بعدم وجود شريك للسلام، فوق ذلك كله ستعمد إلى توسيع صلاحيات الإدارة المدنية، لتكون عنوانا للفلسطينيين في قضايا التصاريح والتراخيص وغيرها، بدلا من السلطة، وستعمل على عزل محافظات الضفة عن بعضها، وضم مناطق C، أو على الأقل الاستيلاء على المزيد منها، وإقامة مستوطنات ومنشآت عسكرية، وربما تصل الأمور إلى حلّ البلديات الكبرى، واستغلال أي فرصة مواتية لتطبيق مشروع الإمارات الفلسطينية (الكانتونات)، وهو مشروع قديم محفوظ في الأدراج وبانتظار الوقت المناسب لوضعه للتنفيذ.

هو سيناريو مرعب، ولكن..

ما سبق عبارة عن سيناريو مرعب بمعنى الكلمة، ولكن، هل بالضرورة سيتحقق كما يريد له اليمين الصهيوني؟ بالتأكيد لا، أو على الأقل هناك الكثير من العوامل التي ستعرقله، وربما تفشله، هذا على المستوى المرحلي والآني، أما على المدى الإستراتيجي والبعيد، فهكذا سيناريو ربما يكون سببا لنهاية إسرائيل نفسها. وسنناقش ذلك لاحقا، ولنناقش أولا إمكانيات نجاح المشروع الصهيوني اليميني المتطرف ضمن المعطيات الحالية، وتداعياته على المشهد بشكل عام، قبل الحديث عن الآفاق البعيدة..

أولاً: فيما يتعلق بالوضع الإسرائيلي الداخلي؛ تتشكل حكومة نتنياهو من خليط متناقض، يجمعهم التطرف ولكن تفرقهم المطالب، فكل حزب من مكوّنات الحكومة يستطيع أن يُسقطها إذا لم تتم تلبية مطالبه بالكامل، وكل حزب يتمسك بمطالبه رغم إدراكه استحالة ذلك دون تنازل بقية الأحزاب خاصة عندما تتضارب المصالح، بمعنى أن بقاء الحكومة لدورة كاملة غير مضمون، وهناك إمكانية لانتخابات مبكرة، ولكن هذا لا يعني بالضرورة تحسن الأوضاع، أو حصول انفراج سياسي. ولكن "نتنياهو" يدرك أنَّ بقاء حكومته وصمودها أمام المعارضة بات منوطاً بتلبية كل المطالب لكل الأحزاب، وتتلخص مطالب أحزاب اليمين المتطرف بجملة واحدة: الاستيلاء على أهم مؤسسات الدولة: الجيش، الأمن، القضاء (بعد أن استولت على

التعليم منذ فترة طويلة)، أي نزع سماتها "التاريخية"، بتهويدها (أي نزع ما تبقى منها من علمانية)، وجعلها تابعة لها، وليس للدولة، وفرض هيمنة "الشريعة" على القانون والقضاء، أي بمعنى آخر ترويض القضاء وجعله أهم من "الديمقراطية"، وتلك سمات إسرائيل التي طالما تغنت بها أمام العالم، وفقدانها سيضر بصورتها، ليس أمام العالم وحسب، بل وحتى في مرآة إسرائيل الداخلية، وهذا الأمر سيكون له تداعيات من الصعب قبول بقية المجتمع بها، ما سيولد ارتدادات داخلية وتصدعات خطيرة ستعمق من مأزق إسرائيل الوجودي.

وسيكون لذلك انعكاسات على المجتمع العربي في الداخل الفلسطيني، فمثلا في ظل تعهّد "بن غفير" إعادة السيطرة والسيادة على النقب وتكثيف الاستيطان في الجليل، ستزيد الاحتكاكات والمواجهات بين الجيش والفلسطينيين في الداخل، فمع كل عملية هدم للبيوت العربية خاصة في القرى البدوية، ومع كل دونم تتم مصادرته، ومع كل حالة قمع ستتعزز الصحوة الوطنية في مواجهة العنصرية الصهيونية (هذا بدأ بشكل أوضح بعد سن قانون القومية اليهودية عام ٢٠١٧، وإبان العدوان على غزة أيار ٢٠٢١).

كما سيساهم فشل أعضاء الكنيست العرب (مجموعة منصور عباس) في التأثير في سلوك الحكومة تجاه المواطنين العرب بتلبية مطالبهم في إعادة الجمهور العربي الذي انتخبهم إلى مراجعة حساباته، وربما يؤدي ذلك إلى إنهاء تحالف منصور عباس مع نتنياهو، وسيؤدي ذلك أيضا إلى تغيير قطاع عريض من الجمهور العربي موقفه من مقاطعة الانتخابات المقبلة، وإذا ما تمكنت الأحزاب العربية من رص صفوفها وإنهاء خلافاتها وتشكيل إئتلاف حزبي عربي ستتغير خارطة الانتخابات المقبلة، وسيكون للنواب العرب عدد أكبر من المقاعد بما يمكنهم من التأثير على تشكيلة أي حكومة قادمة.

ثانياً: الوضع الفلسطيني، وهو الأهم، ستكون الفترة القادمة صعبة جدا على الفلسطينيين، وخطيرة بشكل غير مسبوق، وستكون الخيارات الفلسطينية أصعب من بعضها، حيث ستشهد الضفة الغربية مزيداً من اعتداءات المستوطنين، ومزيدا من عمليات القتل المنهج على يد الجيش، في الاقتحامات وعلى الحواجز، كما ستعمد الحكومة إلى مواصلة الاستيطان، ومصادرة الأراضي، وتصعيد عمليات اقتحام المدن الفلسطينية وتنفيذ عمليات اعتقال ومطاردة واغتيالات لنشطاء المقاومة.

في القدس، مع زيادة حدة اقتحامات المستوطنين لباحات الأقصى، والمضي في سياسة تقسيم المسجد، زمانياً ومكانياً، وزيادة عمليات الهدم لبيوت المقدسيين، سيؤدي ذلك كله إلى زيادة الاحتكاكات بين المواطنين والجيش والمستوطنين، وبالتالي ستؤدي السياسة العدوانية لحكومة نتنياهو في الضفة الغربية إلى مزيد من الغليان الشعبي، وربما تصل إلى إشعال انتفاضة شعبية، أو مسلحة، وفي الحالتين ستفقد إسرائيل السيطرة على الموقف الميداني، الأمر الذي قد يتطوّر إلى انتقال المواجهات إلى الداخل الفلسطيني المحتل، الذي بات أكثر قابلية واستعداداً لمواجهة مخططات الاستئصال والترحيل، التي يتبناها "بن غفير".

وهذا كله يعني قضم وتهديد مكانة السلطة الفلسطينية، وإضعافها، وإحراجها أمام شعبها، ووضعها أمام تحديات صعبة حيث ستطالبها إسرائيل بالسيطرة على بؤر المقاومة، وستتهمها بدعم "الإرهاب" خاصة بعد انخراط عناصر من الأجهزة الأمنية في تشكيلات المقاومة العسكرية، وتنفيذهم عمليات مسلّحة أدت إلى قتل وإصابة عدد من جنود الاحتلال ومستوطنيه. وفي المقابل سيطالبها الشعب بالدفاع عنه وحمايته والتخلي عن التنسيق الأمني.

وفي ظل هذا الوضع المتأزم، أدركت القيادة السياسية ضرورة تغييره، خاصة بعد أن يئست من أن تقدم اميركا أو إسرائيل أي حل ممكن، وأدركت عدم إمكانية حدوث تغيير في الخارطة السياسية، أو الوضع الإقليمي ضمن المعطيات الراهنة، وأدركت ايضاً أنَّ تعامل إسرائيل مع السلطة بوصفها وكالة أمنية أمر مهين جداً.. وهنا يمكن رصد تحول دراماتيكي في خطابات ولهجة الرئيس محمود عباس في الآونة الأخيرة، مثل تصديه لصفقة القرن، وإصراره على الانضمام لمحكمة الجنايات الدولية، ولعدد من المنظمات الدولية ضد رغبة أميركا، ورغم تهديداتها.. ويبدو أنه فعلا لم يعد يراهن على المجتمع الدولي، فقد كان خطابه الأخير في الأمم المتحدة موجها بصورة رئيسة إلى الشعب الفلسطيني، مؤكداً "أن صبرنا قد نفد"، وقبلها في برلين رفض إدانة عملية ميونخ، بل قال إن الفلسطينيين تعرضوا لخمسين هولوكوست على يد الاحتلال الإسرائيلي.. وفي شباط الماضي تحدث عبر هاتف نقّال يحمله محمود العالول معزيا باستشهاد ثلاثة من كتائب شهداء الأقصى اغتالتهم إسرائيل وحينها قال حرفيا: "ردوا الصاع صاعين"، وفي مكالمات هاتفية أخرى معزيا بشهداء قال: "صبرنا سبعين سنة ونفد صبرنا"..

وفي السياق ذاته، أدى تراجع دور وفاعلية الفصائل الوطنية إلى خلق فراغ سياسي ونضالي في الساحة الفلسطينية، ما سمح بظهور حالات نضالية فردية، سرعان ما تحولت إلى خلايا صغيرة مسلحة، ومن ثم إلى مجموعات أوسع أخذت تطوّر خطابها وآليات عملها، حتى باتت قادرة على تحريك الجماهير، مثل الإعلان عن الإضرابات، وتسيير تظاهرات شعبية.

ومع ظهور عرين الأسود، وما سبقها وتبعها من عمليات فدائية جريئة، وكان آخرها عمليتي الشهيد عدي التميمي والشهيد محمد الجعبري، بدا وكأن الجماهير بدأت تستعيد روحها النضالية، وتسترد بعضاً من كرامتها الوطنية بعد أن بثت تلك العمليات بعض الطمأنينة في روحها الجمعية، وهذا أكثر ما تحتاجه.. الأمر الذي يفسر نشوة الفرح واستعادة الأمل، التي ظهرت في حجم الالتفاف الشعبي حول الكتائب المسلحة.

ما تقدم ذكره يعني أنَّ على الفلسطينيين رفض الواقع وليس للتكيف معه، أي بتصعيد المقاومة الشعبية وصولا إلى انتفاضة، وبالتالي هي فرصة للقيادة لبدء مراجعة شاملة للحالة الفلسطينية، وتصويب الخط السياسي، والتنسيق مع قوى المقاومة، بحيث تتناغم أدوات الفعل الفلسطيني ميدانيا ودبلوماسياً، وفرصة لحركة "فتح" لتقف أمام مسؤولياتها الوطنية، ولتضطلع بدورها وتستعيد مكانتها التاريخية، وفرصة لحركة "حماس" لتراجع استئثارها بقطاع غزة، ولتنهي موضوع الانقسام، وفرصة أمام الفصائل الوطنية للنهوض من جديد، فالفسطينيون أمام مرحلة جديدة ومختلفة، لا يمتلكون ترف الخيارات، ولا وقت لديهم للمناكفات الداخلية والمزايدات الحزبية.

وإذا ما حصل ذلك كله، أو بعضا منه، سيكون بوسع الفلسطينيين عرقلة وإحباط مشروع اليمين الصهيوني.

ثالثاً: الموقف الدولي، بالرغم من أن سياسة الحكومة السابقة بزعامة لابيد وسلَفه نفتالي بينيت، لا تختلف كثيرا عن السياسات التي سيتّبعها نتنياهو وكتلته المصنَّفة "يميناً متطرفاً" تجاه الشعب الفلسطيني وحقوقه، فمثلا قتلت الحكومة السابقة أكثر من ٢٣٠ فلسطيني خلال العام ٢٠٢٢، واعتقلت نحو ٥٣٠٠ فلسطيني، وأوقفت كليا عملية السلام، واستمرت في سياسات الاستيطان والتهويد، وشنّت عدواناً على قطاع غزة، وسُجِّلت في عهدها أرقامٌ قياسية في عدد المستوطنين المقتحمين باحات المسجد الأقصى، ولم تمنح السلطة أيَّ مكتسبات

سياسية.. إلخ، وبالتالي كل ما في الأمر أنّ شكل وسلوك حكومة نتنياهو سيكون أكثر وضوحاً وتعبيراً عن السياسات الإسرائيلية. فكتلة لابيد، التي ضمت خليطاً من أحزاب مصنّفة بين يمين، ويمين وسط، ويسار، ويسار وسط، تبنت خطابا إعلاميا ودبلوماسيا مخادعا، خاصة في المسار السياسي وتجاه السلطة الوطنية، وتحدّثت بمواربة عن حلّ الدولتين، وتمكنت من التمويه على ممارساتها العدوانية والاستيطانية والتهويدية على الأرض التي لم تتوقف يوما.

وسيكون من الصعب جدا على حكومة نتنياهو المحافظة على السياق ذاته، وعلى نفس الدرجة من الرضا الدولي (أو التغاضي)، كونها ستعبّر عن وجه إسرائيل الحقيقي وبشكل سافر، دون ماكياج يخدع العالم، وذلك من خلال ممارستها مزيدا من البطش، ومن خلال الخطاب العنصري الذي يتبناه حزب الصهيونية الدينية، وزعيمه بن غفير.

هذا يعني أن العالم لن يقبل بسياسة هذه الحكومة المتطرفة، أو على الأقل سيجد حرجا في تبرير ممارساتها، وهذا ما يشكّل فرصة للقيادة الفلسطينية وللقوى المؤيدة للقضية الفلسطينية في بدء مسار يُفضي إلى عزل إسرائيل، ونزع الشرعية عنها، وتفعيل حركات المقاطعة BDS، ودعمها في أكثر من مستوى، وفضح مسار التطبيع في المنطقة.

خلاصة

تمكن نظام الفصل العنصري من حكم جنوب إفريقيا لثلاثة قرون ونصف، وكان ممكنا أن يظل أكثر، ولكن مسار نهايته بدأ منذ تولي الحزب الوطني دفة الحكم عام ١٩٤٨، وحينها قرر شرعنة وقوننة كل الممارسات والسياسات العنصرية، وجعلها جزءا من دستور الدولة.. وهذا بدوره أثار غضب الشعب، ما جعله يطلق العنان لثورته، كما أثار حفيظة العالم، لدرجة أن حلفاء النظام تخلوا عنه..

ما يحدث في إسرائيل منذ صعود اليمين القومي والديني مشابه لما حدث في تجربة نظام الأبارتهايد الجنوب إفريقي، فها هي إسرائيل تشرعن وتقونن سياساتها وممارساتها العنصرية والتهويدية والاستيطانية عبر قانون القومية، وعبر تشكيلها حكومات تفاخر بعنصريتها وعدوانيتها، الأمر الذي سيرتد عليها أولا، بعد أن يتغول فيها الاستيطان، فيأكل الدولة أولا، وبعد أن يدرك العالم أنها نظام أبارتهايد، ومن العار دعمه ومساندته.

بيبي الملك ... قصة سلام الأمن والقلب والجيب
حلم الأب المؤسس على طريق الصحوة الثانية لإسرائيل

شذى يحيى*

" أي زرادشت، أتيت لأستدرجك إلى خطيئتك الأخيرة، قال لي ... إلى خطيئتي الأخيرة؟ صاح زرادشت وأنفجر ضاحكاً: وأي شيء وفرته على نفسي كي يكون خطيئتي الأخيرة؟ "

هكذا تكلم زرادشت - فردريك نيتشة

"في إسرائيل لكي تكون واقعياً يجب أن تؤمن بالمعجزات"

دافيد بن جوريون الأب المؤسس لإسرائيل

"يكثر الكذب قبل الإنتخابات، وخلال الحرب، وبعد الصيد"

أوتوفون بسمارك - المستشار الألماني

"يجب على الأمراء تفويض المهام الصعبة للآخرين والحفاظ على المهام الشعبية المحبوبة لأنفسهم"

الأمير - نيكولو ميكافيللي

* باحثة وكاتبة من مصر.

" لم يفعل أحد مثلما فعلت مع بيبي وأنا أحب بيبي ... مازلت أحب بيبي لكني أيضاً أحب الولاء"

دونالد ترامب – الرئيس الأميركي السابق

" آنئذ ستنطلق الروح اليهودية من هذا المركز إلى كل الآفاق، إلى محل الجاليات في الشتات، وستثبت فيها الحياة، وتحفظ وحدتها، وحينما تصل ثقافتنا القومية في فلسطين إلى هذا المستوى، قد تحدونا الثقة في أن نخلق رجالاً في هذا البلد يكونون قادرين حين تواتيهم فرصة مناسبة على إقامة دولة تكون دولة يهودية، وليس مجرد دولة لليهود."

آحاد همام – "الدولة اليهودية والمشكلة اليهودية" - ١٨٩٧م

" في سبيل الاستيطان يجب أن تكون الحياة قاسية، بل مستحيلة على الفلسطينيين، على أمل أن يهجروا البلاد"

مبدأ كتلة غوش أيمونيم المتطرفة

"أنا أؤمن بأن السلام والتقدم هما الإندماج بين القوة الناعمة والقوة الصلبة، والتصميم على الدفاع عن أنفسنا أمام الذين يهددون وجودنا وقيمنا من هنا تنبع رؤيتي لتحقيق السلام الذي يختلف عن سلام النخبة في إسرائيل والغرب، فهي تؤمن بأن السلام هو الذي يجلب القوة، وأنا أؤمن بأن القوة هي التي تجلب السلام"

بنيامين نتانياهو – "بيبي قصتي"

بعد أيام من انتصاره المدوي على أعدائه الأقل يمينية في نوفمبر٢٠٢٢م وقف رئيس الوزراء الإسرائيلي المكلف بنيامين نتانياهو أمام الإجتماع السنوي للإئتلاف اليهودي للحزب الجمهوري معلناً "أن الفلسطينيين لا يريدون تحقيق السلام مع الإسرائيل، ولا يريدون إقامة دولتهم بجانبها

إنما يريدون إقامة دولتهم مكان إسرائيل"، أضاف نتانياهو "لقد كنت محظوظاً بشكل إستثنائي للعمل مع إدارة أميركية بقيادة الرئيس دونالد ترامب، الذي وافق على سياستنا، وقد أدى ذلك إلى أربعة اتفاقات تطبيع، هذا الأمر حصل لأننا تجاوزنا الفلسطينيين".

هذه الجمل رسمت سياسة حكومة نتانياهو القادمة بوضوح سنواصل إتفاقات التطبيع وسنتجاوز الفلسطينيين هم لا يريدون السلام! ونحن نراهم شأناً داخلياً, قبل ذلك كان نتانياهو قد صرح بأن حل الصراع مع الفلسطينيين ليس أولوية ولن يكون مستقبلاً، بل هو جزء من حل أوسع مع العرب أولاً.

ما قاله نتانياهو يبدو وكأنه صدى لما كتبه مثله الأعلى زئيف جابوتنسكي منذ مئة عام ١٩٢٣م "لايجوز قتل الحلم بالتوصل إلى إتفاق بيننا وبين عرب إسرائيل (فلسطين)"، لكن يجوز في النهج النتنياهوي المعدل الإتفاق مع بقية العرب للحفاظ على إزدهار كيان إسرائيل، ففي ذروة نصره صاح في مؤيديه "سنعود إلى القوة ورفع الرأس ... سنعيد الأمن ونوسع دائرة السلام .. ونعيد إسرائيل إلى مكانتها كقوة صاعدة بين الأمم، سنعيد الفخر الوطني الذي سلب منا"، ولم لا وهو الذي بنى مجده على خلق نوع من التوازن بين محورين أساسيين شكلا السياسة الإسرائيلية منذ كامب ديفيد وحتى يومنا هذا؟!! الأول هو خلق نوع من التسوية والتفاوض مع العرب وتحييد الفلسطينيين، والثاني هو النضال الأيدولوجي للحفاظ على أرض إسرائيل بأكملها وإبطال أية إتفاقات للتقسيم.

هدف نتانياهو الأعظم طوال مسيرته كان الحد من خسائر ما سمي بالأرض مقابل السلام حتى الصفر، هذه هي رسالة النبي الملك بيبي الذي تعكس كتاباته دائماً أنه يرى نفسه آخر الأنبياء الملوك الإسرائيليين أو على الأقل الآباء المؤسسين للعصر الثاني للدولة العبرية، نبي سلام على الطراز التوراتي بطريقة جابوتنسكي الذي رأى أن الرب أنزل على اليهود السيف والتوراه معاً، كذلك نتانياهو الذي يرى أن الحقيقة البسيطة تكمن في أن القوة تقرب الدول بينما يبعدها الضعف عن بعضها من وجهة نظره "في الشرق الأوسط القوي فقط هو من يبقى ومع القوي يصنع السلام"، ولأن الفلسطينيين ليسوا أقوياء خاصة بعد تجريدهم من محيطهم العربي والذي سيضيف لإسرائيل عمقاً جغرافياً إستراتيجياً هي في حاجة إليه لأنها مبتورة العمق الجغرافي على ضفة واحدة من نهر الأردن فإن السلام مع العرب هو الضروري لإضعاف العدو وضمان

البقاء، الملك بيبي يعرف أن المملكة بحاجة لإقامة علاقات مع الجيران خارج الجدار الذي يحيط بإسرائيل ليحميها ،الجيران بالتأكيد هم الممالك والدول القوية وليس المبعدين من المنبوذين خارج الأسوار من الضعفاء هؤلاء من وجهة نظره دورهم إما التحييد أو الاستبعاد والظروف مواتيه تماماً لذلك، في الحقيقة أنه ومنذ بزوغ نجمه في العام١٩٩٣م كان أحد اللاعبين الرئيسيين الذين أسهموا في خلق هذه الظروف طوال هذه المدة ورغم التراجعات والصراعات والانهزامات والفضائح ظل فاعلاً ودؤوباً في تحقيق أهدافه واضعاً نصب عينيه مقولة ميكافيللي "لمن يرغب في النجاح الدائم ... عليه أن يغير سلوكه مع الزمن".

حياة نتانياهو نفسها تبدو كما لو كانت قصة حياة الكيان الصهيوني ربما هذا ما دفعه لإصدار كتاب سيرته الذاتيه "بيبي قصتي" قبيل الانتخابات الإسرائيلية الأخيرة، أول رئيس وزراء إسرائيلي ولد بعد قيام الدولة - مواليد تل أبيب أكتوبر١٩٤٩م، الإبن الثاني لبن صهيون نتانياهو أستاذ التاريخ في جامعة كورنيل والسكرتير الشخصي لزئيف جابوتنسكي مثل نتانياهو الأعلى في الأيديولوجيا، بن صهيون كان أحد أعمدة الصهيونية التحريفية وإبناً لحاخام بولندي متطرف بيبي خدم في الجيش الإسرائيلي في العمليات الخاصة الفترة من ١٩٦٧م ل ١٩٧٢م وأصيب في عملية تحرير رهائن من طائرة إسرائيلية وأصبح بطل حرب، شقيق نتانياهو الأكبر يوناتان قتل في إحدى عمليات خطف الطائرات التي كانت تقوم بها المنظمات الفلسطينية في عنتيبي أوغندا عام١٩٧٦م بعدها بأربعة أعوام.

نتانياهو يفخر بأصوله الصهيونية المميزة ويؤكد على أنه بالرغم من ميلاده عقب الهولوكوست فإن عائلته العريقه علمته بأن الدولة اليهودية كانت هدية صعبة وأن الطريق لها مازال محفوفاً بالمخاطر، فيما بعد دخل بيبي السياسة من بوابة مؤسسة يوناتان لمكافحة الإرهاب التي أصبح فيما بعد رئيساً لها، منها أصبح عضواً مقرباً في حلقة رئيس الوزراء الإسرائيلي إسحاق شامير ثم اكتسب شعبية عظيمة في إسرائيل بسبب عمله في الحملات الدعائية للإنتخابات وأطلق عليه أحد المعجبين "أبا إيبان" عصر ال CNN، هذه القدرات هي التي ساعدته في صعوده الأول في حملة الزعامة ضد المفكر مناحيم بيجن والعنيد ديفيد ليفي القدرات الخطابية والقدرة على المجادلة مازالت هي الفيصل حتى الآن عندما أسقط حكومة لابيد - بينيت والتي أرجع القائمين عليها السقوط إلى عدم قدرتهم على الرد على الشائعات كما أسموها.

في بداياته نظر مراقبو المسرح السياسي لبيبي نتانياهو على أنه شخصية غير معروفة خارج من عباءة أخوه البطل ووالده الأكاديمي العتيد، بل إن البعض اعتبروا كتابه الأول"مكان بين الشعوب" والذي نشره في العام١٩٩٣م على أنه بمثابة الإسهام الجاد في الجدل بين الأحزاب اليمينية لكن البعض ذهب لدرجة التشكيك فيما إذا كان هو كاتبه ولكن أحداً لم يشكك في إيمانه بما كتب فيه، فخريج معهد ماساشوتستس للعلوم لم ينكر يوماً أنه رغم مرونته في المسائل الحياتية له صلابته فيما يخص المسائل الأيدولوجية الحقيقية أن الجميع خارج من عباءة جابوتنسكي لكن نتانياهو مؤمن بمبادئه حتى النخاع بالرغم من قدرته على المناورة التي جعلته دائماً محل تشكيك وعدم رضا حتى من والده نفسه فهو لم يرى الرجل الذي حكم إسرائيل أكثر من مؤسسها نفسه كافياً لتطلعاته، ليس بطلاً بما فيه الكفايه ولا متشدداً بالقدر المطلوب.

نتانياهو ربما كان أكثر تشدداً من حلفائه الأرثوذكس اليمينيين الذين يستخدمهم اليوم كفزاعه لإرهاب الجميع ليحصل على تنازلات وليحقق أهدافه، منذ العام ١٩٩٣م وعلى مر السنين تغيرت مواقفه ولكن لم تتحرك ثوابته (منع قيام دولة فلسطين – المحافظة على وحدة القدس – الإبقاء على مسؤولية جيش الدفاع في المحافظة على الأمن – توفير ضمانات بقاء المستوطنين – إجهاض أي طرح لعودة اللاجئين – تحقيق أقصى منافع وإزدهار إقتصادي وتكنولوجي لإسرائيل). هذه هي ثوابت نتانياهو لكن الأهم إسقاط مبدأ الأرض مقابل السلام لأن التنازل الأكبر الذي قام به الإسرائيليون قد تم عندما وقعت إسرائيل إتفاقية السلام مع الأردن في أكتوبر١٩٩٤م وتنازلت بذلك عن جزء من إسرائيل التاريخية شرق الأردن للهاشميين وأي تنازل آخر أكثر من ذلك يعني الرضا بشبه دولة أو دولة ممزقة الأوصال، أيضاً لم يتغير موقفه من كل شيء إستخدام القوة وإستغلال الخوف.

من بيغين إلى نتانياهو كانت رحلة الصعود تبدأ من إستغلال الخوف الدائم للشخصية الإسرائيلية من شر مرتقب، هذه الطريقة هي التي استخدمها نتانياهو في جر عمال وقاطني كيبوتسات الجولان والضفة للإنسحاب من حزب العمل وتأييد الليكود، فإنضمامهم لحزب العمل كان بالدرجة الأولى لتحقيق مكاسب عمالية وحقوقية ولتحسين المعيشة لكن نتانياهو ببلاغته أوضح لهم أن وجودهم نفسه مهدد بالاتفاقيات والانسحابات فانسحبوا من الحزب الذي أسس الدولة للإنضمام لصفوف يمين نتانياهو، الناخب الإسرائيلي دائماً ما كان قابلاً للتأرجح والميل دراماتيكياً

نحو اليمين هذه حقيقة لن تفوت على شخصية بمثل ذكاء وبراجماتية بيبي الذي لاذ بالصمت طوال إرتفاع شعبية إتفاقات أوسلو في الشارع الإسرائيلي ليستغل بعد ذلك فصاحته ونجوميته التليفزيونية ويتبنى منهجاً شعبوياً راديكالياً، ويقوم بحملات دعائية مكثفة ضد الإتفاقات واصفاً إياها بأنها كذبة كبيرة وليطالب بإجراء استفتاء وطني عليهاوتلميحه أكثر من مرة بأنه في حالة عودة الليكود إلى السلطة فإنه لن يحترم أوسلو، في تلك الفترة طلب العديد من أعضاء الليكود من نتانياهو أن لا يلقي بنفسه في أحضان اليمين المتطرف بهذا الشكل إلا أنه صم أذنيه، الحقيقة أنه لم يكن بعيداً يوماً عن المتطرفين, في تلك الفترة صال وجال في الكنيست صارخاً بأن منظمة التحرير على بعد خمسة عشر دقيقة من القدس لتبعث المحرقة من جديد، وأن أوسلو هي ميونخ وبيريز هو تشمبرلين، وصاح في بيريز تشمبرلين عرض للخطر أمن وحرية شعب آخر ولكنك تفعل ذلك في أبناء شعبك، وذكر بالإتفاقية بين الولايات المتحدة وفيتنام الشمالية التي فشلت في منع الشيوعيين من دخول سايجون، نتانياهو لم يأت على ذكر قناعاته الأيدولوجية على الإطلاق ولا ذكر بالأحقية الإلهية بل لعب بالورقة الأمنية، بالخوف من المجهول القادم لإلقاء اليهود في البحر رويداً رويداً على مر حياته السياسية سيستخدم بيبي نفس الورقة حتى يصل لقانون المواطنة ويهودية الدولة.

ترى يائيل أرنوف في كتابها "علم النفس السياسي لرؤساء الوزراء الإسرائيليين أن شخصية بنيامين نتانياهو تشكل لغزاً محيراً للعديد من الباحثين، البعض يرى أنه مؤمن بجذور الأيديولوجيا الصهيونية لحزب الليكود، بينما يصر الآخرون على وصفه بأنه شخصية انتهازية ولا توجد لديه معتقدات راسخة، هي ترى أنه بالرغم من أن الرأي العام يلعب دوراً هاماً في التأثير على سياسات نتانياهو فإن الأيديولوجيا التي يؤمن بها لها التأثير الأهم على مدى وتوقيت التنازلات التي يقدمها , الحقيقة أن خبرته الطويلة وخضرمته أكسبته الكثير من المرونة على مدار الزمن فالمعارض العنيف لإتفاقات أوسلو لم يتورع في العام٢٠٠٩م عن الموافقة على مبدأ حل الدولتين وتجميد الاستيطان تحت الضغط الأميركي وأن يوافق على إطلاق أسرى فلسطينيين في ٢٠١٣م و تطبيق فك الإرتباط وتنفيذ بعض الانسحابات التكتيكية مثل الخليل ١٩٩٨م للحفاظ على الجيش وحصر الفلسطينيين كعمالة رخيصة في مناطق محدودة دون خسائر، لكن عندما تواتيه الفرصة يقنع دونالد ترامب بمصطلحات الجولف بإسقاط حل الدولتين وتبني أبدية القدس كعاصمة

لإسرائيل وإعلان شرعية المستوطنات والإعتراف بسيادة إسرائيل على مرتفعات الجولان المحتلة، هذا ما ساعده في أن يتفوق على عراب الليكود بيغين في معاهدة١٩٧٩م وأن يوقع مع الإمارات في ١٣أغسطس٢٠٢٠م معاهدة سلام بلا تنازلات، تلاها في ٢سبتمبر موافقة المملكة العربية السعودية على عبور الطائرات الإسرائيلية أجواءها، ثم في ١١سبتمبر وقعت إسرائيل إتفاق سلام مع البحرين وصفه محمد أشتيه رئيس الوزراء الفلسطيني "بأنه يوم سيضاف إلى روزنامة الألم الفلسطيني وسجل الإنكسارات العربية"، هو نفسه اليوم الذي أكد فيه يائير لابيد زعيم المعارضة الإسرائيلية آنذاك بأن نتانياهو ليس لديه أي نية لمحادثات مع الفلسطينيين، وفي ٢٣أكتوبرمن نفس العام تم التطبيع مع السودان، ثم أجرى نتانياهو مباحثات سرية مع ولي عهد السعودية في الرياض في الثالث والعشرين من نوفمبر وانتهى العام في العاشر من ديسمبر بتعهد المغرب بتطبيع العلاقات مع إسرائيل مقابل اعتراف الولايات المتحدة بسيادتها على الصحراء الغربية، ما دفع الرئيس الأميركي للقول "لو لم أكن رئيساً لأميركا، أعتقد أن إسرائيل كانت ستدمر. حسناً تريد أن تعرف الحقيقة؟ أعتقد أن إسرائيل ربما كانت انتهت الآن".

رغم كل هذه الخدمات فإن نتانياهو كان من أوائل المهنئين لبايدن بعد خسارة ترامب التي لم يعترف بها ما جعل ترامب يصف بيبي بعدم الولاء "لقد كان سريعاً جداً. أسرع من معظم الناس. لم أتحدث معه منذ ذلك الحين"، بيبي إعراباً عن عرفانه إكتفى بالإعلان عن مخطط لبناء مستوطنة في الجولان مستقبلاً باسم مرتفعات ترامب وشكره في خطابه السالف ذكره أمام اليهود الجمهوريين واكتفى بذلك.

السياسة في نظر نتانياهو ليست هي فن الممكن كما يقول بسمارك بل هي فن ممارسة الممكن لتحقيق ما كان ليس بالإمكان ولا في أحلام أكثر مؤسسي الكيان الصهيوني خيالاً، هي الإيمان بتحقيق المعجزات كما قال بن جوريون، معضلة بيبي النبي الآن أنه قادم على رأس حكومة من اليمينيين المتطرفين المعادين للنظام وللقانون إذا لم يتوافقا مع قناعتهم الدينية، البعض يرى أن خوف نتانياهو من الإدانه في تهم (الإحتيال وخيانة الأمانة وتلقي رشوة) وخسارة مستقبله السياسي السبب في هذا التحالف البائس من وجهة نظر كثيرين، خوف الملك من فقدان مستقبله السياسي والانتهاء في السجن كما حصل لسياسيين كثيرين يبدو هاجساً يطارده بالفعل ولكن هل هذا فقط سبب هذا التحالف؟! هل بالفعل هو على استعداد لخسارة الحليف الأميركي والمقامرة

بمستقبل إسرائيل للنجاة من السجن كما يقول حلفاؤه؟! أو ربما كان الهدف كالعادة أكثر تعقيداً؟!

نتانياهو لم يقسم المجتمع الإسرائيلي كما يقول أعداؤه، المجتمع الإسرائيلي منقسم بالفعل، يقول باروخ كيمبرلينج في تعريف السمة الجماعية للمجتمع الإسرائيلي هناك فرق بين مفهومي إسرائيل ودولة إسرائيل، أرض إسرائيل قائمة على أساس القرابه الأصلية بين كل اليهود والحدود التاريخية والقانون اليهودي التقليدي، أما دولة إسرائيل فهي القائمة على النموذج المدني الغربي والحدود المتفاوض عليها والقانون العلماني الإسرائيلي، وكما يرى الباحث في الشأن الإسرائيلي مايرون أرونوف "أن أخطر إنقسام بين اليهود في إسرائيل لايزال حول التفسيرات الأساسيةالمتعارضة والمتناقضة بشأن ما ينبغي عليه أن يكون الطابع اليهودي الدقيق لإسرائيل كدولة يهودية"، أيضا يقول أرونوف " أن الأمة المستقطبة بين أولئك الذين يؤكدون على واجب الشعب اليهودي في استعمار ودمج قلب اليابسة التوراتي القديم لدولة إسرائيل (يهوذا والسامرة أي الضفة الغربية) أياً كان الثمن"، وبين من يرون أن الإقدام على ذلك سيهدد كلّاً من الطابع الديمقراطي للدولة وسيجعل أبدية الحرب أمراً حتمياً وهناك انقسام على ذات الدرجة من العمق بين أولئك الذين يرون وجوب تأسيس الطابع اليهودي على التوافق مع التقاليد الدينية والقانون الديني وبين من يرفضون ذلك بشدة منادين بالمواءمة الديمقراطية الليبرالية الإنسانية للقيم اليهودية للبيئات المعاصرة.

نتانياهو وضع هذا الخلاف على السطح وفي قلب الحدث في إسرائيل ومهمته العسيرة الآن أن يجد صيغة توفيقية بين من يرون العالم عدوا لهم وبين من يريدون الاندماج والمناورة مع بقية الدول بين فكر لابيد المعارض الذي يرى في مغامرة نتانياهو هاوية ستدفع بإسرائيل لأن تكون دولة من دول العالم الثالث، وبين رأي بن غفير المتطرف في معارضة منحه سلطة موسعة على الشاباك بأنه تقويض للديمقراطية ووضع لسلطة سياسية في يد موظف ما يجعل إسرائيل في مصاف دول العالم الثالث، كلاهما يخاطب الناخب بالدرجة الأولى، هنا يظهر الجميع أنه مدرك أن خوف المواطن الإسرائيلي من التحول لدولة من دول العالم الثالث يتفوق على كل الخلافات الأيديولوجية والفكرية، هذا هو ما يجمع كل الأطياف وهو بالضبط مايلعب عليه نتانياهو، الضغط الدائم في المجتمع للتفوق واللحاق بركب الحداثة هو ما سوف يجبر كل القوى والآراء المتعارضة للتضافر لتحقيق الحلم، أو كما يرى آلان دوتي "إن كلاً من العمومية والخصوصية

أساسيان بالنسبة للتاريخ اليهودي، وأن التعارض بينهما هي الدينامية الأساسية في استمرارية ذلك التاريخ، وفي النهاية ستتطور إسرائيل بلا شك لتغدو مجتمعاً ودولة حديثة ويهودية في آن واحد، فاليهود أناس يعيشون بتقاليدهم حتى حين يتمردون عليها".

نتانياهو هو مثال حي على تلاقي المشروع الصهيوني العلماني مع الصهيونية الدينية،هو يتبنى موقف ابن أحد مؤسسي كتلة غوش ايمونيم الحاخام تسفي كوك الملخصة في التالي "دولة إسرائيل القوية بالبشر العلمانيين هي التي تساعد الرب يهوه في إقامة الدولة اليهودية الربانية (الهيكل) هي الأداة لتحقيق الخلاص وعودة المخلص لأنها هي التي تتيح لليهود الاستيطان في الأرض المقدسة وبهذا فإن العلمانيين بمعرفتهم ورضاهم أو دونهما هم أدوات الرب في تحقيق مقاصده، وبذلك تصبح الدولة الصهيونية وعلى الأخص جيشها مقدسين لأنهما أدوات الرب لتحقيق مبدأي الشعب المختار وأرض الميعاد المسعى الجوهري لقيام دولة إسرائيل".

في سبيل هذا المنظور للدولة العلمانية تغاضى الأيديولوجيون والمتطرفون عن الضفة الشرقية لنهر الأردن بدعوى أنه تركة الآباء القدماء ويركزون جهودهم على نقاء مايرونه الدولة الحالية، ولكن لا أحد في إسرائيل حتى الأكثر براجماتية وتحرراً يستطيع التشكيك في أرض إسرائيل التاريخية، يبني نتانياهو سياسة حكومته الجديدة على التركيز على ما يجمعنا والبعد عما يفرقنا، الأهداف الأساسية (إنهاء حل الدولتين – تحييد الفلسطينيين – أمن وازدهار إسرائيل) والانشغال بذلك كبديل عن محاولات الجماعات المتطرفة تغيير المجتمع الإسرائيلي، على سبيل المثال الكنيست صادق على قرار لتعيين وزير في وزارة الأمن يكون ممثلاً عن حزب الصهيونية الدينية وظيفته الأساسية ستكون وضع ضوابط لتسهيل منع البناء في القرى الفلسطينية في المنطقة "ج" والتوسع في بناء المستوطنات، كما أن الإئتلاف الموالي لنتانياهو سيسعى لتمرير بند يدعى بند التغلب يهدف إلى تقليص صلاحيات المحكمة العليا الإسرائيلية في منع أو شطب قوانين الكنيست الغير دستورية التي تعارض قانون الأساس وتقليص إزالة المستوطنات المخالفة للقانون، أيضاً أعطى نتانياهو لحليفه المتطرف سموتريتش زعيم حزب الصهيونية الدينية سلطات قوية فيما يختص بالاستيطان والإدارة المدنية والأمنية في الضفة الغربية، كما سيتولى حقيبة الأمن القومي والمتوقع أن سموتريتش سيحاول توسيع أنشطة الاستيطان وسيعمل مافي وسعه لتقويض أي شكل لسيادة السلطة في الضفة الغربية حتى لو كان رمزياً أو يخفي أنها متصرف بالوكالة.

أما حليفه الآخر سيء السمعة إيتمار بن غفير فسيتولى وزارة الأمن الداخلى ومقعداً في مجلس الوزراء الأمني مع إدارة شرطة حرس الحدود في الضفة الغربية وأيضاً وزارة تطوير موارد الجليل والنقب إضافة لصلاحية تسوية وضع المستوطنات العشوائية، رد نتانياهو على منتقديه في هذا الاختيار بأن "بن غفير قد غير الكثير من قناعاته ومع السلطة تأتي المسؤولية".

بن غفير عراقي الأصل ينتمي لمجتمع اليهود الشرقيين، محامي قدمت ضده أكثر من خمسين لائحة إتهام منها ثمانية جنائية يمثل مجتمعاً كاملاً ينظر له كمجتمع أدنى من ذوي الأصول الشرق أوسطية، ينتمي غالبيته للأحزاب الدينية، وهم كما يقول آلان دوتي لهم أسلوب في النظر إلى الدين على أنه مسألة عادات وتقاليد أكثر من كونه أيديولوجية لا تمس حرمتها، ويحركه عامل آخر إضافي غير الحق التاريخي والإلهي في أرض إسرائيل هو الحقائق الإجتماعية والسكانية التي شكلت الخبرة التاريخية للإسرائيليين القادمين من مناطق غير أوروبية وسكان المستوطنات الأقل تعليماً ووصولاً للمناصب ودخلاً سوف يسعى بالتأكيد لتحسين أوضاع مجتمعه على حساب المجتمع المدني الإسرائيلي، ولكنه أيضاً يرى أن الفلسطينيين يشكلون خطراً على مجتمعه وعلى رفاهه وعلى إسرائيل مهما عظم نفعهم كأيدي عاملة رخيصة لذلك يجب ترحيلهم بالقوة أو اقتطاع جزء من سيناء يقيمون فيه خارج الحدود المقدسة، ولذلك فإيكال هذا المنصب له معناه نصب الجحيم للفلسطينيين ويتفق معه في الرؤية رئيس حزب شاس آرييه أدرعي الذي عدلت قوانين الكنيست خصيصاً ليستطيع دخول الوزارة، يبدو الفلسطينيون في تركيبة نتانياهو الوزارية ككبش المحرقة، رغم إصرار سموتريتش على أنه "سيعمل على إحلال أحكام الشريعة اليهودية محل القانون الوضعي".

لم تقلق هذه الاختيارات المعارضة في إسرائيل إلا لسببين الأول أنها ستثير الخلاف مع الأميركيين ,والثاني أنها على حد قول يائير لابيد ستثير الخلاف داخلنا, لم يقلق أحد إذا كانت هذه الخيارات سوف تؤثر على الفلسطينيين بل على العكس تماماً, بينما إختيار نوعم رئيس حزب موعاز كمسؤول عن شؤون الهوية اليهودية وهو مكتب تابع لرئاسة الوزراء أثار القلق الشديد في المجتمع الإسرائيلي الذي يفخر بأنه أكثر مجتمع يحتفي بحقوق المثليين في الشرق الأوسط ، كذلك أثار الخوف على نضال النساء من أجل المساواة، الآلاف أبدوا قلقهم رغم عدم مبالاتهم بحقوق الأطفال الفلسطينيين، لم يعترض أحد عندما دعا سموتريتش لإطلاق النار على الأطفال الذين

يقذفون الحجارة في غزة والقطاع أو عندما صرح بأنه يجب الفصل بين اليهوديات والعربيات في عنابر الولادة لأن زوجته لا ترغب في الاستلقاء بجوار أم قد يأتي مولودها ليقتلها بعد عشرين عاماً.

كأن الجميع يهتف بلسان بيبي الذي كتب في مذكراته "إبراهام لينكولين إحتاج إلى إنتصار ملطخ بالدماء في الحرب الأهلية، من أجل أن تنجح بلاده في استئصال شر حقير مثل العبودية", على سخرية المقارنة بين شعب أعزل يدافع عن وجوده وأولئك الذين استعبدوا البشر من أجل المال، نتانياهو وحلفاؤه ومجتمعه مجمعون على وجوب القضاء على أية بادرة أمل في نيل الفلسطينيين حقوقهم الخلاف فقط على الطريقة والزمن الذي يستلزمه ذلك هؤلاء الحلفاء الجدد لا يبالون كثيراً بحقوق الإنسان والمجتمع الدولي ويرون الجيران حاجزاً بينهم وبين ماهو لهم على أفضل تقدير. يرونهم مهاجرين من مجتمعات عربية مجاورة يجب أن يعودوا إليها، ضيوف ثقال غير مرغوب فيهم استضافهم اليهود منذ عهد إبراهيم كما يقول سموتريتش ولذلك فمن المنطقي بالنسبة لبيبي أن يعهد إليه هو وعصابته بتنظيف أريتز إسرائيل منهم ويتفرغ هو لسلام القوة الذي يحلم به والواضح أن الرأي العام الإسرائيلي يشاركه قناعته، فالأحزاب الدينية حصلت على أكثر من نصف مليون صوت في الانتخابات الأخيرة كما حصدت ٢٠٪ من أصوات الجيش الإسرائيلي مايدعم أن القناعة الشعبوية الإسرائيلية لا تقبل بأي حال وجود الفلسطينيين كشركاء متساوين على الأرض سواء في دولة واحدة أو دولتين، مايقبل به وجودهم كخدم أو مصدر للأيدي العاملة الرخيصة التي تساهم في بناء الدولة بلا أية حقوق حتى التواجد على الأرض، كل شيء يجب أن يكون تحت سيطرة الدولة التي لا صوت لهم فيها، ال٢٧ ألف كيلومتر مربع بالكامل يجب أن يكونوا تحت سيطرة دولة بيبي وفاشيته هنا يبدو أثر جابوتنسكي جلياً عليه.

جابوتنسكي كان يعلم الفتيان اليهود في منظمة بيتار الفاشية التي أسسها أغنية تقول "ألمانيا لهتلر – إيطاليا لموسوليني – وفلسطين لجابوتنسكي "... أصبحت الآن فلسطين لبيبي, هذه هي قناعته التي سوف يستخدم حلفاءه اليمينيين لتحقيقها، فهو يرى أن جابوتنسكي وعقيدته يظلان بمثابة عمود النار الذي سيستمر في تغذية شعلة الصهيونية وتوجيه طريقها "أمة مطلقة هو الحلم"، أما على مستوى السياسة الخارجية فإن سياسة المثلث الحديدي أو سلام المثلث الحديدي هي التي ستحكم علاقته بالجيران في الفترة القادمة، النظرية التي يرى البعض أنها تعارض مقاربة

جابوتنسكي عن الجدار العازل بالفعل حققت نجاحاً في عقد الاتفاقيات الإبراهيمية أو كما يقول بيبي بفخر "إن اتفاقيات السلام التي أبرمناها مع ٤دول عربية أخرجتنا من معادلة الأرض مقابل السلام دون التنازل عن شبر واحد من الأرض"، وهي من وجهة نظره بمثابة التحول التاريخي الذي يدفع عملية السلام مع العالم العربي قدماً والذي من شأنه أن يدفع السلام الحقيقي والقابل للمراقبة والأمن مع الفلسطينيين، فهدف الإتفاقيات الرئيسي أن يتعامل الشرق أوسطيون مع القضية الفلسطينية على أنها مسألة صراع عرقي حله شكل من أشكال الحكم الذاتي على أفضل التقديرات أو كقضية أقلية دينية مسلمة في دولة يهودية على الأسوأ، حالة مثل الصراعات الطائفية أو مسلمي الروهينجا في ميانمار والايجور في الصين، وأن وجود إسرائيل ليس معناه خطراً استراتيجياً على العكس إنها كيان داعم شريك وحامٍ ومثال يحتذى به وللاستفادة من هذا الوجود يجب التغاضي عن الشأن الفلسطيني باعتباره أمر اًداخلياً إسرائيلياً.

الحقيقة أن نتانياهو لا يخالف رؤية جابوتنسكي في الجدار فالسلام الوحيد من وجهة نظره هو السلام الذي تستطيع فيه اسرائيل الدفاع عن نفسها، الذي سيمنح فيه الفلسطينيون حكم أنفسهم والتصرف في شؤونهم الداخلية دون سيادة، دون حقوق الأمن والسيادة الاسرائيلية جوهر عقيدة السلام الجديدة، هي سلام مقابل السلام وسلام من منطلق القوة، ما يفرق سلام نتانياهو عن جدار جابوتنسكي أن نتانياهو رجل أعمال عمل فترة في الاستشارات المالية وكما يقول ميكافيللي "رجال الأعمال هم الأشخاص الذين يعتقدون بأن هناك فرق طفيف مابين العقبة والفرصة لذا هم بمقدورهم تحويل كليهما إلى نجاح" وبهذا المنطق ولد " سلام الأمن والقلب والجيب"، السلام الذي جعل إسرائيل تتواصل مع العالم بعد أن كانت معزولة عنه الذي كتب عنه بيبي عبر حسابه على الفيسبوك "لم يتم التوصل إلى هذا السلام لأن إسرائيل قد أضعفت نفسها من خلال الانسحاب إلى خطوط١٩٦٧م، وإنما بفضل حقيقة أن إسرائيل قد عززت مكانتها من خلال تنمية الاقتصاد الحر وتعزيز قوتها العسكرية والتكنولوجية، ومن خلال الدمج مابين هاتين القوتين اكتسبت القدرة على النفوذ غير المسبوق على الساحة الدولية"، كما كتب أيضاً "حقيقة أننا قد وقفنا وحدنا، وأنني قد اضطررت في بعض الأحيان للوقوف وحدي أمام العالم كله، أمام إيران وأمام الاتفاقية النووية الخطيرة معها قد ترك انطباعاً عظيماً لدى الزعماء العرب في هذه المنطقة". "إن اندماج القوة العسكرية والاقتصادية والسياسية هو الذي يمكنه أن يجلب

السلام وأن يضمن مستقبل إسرائيل ويقود إلى المصالحة مع العالم العربي".

نظرية نتانياهو تبدو وكأنها تفتح باباً لصحوة إسرائيلية ثانية تتخلى فيه عن دورها كأكبر قاعدة عسكرية أميركية خارج الحدود وكشرطي للمنطقة، إلى أن تصبح فرداً عاملاً في الجامعة الشرق أوسطية مفتاح عهد جديد تصبح فيه حامية لأمن الأنظمة العربية، وتتخلى عن سياسات الاعتداء على الجيران وخوض الحروب بالوكالة وتصبح شريكاً في المصير بدلاً من الفلسطينيين أمام أخطار المد الديني المتطرف وإيران الشيعية بينما ينظر الآن إلى الفصيل الفلسطيني المستمر في المقاومة على أنه ينتمي لذلك الفكر المتطرف الذي أصبح الجميع في العالم العربي يرى أنه خطر على نمط حياته وأيضاً على رغبته في التقدم واللحاق بركب العالم، مشكلة يبدو أن الفلسطينيين لا يعون مدى خطورتها وأثرها على الشارع العربي الذي طالما عولوا عليه في مساندتهم والضغط على أنظمته الحاكمة، لا أحد يرغب في تقوية أيدولوجية قد تهدد وجوده وتسعى للسيطرة على حريته لعل هذا يفسر سعي نتانياهو الدائم لدعم اقتصاد غزة حتى يحول دون سقوط حماس بدعوى أن سقوط حماس معناه فوضى لا تحمد عقباها، وفي نفس الوقت نتانياهو هو من يعرض على العرب الرخاء الإقتصادي والأمن والراحة السياسية من خلال وكيله الرئيس الإسرائيلي العمالي اسحق هيرتزوغ الذي توسعت صلاحياته فجأة بعد أن كان منصبه شرفياً، ومن أفضل من الزعيم الذي ينتمي لحزب العمال تلميذ بيريز عراب أوسلو لأن يكون سفيراً للجامعة الشرق أوسطية وكواجهة تخفي وجه بيبي المكروه لدى الرأي العام العربي، على الأخص أن هيرتزوغ الذي روجت له صحف المنطقة كابن لأم بولندية مولودة في الإسماعيلية بمصر يعي دوره جيداً.

في ٤ ديسمبر٢٠٢٢م وقبيل قيامه بأول زيارة رسمية لرئيس إسرائيلي لمملكة البحرين أكد هيرتزوج على تويتر "أن اتفاقات إبراهام أثارت تعاوناً إقليمياً تاريخياً ودعا المزيد من دول المنطقة للانضمام لهذه الشراكة ومواجهة التحديات السياسية وتحديات المناخ"، كتب أيضاً "إن دائرة السلام والشراكة آخذة في الاتساع مع جيراننا في الشرق الأوسط على الأخص في ظل تضعضع الاستقرار العالمي والإقليمي".

مع هذا فإن نتانياهو يواجه معارضة وهو في نظر عدد غير قليل من الاسرائيليين مغامر وأفّاق، فصحيفة هآرتس التي لطالما عادت توجهاته كتبت في إفتتاحيتها يوماً رداً على سياسة مثلثه الحديدي "من يسعى لتجاوز رام الله ويخفي عن الفلسطينيين كل ماتبقى من أفق سياسي، يقود

إسرائيل إلى حائط حديدي بلا مخرج. لا أمني ولا سياسي ،لا اقتصادي، ولا ديمقراطي"، وفي مقال آخر للكاتب نحميا شتراسلر كتب "واضح أن نتانياهو لايهتم بما يحدث لإسرائيل لا إقتصادياً ولا إجتماعياً. يهتم فقط بنفسه. يهدف إلى العودة إلى السلطة بأي ثمن لإلغاء محاكمته بالفساد حتى لو كان الثمن يعني ابقاء الأرثوذكس المتشددين أميين. عاطلين عن العمل. ما يعرض إسرائيل للخطر فنتانياهو ليس لديه مشكلة مع أفراد المجتمع الأرثوذوكسي اليهودي المتطرف الذين لا يخدمون في الجيش، ولايدرسون المناهج الأساسية، ولايعملون من أجل لقمة العيش".

لكن السؤال الحقيقي هل معارضو نتانياهو جادون في نواياهم نحو رام الله ودعم السلطة الفلسطينية؟!! الغريب أن لابيد وهو من المعارضة اتهم نتانياهو أكثر من مرة بالتراخي والضعف أمام الفلسطينيين مع أول بادرة عنف أو تذمر منهم، أما شريكه بينيت فقد لخص سياسة الحكومة السابقة التي انتصر عليها نتانياهو في مبدأ قانون٧٠/٧٠ أي إجماع ٧٠٪ من الإسرائيليين على المواقف التي يعمل عليها بقوله: "نتفق جميعاً على أننا بحاجة إلى قطارات وطرق أفضل، وتعليم أفضل، مزيد من الأمن، تكلفة معيشة أقل"، وتجاهل الخلاف على العلاقة بين الدين والدولة الصراع الإسرائيلي الفلسطيني ، الدين والدولة والطبيعة المرغوبة لعدالة النظام، "المبدأ الذي أسقط الحكومة كان لن نصر على السيادة الإسرائيلية على المناطق ولن نسلمها للفلسطينيين"، بمعنى أن بينيت لم يخالف رؤية نتانياهو لكنه أراد أن يجعلها تؤجل الحلم، ما عرضه نتانياهو في المقابل كان سلام الحلم، هو سيبني المستوطنات ويحسن الصحة والتعليم ويحقق الازدهار من جيوب الأصدقاء سوف يحقق الحلم بتمويل ومباركة أعداء الأمس.

بفضل التعاون في التكنولوجيا وقطاعات الغاز والطاقة التي ستصدر إلى أوروبا وأن الجميع شركاء في مبادرة الحزام والطريق الصينية، هذه الشراكة تقتضي ممرات آمنة وجديدة وأنفاق وخطوط أنابيب وطرق بنية تحتية أصبح الكثير منها واقعاً يشق جوف مدن الشرق الأوسط وصولاً إلى بيكين، كذلك ممرات بحرية يجب تأمينها وأن تظل تحظى بالسلام على الجانب المائي من الطريق، الصين التي أضحت زبوناً مهماً للتكنولوجيا الإسرائيلية ومساهمة في أكثر من ٥٠٪ من المشاريع الاستثمارية فيها ومسيطرة على ٧٠٪من صناعة الألبان، هي الممول الأساسي لسكة حديد إيلات أشدود المرتبط بفرعي المشروع الصيني، كما أن إسرائيل انضمت لبنك البنية التحتية الممول للمشروع مايتيح لها التعامل مع دول مازالت ترفض التعامل معها، مثل ماليزيا وأندونيسيا

وباكستان كما تتيح لها مواقف صينية أقل تشدداً من القضية الفلسطينية عن السابق، كل هذا يتيح لإسرائيل الخروج من عباءة الولايات المتحدة التي لم تعد مهتمة بالمنطقة بالقدراللازم ولا بالصراع فهي تبحث تخفيض رتبة ضابط الاتصال الأميركي في القدس المسؤول عن التواصل بين طرفي الصراع من جنرال بثلاثة نجوم إلى كولونيل، الجيران أيضاً ينظرون إلى هذا الاتفاق الذي يتوسع على أنه طوق نجاة للخروج من إقتصاديات أغلبهم المرهقة جداً، أما الباقون فيتطلعون للخروج من عباءة الوصم بالتخلف والتطرف وكسر قيد السيد الأميركي، وتجاوز مشاكلهم الأيدولوجية والمذهبية ويرون في هذا اللحاق بركب العالم طوق نجاة لأنظمتهم التي ستتداعى بفعل العولمة، ربما يفسر هذا الاحتفاء العربي بالاتفاق الذي وقعته نيوميد الإسرائيلية للتنقيب عن الغاز الطبيعي في المغرب.

"لا سلام ولا تعايش سلمي دون تحرر حقيقي من خرافات الأيديولوجيا، ولا مستقبل لمفاوض فلسطيني ولا تعايش عربي إسرائيلي دون أن يدرك هذا المفاوض مدى تغلغل الأيديولوجيا وتأثيرها العميق على فكر المجتمع الإسرائيلي" كما يقول إسرائيل شاحاك، ويضيف شاحاك "أنه لابد من تغيير جذري للعقلية العربية التي فشلت في الحوار واحتواء الفكر اليهودي المتطرف الذي هو قلب الأيديولوجية الصهيونية"، ما يحدث الآن هو ما وصفه إدوارد سعيد بأنه قبول لخيالات ديمقراطية إسرائيل وإمكانية الشراكة التي يروج لها الإعلام الغربي، سعيد أيضاً اتهم ضمنياً القيادات العربية والمثقفين العرب برؤية جاهلة إلى حد فاضح لهذه الدولة خاصة عندما يتحدثون لشعوبهم عن أن إسرائيل قد تغيرت حقاً وأنها تريد السلام مع الفلسطينيين والعرب، وهنا اتفق سعيد مع شاحاك الذي رأى أن إسرائيل كدولة يهودية تشكل خطراً ليس فقط على نفسها والمقيمين بها بل وعلى جميع اليهود وجميع الشعوب الأخرى والدول في منطقة الشرق الأوسط، الحقيقة أن معنى مصطلح يهودي أو المصطلحات المشابهة في رؤية اليمين الإسرائيلي يعادل معنى مصطلح إسلامي عندما تستخدمه طالبان أو داعش والقاعدة هو على نفس الخطورة، لكن الجميع اختار تجاهل ذلك.

السبب الوحيد مثلاً لموافقة يائير لابيد على إقامة دولة فلسطينية جعل الصراع أسهل، نتانياهو صاحب المثلث كتب أنه "إذا راكمت قوى الشر قوة عسكرية واقتصادية، فهي ستهزم الأمم النبيلة أكثر", علينا أن نتذكر كل من وراء السور هم قوى شر بالنسبة لليهودي اليميني على اختلاف

درجات التطرف.

ماذا عن الجانب الفلسطيني الشاهد أن الاتجاه العام يصبح هو الآخر أكثر تطرفاً وأكثر تشاؤماً، ففي استطلاع أجراه المركز الفلسطيني للبحوث السياسية والمسحية من ٧-١٠ كانون الأول/ ديسمبر٢٠٢٢م أيد ٧٢٪ من الفلسطينيين تشكيل مجموعات مسلحة مثل عرين الأسود لاتخضع للسلطة الفلسطينية أو أي قيادة سياسية، وترتفع النسبة ل٨٧٪ يرون أنه ليس من حق السلطة اعتقالهم، ٥٨٪يرون أن حكومة نتانياهو ستغير الأوضاع في المسجد الأقصى، ٦٤٪يرون أنها ستطرد فلسطينيي الشيخ جراح وعرب الجهالين وأريحا، ٢٤٪يرغبون في الهجرة، ٦٧٪ يرون أن حل الدولتين بات محالاً والحل في الكفاح المسلح، ٥٩٪ يرون أن المستقبل للحركات المسلحة وليس للسلطة.

ملامح ما ستنجزه حكومة نتانياهو بات واضحاً ليس الإستقرار بل ما أسماه الفيلسوف الفرنسي جان بودريار (السيستم)، القوة التي تقابل القوة حيث لا مجال لفكرة التضحية أو الفداء وحب الوطن بل هو الرغبة في امتلاك القوة والقهر المعاكس، الانتحاريون مثل الفاشيون كلاهما يفكر بالقوة، مفهوم الفداء والتضحية مفهوم إنساني إذا استحال العيش فلنمت من أجل أن يعيش من نحبهم، أما القوة فهو مفهوم مغامر يخلق قاعدة تغامر بمصير البشرية بأجمعها في حال تحوله لقوة غاشمة قاهرة ومتفاقمة، وهذا ينطبق على طرفي السيستم يبدو بيبي وكل من في الشرق الأوسط مندفعين في هذا الاتجاه الآن.

الحل أن يدرك العرب أن مفهوم القومية العربية والأمة العربية الذي نادوا به طويلاً ولم يعملوا به يوماً هو طوق النجاة، أن يدرك الجميع أنهم إذا أرادوا الرفاه الذي يحلمون به فعليهم أن لايتركوا الفلسطينيين وحدهم، لأن وجودهم حقيقة لايمكن تأجيلها أو تجاهلها وأن عليهم أن يهذبوا النزعة العنصرية لحليفهم الجديد إذا كان يريد أن يتعامل معهم،وأن يفهموه أن عليه أن يقدم تنازلات بقدر ما سيعود عليه من منافع إن أراد علاقات طبيعية مع محيطه، وشيئاً فشيئاً ستسود الثقافة الأقوى مهما أحاط الآخر نفسه بالأسوار ويسقط الجيتو.

حقيقي أنه لم يكن الشعب العربي أمة في يوم ما بل كان ولايات عثمانية ثم أصبح دولاً ودويلات لكن هذا لا يعني أن هذا الوضع لا يمكن خلقه حتى لو لم يوجد بعد، علينا استخدام خيالنا أكثر من ذاكرتنا كما قال بيريز.

الانتخابات الإسرائيلية، نتائجها وأبعادها على الفلسطينيين

عليان الهندي*

بعد خمسة جولات انتخابية منذ عام ٢٠١٩، وعلى خلفية رفض أي مشاركة فلسطينية بأية حكومة إسرائيلية أو الاعتماد عليها برلمانيا، لأنها ستكون حكومة غير يهودية، حسم الناخب الإسرائيلي أمره بالتصويت لأحزاب اليمين الديني الاستيطاني، الذي بنى سياساته وايديولوجيته على مقولات عنصرية وفاشية، تَدَعي بأحقية اليهود في أرض فلسطين، وأن لا حقوق تذكر لأصحاب الأرض الأصليين (العرب الفلسطينيين)، الذين عليهم الرحيل من هذه البلاد. ولا يعني ذلك، أن الطرف الثاني من المعادلة السياسية في إسرائيل أقل تطرفا من المعسكر المذكور، فقد تبنت الحكومة الحالية التي قادها تحالف من أحزاب اليمين بقيادة يئير لابيد ونفتالي بينت وبنيامين غانتس، نهجا يقوم على مبدأ الاستيطان والقتل والتدمير بحق الشعب الفلسطيني وممتلكاته أكثر من أي حكومة أخرى منذ عام ٢٠١٥.

وتشير نتائج الانتخابات الإسرائيلية الحالية، بشكل لا لبس فيه، أن المجتمع اليهودي القائم على الأسس العنصرية والعرقية، ما زال يرفض الآخر بشكل مطلق، المتمثل بالفلسطينيين القاطنين في أراضي فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨، موقظا بعضهم من وهم المشاركة بالاندماج في الحياة السياسية بدولة الاحتلال الإسرائيلي.

كما أشارت النتائج الحالية إلى رفض المجتمع الإسرائيلي، لوجود نخب سياسية جديدة نشأت خلال الأعوام الماضية على قمة الحكم في إسرائيل، التي تمثلت بعودة كبار موظفي الدولة من عسكريين ومدنيين إلى الحياة السياسية. وبناء على ما ذكر، تهتم المقالة الحالية بنتائج الانتخابات

* كاتب وباحث من فلسطين

وميول الفائزين فيها، ومعالجة أبعاد وانعكاسات الانتخابات الإسرائيلية على الشعب الفلسطيني، ومحاولة رسم سياسات إسرائيل اتجاهه خلال السنوات القادمة.

القوى الانتخابية

بلغ عدد سكان دولة إسرائيل ٩,٥٠٧ مليون نسمة عام ٢٠٢٢ منهم ٧٣,٩٪ يهود و٢١,٢٪ عرب (مسلمون ومسيحيون ودروز وشركس وغير ذلك) و ٥٪ آخرون. وبلغ أصحاب حق الاقتراع في الانتخابات التي جرت قبل نهاية العام الحالي بقليل ٦,٨ مليون نسمة.

جرت الانتخابات الإسرائيلية وفق التمثيل النسبي، الذي لا يستثني أية قطاعات سكانية تحيا في دولة الاحتلال الإسرائيلي، وبلغت نسبة الحسم ٣,٢٥٪ أي أن كل من حصل على أكثر من ١٥٥ ألف صوت مُثِل في الكنيست الحالية بـ ٤ مقاعد.

وفق المعطيات المذكورة، تكونت القوة الانتخابية الإسرائيلية من فئتين هما: الفلسطينيون أصحاب الأرض الأصليون، الذين يشكلون ما نسبته ٢١٪ من السكان، وما يقارب من ٩٠٠ ألف صوت، وهم من الناحية الانتخابية يساوون ما يقارب ٢٢ مقعد كنيست، ويمثلهما في الكنيست الحالية القائمتان المشتركة والعربية الموحدة، اللتان حصلتا سويا على ١٠ مقاعد، بنسبة تصويت بلغت أقل بقليل من ٨٪ من مجموع الأصوات.

الفئة الثانية من دولة إسرائيل هم اليهود المنقسمون لثلاثة تيارات أساسية هي: المتدينون المتزمتون على مختلف مشاربهم، الذين يشكلون سويا ما يقارب ٢٧٪ من مجموع سكان دولة إسرائيل، الذين حصلوا في الانتخابات الأخيرة على ما نسبته ٢٤,٥٪ من مجموع الأصوات، موزعة على ٣ أحزاب هي المتزمتون دينيا (الحريديم)، الذين حصلوا على ١٤٪ من مجموع الأصوات، ويتمثلون بحزبين هما: الأول، شاس بصفته ممثلا لليهود الشرقيين (سفارديم) ويقوده مجلس حاخامات. والثاني، يهودوت هتوراه المكون من تيارين هما: أغودات يسرائيل (التي أسست في بولندا) وديغل هتوراة (التي أسست في ليتوانيا) وتسمى بالتيار الليطائي نسبة إلى بلد المنشأ. والحزب بفرعيه يمثل اليهود الغربيين المتزمتين دينيا (الاشكناز). ويقود الحزب مجلس كبار التوراة. وخلال الانتخابات الحالية حصلا سويا على ٢١ مقعد في الكنيست. والثالث، هم حزب الصهيونية الدينية الوطنية أو بصورة أدق تيار المستوطنين، المنتشر نصفهم في المستوطنات الإسرائيلية في الضفة الغربية ومدينة القدس. وحصل أنصار هذا التيارعلى ١٠,٥٪ من مجموع

الأصوات التي ترجمت إلى ١٤ مقعداً في الكنيست.

لكن لا بد من الإشارة أن لحزب الصهيونية الدينية أو حزب المستوطنين، قوة سياسية أكبر بكثير من قوته الانتخابية، فمن جهة يسيطر عناصر حزب الصهيونية الدينية على أكبر الأحزاب الإسرائيلية (الليكود) ويصوتون مرتين، الأولى في الانتخابات التمهيدية لحزب الليكود لاختيار مرشحي الحزب للكنيست، والثانية التصويت في الانتخابات العامة لصالح حزبهم الخاص. وفي السياق المذكور، صرح قادة هذا التيار انهم نجحوا في إدخال أول ١٥ مرشح من الليكود الرافضين لأي حل مع الفلسطينيين والمؤيدين لضم الضفة الغربية من دون تحديد أية مكانة للفلسطينيين.

لكن الفئة الأكبر من سكان دولة إسرائيل اليهود الذين يمثلون ما نسبته ٤٠٪ من عدد سكان دولة إسرائيل الذين يصل عددهم إلى ما يقارب ٤ ملايين نسمة، فهم خليط من البشر الذين يختلفون في أمور الدولة والدين، ويتفقون في العداء والمواقف المتطرفة تجاه الشعب الفلسطيني. من هؤلاء ما يقارب مليون نسمة من اليهود الروس، الذين يتبنون في السياسة مواقف متطرفة جدا تجاه الفلسطينيين، وهم علمانيون حتى النخاع في حياتهم العامة، ما أوجد نوعا من عدم القدرة على التعايش مع المتدينين المتزمتين (الحريديم). وخلال الانتخابات الأخيرة حصل أنصار هذا التيار على ٧٤ مقعد موزعين على :الليكود برئاسة بنيامين نتنياهو (٣٢ مقعد)، ويش عتيد بقيادة يئير لبيد (٢٤ مقعد) والقائمة الرسمية بقيادة بنيامين غانتس(١٢ مقعد)، وحزب إسرائيل بيتنا (٦ مقاعد).

أما البقية الباقية من المجتمع الإسرائيلي فهم من يصنفون أنفسهم على أنهم يساريون، الذين تبلغ نسبتهم في المجتمع الإسرائيلي ٧٪ الذين حصلوا في الانتخابات الأخيرة على ٤ مقاعد فقط. إضافة إلى ٥٪ من المتسللين وممن يصنفون أنفسهم بلا دين والعمال الأجانب

الميول السياسية

تضم الكنيست القادمة ١٠ فلسطينيين من بينهم درزيان، وما يقارب من ٤٦ عضو كنيست ممن يعتبرون أنفسهم من المتدينين المتزمتين دينيا من بينهم ١٠ حاخامات، وما يعادلهم من اعضاء الكنيست الذين يعتبرون أنفسهم يؤدون الواجبات الدينية ومن أهمهم (بنيامين غانتس) الذي يعتبر نفسه محافظا من الناحية الدينية. كما ستضم الكنيست القادمة ثلاثة ٣ لواطيين و ٣ نباتيين وعارض أزياء واحد ومعاقة واحدة (مصابة بمرض ضمور العضلات). وعلى عكس المرات السابقة، قلّت نسبة أعضاء الكنيست الذين ولدوا في الخارج، الذين بلغ عددهم ١٥ عضو كنيست. إضافة

لذلك، ضمت الكنيست الحالية ١٦ عضواً جديداً.

كذلك شهدت الكنيست الحالية ارتفاعا في عدد أعضاء الكنيست من أصول شرقية، الذين بلغ عددهم ٦٠ عضوا، من ضمنهم ١٠ أعضاء كنيست عرب. والغريب في أعضاء الكنيست الشرقيين الحاليين أن معظمهم من يهود المغرب وتونس بالدرجة الثانية. ويضم الليكود أكبر عدد من أعضاء الكنيست الشرقيين ١٧، في حين يعتبر حزب شاس شرقيا بالخالص.

أما عدد المستوطنين في الكنيست القادمة فيصل إلى ١٧ عضواً موزعين على معظم الأحزاب، في حين لا يضم حزب المستوطنين (الصهيونية الدينية) سوى ٣ مستوطنين. واكثر عدد من المستوطنين موجود في حزب الليكود.

وبخصوص الانتماءات السياسية في الكنيست القادمة، وباستثناء حزب العمل ،المحسوب على التيار اليساري، والبالغ عدد أعضائه في الكنيست ٤، والأحزاب العربية التي تضم ١٠ أعضاء كنيست، ما يعني أن ١٢٪ من أعضاء الكنيست يؤيدون إقامة دولة فلسطينية على حدود الرابع من حزيران عام ١٩٦٧.

يشار أن بقية الأحزاب تميل من اليمين الوسط إلى اليمين المتطرف، حيث ستضم الكنيست القادمة ٤٠ عضو كنيست لا يؤمنون بأي حل مع الفلسطينيين، وهم من مؤيدي ضم الضفة الغربية، منهم ٢٥ عضو كنيست من الليكود و ١٤ من حزب الصهيونية الدينية، أما بقية أعضاء الكنيست القادمة البالغ عددهم ٦٨ عضوا فيؤيدون حلول ما بين الكانتونات والمعازل، وما بين الفصل أحادي الجانب مع الفلسطينيين وفق صفقة القرن.

انعكاسات داخلية

تعكس نتائج الانتخابات التي جرت أواخر عام ٢٠٢٢ رؤية الناخب الإسرائيلي في السياسيات السابقة والمستقبلية، فمن جهة ونتيجة لرفض الناخب ومعه أغلبية من النخب السياسية والاجتماعية والاقتصادية اليهودية اليمينية العنصرية في إسرائيل، اعتماد الحكومة في سير عملها على وجود حزب عربي فيها، شن المستوطنون ومعهم رئيس الحكومة الإسرائيلية الحالي بنيامين نتنياهو حملة ضد أعضاء الكنيست العرب واصفا إياهم بـ "المخربين" الذين لن يتم إشراكهم في أية حكومة إسرائيلية يمينية قادمة، علما أنه هو من عمل على شرعنة وجود الشق الشمالي من الحركة الاسلامية في محاولته تشكيل حكومة رفضها المستوطنون لاعتمادها على الفلسطينيين.

ورغم الرغبات الفلسطينية في الداخل المحتل، ومعهم نخبهم السياسية بالاستعداد للمشاركة والاندماج بالحياة السياسية في إسرائيل، وعدم اقتصارها على الحياة البرلمانية، جاء تصويت الناخب اليهودي الرافض، ليوقظ الكثير من الفلسطينيين من الوهم الذي سيطر عليهم خلال السنوات الماضية، بتحقيق الاندماج والانخراط في الحياة السياسية الإسرائيلية.

علاوة على ذلك، لم تنجح النخب الفلسطينية نفسها في توحيد صفوفها، لتشكل تحدياً حقيقياً أمام تشكيل أية حكومة إسرائيلية قادمة من دونهم، خاصة أن الأحزاب العربية الثلاثة الأساسية حصلت على أقل بقليل من ١٠٪ من مجموع الأصوات، ما يعني إمكانية حصولها على ١٤ مقعداً في الكنيست، وهي المقاعد الكافية لعدم السماح لبنيامين نتنياهو تشكيل حكومته القادمة.

نتيجة لذلك، لا توجد مؤشرات على نية الحكومة الإسرائيلية القادمة تغيير سياستها اتجاه العرب، وستظل السياسات التي رسمها بنيامين نتنياهو، القائمة على ايجاد حلول فردية، المبنية على الاندماج بسوق العمل اليهودي داخل دولة إسرائيل، بديلا عن معالجة مسألة الحقوق الجماعية والوطنية والاقتصادية للأقلية الفلسطينية في الداخل المحتل.

الأمر الآخر الذي رفضه الناخب الإسرائيلي هو عودة النخب التقليدية المكونة، من كبار موظفي الدولة من عسكريين ومدنيين مثل رئيسي الأركان بنيامين غانتس وغادي أيزنكوت، والموظفين الحكوميين خاصة الشخصيات الإعلامية الرسمية منها، إلى سدة الحكم في إسرائيل الذين حاولوا خلال الأعوام الماضية العودة إلى الحياة السياسية ولسدة الحكم بواسطة صندوق الانتخاب، رغم القوانين التي سنتها حكومات الليكود المختلفة، مثل تعديل قانون "عدم الترشح للكنيست لمن هم في الوظيفة العمومية" إلا بعد مرور ٣ سنوات من استقالته أو تقاعده من الوظيفة العمومية. أما في حالة الجيش، فقد نص تعديل القانون على ٤ سنوات، لأن المتقاعد من الجيش يحصل على سنة دراسية مجانية تعتبر من ضمن الخدمة.

عليه أثبت الناخب اليهودي في الدولة العبرية أن مرجعيته السياسية هم الحاخامات وزعماء المستوطنين والقيادات العنصرية الجديدة التي تكونت خلال العقود الأربعة الماضية، لتحل مكان النخب العنصرية العلمانية التقليدية في المجتمع الإسرائيلي، الممثلين لمؤسسات الدولة العميقة.

كما عززت نتائج الانتخابات الحالية، من صعود التيارات الدينية على مختلف مشاربها، التي حصلت مجتمعة على أكثر من ربع الأصوات، وهي أحزاب عنصرية وفاشية تجاه الفلسطينيين بغض النظر عن أماكن تواجدهم، وغير ديمقراطية في تعاملها مع الآخر الإسرائيلي ومع المرأة،

وغيرها من القضايا التي تتعارض مع الشريعة اليهودية. وبالإجمال يمكن القول، أن هذه الفئة من المجتمع اليهودي تبحث عن دولة الشريعة اليهودية، بدلا من الدولة اليهودية الديمقراطية، اللتان لا تأخذان بعين الاعتبار الوجود الفلسطيني التاريخي والأصلي في كل فلسطين التاريخية.

أخيرا لا بد من الإشارة، أن الناخب اليهودي أطلق رصاصة الرحمة، على التيار اليساري في الحركة الصهيونية الذي يمثله حزب "ميرتس"، الذي هجرته نخبه السياسية والثقافية والاجتماعية ،قبل وقت طويل من السقوط بالانتخابات، بعد حملة من التهديد والوعيد والفصل من الوظائف العامة والاكاديمية، ومنعهم من طرح افكارهم وأرائهم الشخصية بالقضايا العامة في أماكن عملهم الرسمية والأكاديمية. وقاد هذه الحملات على مدار السنوات الماضية مجموعة من المنظمات والجمعيات والمؤسسات اليمينية ومؤسسات الدولة، دفعتهم في نهاية المطاف إلى مغادرة الدولة التي شاركوا في تأسيسها قبل ٧٥ عاماً.

الانعكاسات على الفلسطينيين

عززت نتائج الانتخابات الإسرائيلية، الرؤية الإسرائيلية القائلة بأنه "لا يوجد شريك" في الطرف الفلسطيني لخوض مفاوضات معه للتوصل لحل، مستشهدين بذلك بفشل المحاولات الغربية لدفع الفلسطينيين إلى بناء دولة خاصة بهم. وتؤكد الرواية الإسرائيلية أن الفشل لم يأت لأنهم لا يرغبون، بل لأنهم غير مؤهلين لذلك. وفي السياق المذكور، صرح بنيامين نتنياهو المرشح لتولي منصب رئيس الوزراء في دولة الاحتلال أمام جمهور من اليهود المؤيدين للحزب الجمهوري الأميركي في إسرائيل :"أن الفلسطينيين لا يريدون دولة إلى جانب دولة إسرائيل، بل يريدونها دولة واحدة مكان دولة إسرائيل". لكن المرشح المذكور، نسي أنه صرح قبل ذلك بأيام، أنه وحكومته اليمينية أزالت موضوع الدولة الفلسطينية من جدول الأعمال العالمي، وأنه سيفشل أية مبادرة في هذا المجال، وأنه سيفشل الاتفاق مع لبنان كما أفشل في السابق اتفاقيات أوسلو.

وعلى خطى كل الحكومات الإسرائيلية، وبناء على المفاوضات الجارية لتشكيل الحكومة الإسرائيلية، فإن موضوع الاستيطان يحتل الأولوية الأولى، نظرا لمطالب حزب المستوطنين بتولي الحقائب الأساسية والمؤسسات التي لها علاقة مباشرة بالاستيطان في الضفة الغربية ومدينة القدس. وفي السياق المذكور، تم الاتفاق على شرعنة مستقبلية لما تسميه الدولة العبرية "البؤر غير القانونية" بينما يسميها المستوطنون وقادتهم "المستوطنات الشابة".

ومن شأن هذه الإجراءات، إضافة إلى استكمال بناء جدار الطرد العنصري، وفرض السيطرة المطلقة على محاور الطرق، والتوسع في منح المستوطنات الإسرائيلية المنتشرة في الضفة الغربية صلاحيات أمنية وعسكرية، من بينها تحويل عصابات شبيبة التلال المنتشرة في الضفة الغربية والنقب وبدرجة أقل في شمال فلسطين إلى الحرس الوطني المستقبلي، أن يدفع بقوة نحو سياسة الكانتونات والمعازل الفلسطينية، التي عملت إسرائيل على خلقها خلال العقود الماضية من الاحتلال، والتي حاول بنيامين نتنياهو بالتعاون مع الإدارة الأميركية (إدارة دونالد ترامب) السابقة فرضها على الفلسطينيين من خلال ما يسمى بصفقة القرن.

الأمر الآخر، المتعلق بقطاع غزة، ستحافظ الحكومة الإسرائيلية المستقبلية على السياسية القائمة على مصطلح "المال مقابل الهدوء"، مع المحافظة على استمرار قطع الضفة الغربية عن قطاع غزة، وتوفير كل الوسائل المعززة لذلك، بما فيها توفير المصادر المالية العربية، إلى حين توفر ظروف إقليمية ودولية إما لإيجاد طريقة لربط القطاع بجمهورية مصر العربية، أو لايجاد طريقة لأخذ موافقة حركة حماس على وسيلة للانفصال النهائي عن دولة الاحتلال الإسرائيلي.

وبخصوص التعامل مع الشعب الفلسطيني، ستواصل الحكومة الإسرائيلية القادمة سياسة إدارة الصراع، والعمل على تقليل ثمن النزاع المسلح على إسرائيل بهدف كسب الوقت، وإجبار الفلسطينيين على مفاوضات تؤدي لترتيبات سياسية، تسمح لها بمواصلة تحمل مسؤوليات الأمن والسيادة بموافقة فلسطينية، التي تنفذها اليوم بالقوة المسلحة.

ورغم حرص الحكومة الإسرائيلية القادمة على بقاء السلطة الوطنية الفلسطينية، إلا أنها تأخذ بعين الاعتبار إمكانية انهيارها، نتيجة للسياسات الإسرائيلية خاصة تلك المتعلقة بإنشاء الكانتونات والمعازل، التي ستؤدي إلى قطع التواصل بين المناطق الفلسطينية في الضفة الغربية، والاقتحامات اليومية للمدن والقرى الفلسطينية، ما سيدفعها لإجراء اتصالاتها السياسية مع قيادات فلسطينية محلية ومناطقية كتلك المباشرة التي جرت بعد اختطاف جثة الشاب الدرزي في منطقة جنين.

وكبديل عن مسيرة السلام مع الفلسطينيين، وبدعم من الولايات المتحدة الأميركية التي أكدت على لسان جميع مسؤوليها، بمن فيهم الرئيس الأميركي نفسه، ستواصل الحكومة الإسرائيلية القادمة العمل على تجنيد دول أخرى للانضمام إلى اتفاق أبراهام، مستغلة بذلك الدول العربية والإسلامية التي تعاني من ازمات سياسية واقتصادية خانقة، أو تلك الدول التي تحتاج الولايات المتحدة في مواجهة ما يسمى بالتهديد الإيراني الموهوم.

خلاصة

لم يتبق الوقت الكثير، كي تفرض إسرائيل بشكل غير معلن منطقها للحل النهائي مع الشعب الفلسطيني، القاضي بفرض المعازل والكانتونات عليهم، خاصة بعد الهجمة الاستيطانية المتواصلة منذ عدة سنوات المتمثلة بانتشار المزراع اليهودية على أطراف التجمعات السكانية الفلسطينية، واستكمال بناء الجدران والبوابات والمعابر الحديدية على مداخل القرى والمدن الفلسطينية على مختلف أنواعها، التي سبقها المعسكرات والمستوطنات والطرق، الهادفة جميعها إلى خنق الفلسطينيين، ومعها الأزمات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، بهدف تحويل الهجرة القسرية في الضفة الغربية والقدس المحتلتين إلى واقع عملي.

وما كان لهذه السياسات أن تتحقق، لولا اتفاقيات السلام الإسرائيلية العربية المنفردة، وما لحقها من علاقات سرية واتفاقيات أبراهام للسلام، التي وافقت من خلالها الدول العربية على أن القضية الفلسطينية قضية إسرائيلية داخلية تجد لها حلا وفق رؤيتها الخاصة.

وسبق هذه الأتفاقيات، مجموعة من القوانين والضمانات والتعهدات، مثل التعهد بعدم طرح اية مبادرة سياسية تتعلق بحل القضية الفلسطينية من دون استشارة دولة إسرائيل المسبقة، وتقديم ضمانات بعدم فرض حلول خارجية عليها، ما يعني أن الادارات الأميركية المتعاقبة ومعها بقية الدول الغربية وافقت على أن تكون القضية الفلسطينية شأنا إسرائيليا داخليا، تجد له حلا بالطريقة التي تناسبها.

ووفق العناصر المذكورة أعلاه، رسمت دولة الاحتلال الإسرائيلي استراتيجتها السابقة والحالية والقادمة بالتعامل مع الشعب الفلسطيني وقياداته السياسية، التي آن الأوان لها أن تتخلى عن أسس الحل القائم على منطق "دولتين لشعبين" الذي قوضته إسرائيل بنفسها، وتبني استرتيجية جديدة تشمل كل الشعب الفلسطيني في فلسطين التاريخية والمهجر، تدمج فيه بين الصمود والمقاومة، لإجهاض الإجراءات الإسرائيلية القاضية بفرض المعازل والكانتونات عليه، إلى حين توفر ظروف تمكن الشعب الفلسطيني من تحقيق تطلعاته الوطنية المشروعة.

عاد حتى قبل أن يغادر

نتنياهو وبضاعته الرديئة في سوق أردأ

د.محمد حسني*

في الأول من نوفمبر /تشرين ثان ٢٠٢٢ جرت انتخابات جديدة، هي الخامسة خلال اربع سنوات فحسب، انتخابات الكنيست الخامسة والعشرين. لم تصمد الحكومة الائتلافية التي رأسها بالتناوب كل من نفتالي بينيت (حزب يمينا/ إلى اليمين) ويائير لابيد (ييش عاتيد/ هناك مستقبل) التي نجحت في يونيو/حزيران ٢٠٢١ في إزاحة نتنياهو الذي صعد لرئاسة الحكومة الإسرائيلية منذ ١٩٩٦، وتولاها بلا انقطاع منذ ٢٠٠٩م.

ما لبث نتنياهو أن عاد للهجوم من موقع المعارضة، مستغلا استناد حكومة بينت- لابيد على أغلبية بسيطة، لم تمكنهم من الحفاظ على الائتلاف الحكومي، فأُعلن حل الكنيست وتحديد موعد انتخابات جديدة، ومنذ يونيو/حزيران ٢٠٢٢ تولى لابيد شؤون الحكومة وحتى إجراء الانتخابات.

من بين مائة وعشرين مقعدا، حصد معسكر نتنياهو ٦٤ منها، حيث حصل على نحو ٢,٣ مليون صوت، مقابل ٥٢مقعد و نحو ١,٨٥ مليون صوت في الانتخابات السابقة. وقد تكوّن معسكر نتنياهو من حزب الليكود (٣٢ مقعد)، وقائمة حزبَي "الصهيونية الدينية" بزعامة بتسلئيل سموتريتش، و"القوة اليهودية" بزعامة إيتمار بن جڤير(١٤ مقعدا). يليهما حزب شاس بزعامة آرييه درعي (١١ مقعداً)، وحزب "يهدوت هاتوراة" (٧مقاعد)

في حين حصل معسكر لابيد على ٥١ مقعداً، ونحو مليوني صوت، اختص حزب لابيد (ييش عاتيد)

* مدرس بقسم اللغة العبرية، كلية الآداب -جامعة عين شمس

بـ ٢٤ مقعداً، وحصلت قائمة المعسكر الوطني، المكونة من (كاحول لاڤان/أزرق وأبيض) و(تكفاه حداشاه/ أمل جديد) على ١٢ مقعداً.

لم يحصل حزب العمل، الزعيم التاريخي للمشروع الصهيوني قبل وبعد قيام الدولة، سوى على ٤ مقاعد، وحصلت كتلة حزب يهودوت هاتوراة مع أحزاب دينية أخرى على ٧ مقاعد أيضا. حصل حزب يسرائيل بيتينو، بزعامة أفيجدور ليبرمان، على ٧ مقاعد، وحصلت القائمة العربية الموحدة (الحركة الإسلامية الجنوبية) على ٥ مقاعد بزيادة مقعد واحد عن الانتخابات السابقة. في حين لم ينجح حزب ميرتس المصنف كحزب وسط من تجاوز نسبة الحسم، وكان قد حصل على ٦ مقاعد في الانتخابات السابقة .

حصلت "الجبهة الديمقراطية للسلام والمساواة/ حاداش،" المكونة من الحزب الشيوعي بزعامة أيمن عودة و"الحركة العربية" بقيادة أحمد الطيبي على ٥ مقاعد، وما يقارب مائة وثمانون ألف صوت، لكن حزب التجمع الوطني الديموقراطي (بلد) لم يستطع تجاوز نسبة الحسم رغم تحقيقه أكثر من ١٣٨ ألف صوت. جاء ذلك بعد اتفاق تم مع لاپيد حيث تم استبعاده من القائمة العربية، علاوة على ما تعرض له من تحريض من جانب المؤسسة الصهيونية وإعلامها، الذي يتهمه بالخيانة والإرهاب.

كيف عاد

الشركاء

يقف وراء نتنياهو شريكان كبيران، ينتظر كل منهما نصيبه من الوليمة، إنهما إيتامار بن جڤير، وبتسلئيل سموتريتش، يجمعهما الانتماء لليمين الفاشي، واستخدامهما خطابا شعبويا معاديا للعرب، ودعوتهما ترحيل المواطنين والسياسيين من فلسطيني الداخل بتهمة الخيانة.

يعد بن جڤير من أتباع حركة كاخ بزعمة مئير كهانا، المحظورة في إسرائيل، والمصنفة بالفعل كمنظمة إرهابية في الولايات المتحدة الأميركية. أُدين بن جڤير بالتحريض وبالانتماء لتنظيم عنصري، وكان قد تصدر الصحف عندما صُوِّر وهو يشهر مسدسه بعدما تعرض لإلقاء الحجارة من جانب الفلسطينيين في القدس، بسبب دعمه لطرد الفلسطينيين واحتلال أملاكهم. يريد سموتريتش أن يكون وزيرا للدفاع، بينما يطالب بن جڤير بمنصب وزير الأمن العام.

اليمين في مواجهة اليمين

ظلت الانتخابات الاسرائيلية لأكثر من دورة تجري بين قوائم أحزاب يمينية وأخرى هي أيضا يمينية، يضم كل جانب منها الديني والعلماني، والمصنف كمتشدد، أو حتى فاشي. إلا أن الانتخابات الأخيرة قد بلغت مدى غير مسبوق، فقد حصلت القائمة الفاشية على ٥١٦ الف صوت معظمهم من الشباب، و ٢٠٪ منها من المجندين. بينما أدى تداعي حزب (يمينا/ إلى اليمين) بزعامة بينيت إلى تحول أصوات ناخبيه إلى الصهيونية الدينية و(عوتسماه يهوديت/القوة اليهودية) لم يحظَ ملف "الصراع العربي الإسرائيلي" بالمساحة المعتادة في النقاش السياسي خلال الحملات الانتخابية.

قامت حكومة لا بيد بعمليات عسكرية ومداهمات واعتقالات في غزة والضفة الغربية، رغبة في رفع شعبيتها بين الناخبين. كما لم يطرح لابيد أو نتنياهو أية رؤية سياسية واضحة تتعلق بإنهاء الصراع، ضمن برنامجيهما الانتخابيين. حكومة لابيد-بنيت واصلت بدورها الاعتداء على غزة والتضييق عليها، فأسقطت القتلى وسجنت معتقلين، ولم تتميز بأي شكل عن حكومة نتنياهو السابقة، أو الآتية.

يواصل المجتمع الإسرائيلي الانزياح يمينا، حتى بلغ ما أوضحناه من هيمنة اليمين الفاشي بالقبعة القومية أو العباءة الدينية، وهو التيار الذي ينادي بأقصى الإجراءات ضد الفلسطينيين، سواء في الضفة وغزة أو حتى في الداخل، وتأتي دعاواه بشكل سافر دون مواربة أو استحياء.

الجانب الفلسطيني: البؤس والانقسام

يعاني الشارع الفسطيني من ظروف اقتصادية ومعيشية شديدة القسوة، تأتي في المقدمة غزة، التي ترزح تحت نير الحصار والعمليات العسكرية المكثفة، المتوالية بشكل يكاد يكون دورياً، حينما يريد كل رئيس حكومة أن يحقق شعبية، أو أن يتخلص من ضغوط. تليها الضفة بحالة أقل سوءا وإن لا يمكن وصفها بالاستقرار، فكل من الضفة وغزة تعاني من قيود عامة ومن امتداد المشروعات الاستيطانية التي تنهش من القلة الباقية من الأراضي الفلسطينية، حيث تجرف الأراضي وتقتلع الأشجار، تهدم البيوت، ولا يمر يوم دون وقوع ممارسات مماثلة من جانب المؤسسة، علاوة على اعتداءات المستوطنين المسلحين تحت سمع وأبصار الاعلام وبحماية الشرطة والجيش الإسرائيليين. أما القدس التي انتفضت أكثر من مرة خلال ما يقرب من عام، فقد شهدت نشاطاً مكثفاً للتهويد،

والطرد، تجاوز الأفراد إلى أحياء بأكملها، مثل حي الشيخ جراح.

بالمقارنة بالضفة وغزة، يمكن اعتبار حال فلسطينيي ٤٨ أفضل، لكنهم في الواقع يخضعون من جانبهم لسياسة تهميش وقمع على كافة المستويات الاقتصادية والسياسية، فهم محرومون من الخدمات وتكافؤ الفرص في التعليم والتوظيف، ويعتبر تمسكهم بهويتهم وأبناء شعبهم "خيانة" من وجهة نظر الإسرائيليين.

يأتي هذا التردي بالتوازي مع التراجع السياسي في الشارع الفلسطيني بتوزيعاته الجغرافية: الضفة، غزة، الداخل. فمن ناحية تراجعت المقاومة بشكل غير مسبوق سواء على مستوى العمليات، قوتها وعددها وتأثيرها، أوعلى المستوى الاستراتيجي من عدم وجود رؤية واضحة تتبناها أجيال جديدة صاعدة تستطيع أن تتحمل من أجلها طول المشوار.

لم تستطع القوى الفلسطينية رأب الصدع الداخلي وتجاوز الخلافات، فما بالنا بتبني مشروع موحد للتفاوض. وحتى القوى السياسية في الداخل، والتي ينخفض سقف نضالها السياسي للكفاح من أجل العدالة والمساواة، وبحد أقصى الضغط السياسي ضد السياسات الاستعمارية الصهيونية، فقد تورطت هي الأخرى، كما سبق أن أشرنا في الابتزاز الصهيوني الذي أدى بها في هذا الظرف الدقيق إلى الانقسام، وهو ما أضر بها كما أضر أيضا بالقوى الصهيونية التي تقف في مقابل نتنياهو.

فإن كان معسكر لابيد يستنكف الدخول في تحالفات مع أحزاب فلسطينية يعتبرها "متطرفة"، فما الذي يجعل الأحزاب العربية تتخلي عن بعضها البعض، وجمهورها بالداخل، كما بقية شعبها في الضفة وغزة، في أمسّ الحاجة لتوحيد نضالها في مشروع وطني واحد. مشروع يراعي اختلاف الظروف الخاصة لكل تجمع فلسطيني، ويعدد أدوات النضال، ويضخ دماً جديداً من الشباب الفلسطيني، الأقرب للانفجار والخروج من كل الأطر التنظيمية المعروفة، وهو ما تجلى مثلا في حوادث الطعن الفردية. يرتبط تحقيق تلك الأهداف بالانفتاح الديموقراطي والتخلي عن أسلوب المحاصصات التنظيمية في الانتخابات وتوزيع المناصب القيادية.

على الصعيد الإقليمي

في مارس ٢٠١١، حذر وزير الدفاع الإسرائيلي وقتها إيهود باراك من إن إسرائيل معرضة لـ"تسونامي سياسي" وأنها إن لم تتخلص من حالة الجمود السياسي مع الفلسطينيين ستصير معزولة.

ولكن بعد أكثر من عشر سنوات، يحق لنتنياهو أن يتبجح بأن تحذير إيهود باراك لم يكن له أساس من الصحة. حيث نجح نتنياهو في توقيع اتفاقية "أبراهام" اتفاقية تطبيع بالجملة مع كل من: الإمارات والبحرين، والسودان والمغرب.

ورغم ما يعلنه نتنياهو أنه رفع شعار "السلام مقابل السلام" خلال سعيه لتطبيع العلاقات مع دول لا مجال للاحتكاك بينها وبين إسرائيل، وكذا دأبه أن ينسب هذا الإنجاز إلى ذكائه وألمعيته، فإن الواقع يقول أن الدول السابقة قد وقعت اتفاقية التطبيع بناء على وعود من الولايات المتحدة الأميركية، قدمها الرئيس السابق دونالد ترامب ومستشاره جاريد كوشنر: طائرات F-٣٥ للإمارات والاعتراف بالسيادة المغربية على الصحراء، وإخراج السودان من قائمة الدول الراعية للإرهاب. في المقابل يطمح بنيامين نتنياهو، رجل الدعاية والتسويق القديم، لتحقيق مكاسب عسكرية واقتصادية من بينها بيع التكنولوجيا العسكرية، كما يسعى لاستكمال العلاقات مع السعودية، التي توفر ممرا جويا لإسرائيل نحو أسيا، في حين توفر السودان ممرا جويا نحو أميركا الجنوبية.

في ٢٠١٦ التقى بنيامين نتنياهو الرئيس المصري عبدالفتاح السيسي، في القاهرة، في زيارة ضمت أيضا يتسحاق هرتسوج زعيم المعارضة، بهدف دفع مبادرة سلام إقليمية، ما لبث نتنياهو أن تنصل من كل وعوده، من أجل استقطاب أفيجدور ليبرمان إلى ائتلافه الحكومي، مما زاد من عمق الأزمة الفلسطينية.

إيران: فزاعة نموذجية

تشكل إيران عنصرا محوريا للسياسة الإسرائيلية، وهي تمثل "فزاعة" داخلية وإقليمية، لا يكاد نتنياهو يتحدث في أي سياق محلي أو دولي دون أن يعرج نحو "الخطر الإيراني". سعى بنيامين نتنياهو في المحافل الدولية ضد إيران، زاعما ان علاقته بالرئيس دونالد ترامب أدت إلى خروج الولايات المتحدة من الاتفاق النووي الإيراني. والذي أتبعه بعمليات استخباراتية واعتداءات على أهداف إيرانية. لكن التطورات الأخيرة، والتقديرات بقرب توصل إيران لتصنيع القنبلة النووية سيعيد الولايات المتحدة من جديد إلى الاتفاق النووي الإيراني. ومن الجدير أن نعترف أن إيران بدورها تستخدم إسرائيل كفزاعة داخلية، ولم تقم بخطوة حقيقية لتحرير فلسطين ونجدة الشعب الفلسطيني، وإن كانت قوة إيران تمثل توازنا في المنطقة ضد تغول القطب الأميركي-

الصهيوني وأزلامه.

تعرض نتنياهو لانتقادات شديدة بسبب سياسته إزاء الأردن الجارة اللصيقة والتي تحتفظ بعلاقات تاريخية جيدة مع حكومات إسرائيلية متتالية، عكرها نتنياهو دون فائدة، وقد حاول نتنياهو مؤخرا إرسال رسالة تهدئة للملك عبدالله ملك الأردن الذي أعرب عن قلقه من عودة نتنياهو للحكم، تحسبا لتدهور الوضع، في الضفة الغربية والقدس.

أما عن مصر، وبرغم ما يسجله البعض من تحسن العلاقات والاتصالات المستمرة، لكنها لم تسلم من الانتقادات بسبب براجماتية نتنياهو، وعدم منحه مصر الاهتمام الذي تستحقه من جانب إسرائيل، حيث تجاهل نتنياهو الاتصالات مع الجانب المصري، الذي تولى الاتصال مع حكومة حماس والتوصل لإعلان التهدئة، وكذا استعادة الأسرى والمختفين الإسرائيليين، كما سعى الجانب المصري لتحقيق مصالحة واستئناف المفاوضات، وزاد الطين بلة بالاعتداء الاسرائيلي على غزة.

ولا حاجة للتذكر بأن العمليات الثلاث الكبرى على غزة، "عمود السحاب" "الجرف الصامد" و"حارس الأسوار" برغم ما خلفته من خسائر بشرية ومادية غير محدودة، فإنها على الجانب الإسرائيلي لم تحقق هدفها المعلن وهو إسقاط حماس، علاوة على قبول نتنياهو التفاوض من أجل إطلاق سراح شاليط، والسماح بتحويل معونات قطرية، ما يعد سُبة في جبينه اليميني العريض، لا يزال البعض يعايره بها حتى الآن.

وفي مقابل اتفاقيات التعاون مع قبرص واليونان، انهارت العلاقات الإسرائيلية-التركية بعد سنوات من الازدهار، بسبب الاعتداءات الإسرائيلية على قوافل المعونات التركية لغزة المحاصرة.

على الصعيد الدولي

- الولايات المتحدة الأميركية

تمثل الولايات المتحدة الداعم الأكبر لإسرائيل، وقد تزامنت فترة تولي نتنياهو الثانية، التي امتدت لأكثر من حكومة متتالية، مع ثلاثة رؤساء أميركيين، باراك أوباما، ثم دونالد ترامب، وأخيرا جو بايدن.

تحت إدارة أوباما، تردت العلاقات الإسرائيلية - الأميركية بشكل غير مسبوق، وبإيعاز من حزب

الجمهوريين، ألقى نتنياهو خطابا في الكونجرس يهاجم فيه سياسات الرئيس باراك أوباما، وهو ماأدى لما وصفه محللون إسرائيليون بالصدع، الذي لا تزال آثاره باقية مع إدارة جو بايدن. فقد فقدت إسرائيل ما تمتعت به من تأييد الحزبين المتناوبين على حكم الولايات المتحدة.

تناقلت الصحف العالمية والإسرائيلية المحادثة التي جرت بين كل من الرئيس الفرنسي نيكولا ساركوزي والرئيس الأميركي باراك أوباما خلال قمة العشرين في ٢٠١١:

• أنا لا استطيع أن أرى نتنياهو مجددا، إنه كذاب"

-" لقد مقتَّه.. أما أنا فيجب أن اتعامل معه كل يوم"

كما زاد الخلاف بين نتنياهو وبين المستشارة الألمانية أنجيلا ميركل، التي نُقل عنها انها "لا تصدق كلمة يقولها".

في المقابل، سجل نتنياهو نجاحات في عهد دونالد ترامب، فإلى جانب خروج الولايات المتحدة من الاتفاق النووي الإيراني، اعترفت الولايات المتحدة بالقدس عاصمة لإسرائيل ونقلت مقر سفارتها إليها، كما اعترفت بشرعية المستوطنات في المناطق المحتلة، وكذا بسيادة إسرائيل على هضبة الجولان السورية. كما اتخذ ترامب إجراءات ضد الفلسطينيين من بينها وقف تحويلات الأموال لوكالة غوث وتشغيل اللاجئين "الأونروا"، ودعم اتفاقية أبراهام التي تجاهلت الجانب الفلسطيني تماما، وما كانت لتتم دون الوعود الأميركية المذكورة عاليه. كما لم يتخذ ترامب موقفا واضحا يتبنى خلاله حل الدولة/ الدولتين، تاركا الأمر لأهواء رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو، الذي لم ولن يفكر في أية تسوية دون ضغوط حقيقية.

يصف البعض انجازات بنيامين نتنياهو من خلال علاقته بدونالد ترامب بأنها قصيرة الأمد، فلم يتعدَ قرار نقل السفارة الأميركية إلى القدس عن تعليق لافتة دون نقل أعمال السفارة بشكل فعلي، كما تعيد إدارة جو بايدن حاليا النظر في قرار الاعتراف بسيادة إسرائيل على الجولان، وكذلك قرار اعتراف ترامب بالمستوطنات الإسرائيلية في الضفة وغزة، حيث عادت لاستخدام مصطلح "المناطق الفلسطينية المحتلة". كما استأنف تحويل الأموال لوكالة الأونروا دون الشرط الذي فرضه ترامب، وهو تعديل المناهج الدراسية الفلسطينية وحذف ما سُمي بالتحريض ضد إسرائيل. بل أن بايدن يزمع إعادة افتتاح القنصلية الأميركية في القدس لتتولى الاتصال مع الفلسطينيين.

الهند: من عدم الانحياز إلى الانحياز التام

يفخر نتنياهو بالعلاقات التي نسجها مع رئيس الوزراء الهندي ناريندرا مودي، وزيارته التاريخية لإسرائيل في ٢٠١٧. يبدي مودي الرئيس اليميني إعجابا شديدا بشخص بنيامين نتنياهو وبإسرائيل، التي يعتبرها نموذجا يحتذى به خصوصا شعار "يهودية الدولة" الذي يطمح لاستنساخه في الهند "هندوسية الدولة". أصبحت الهند شريكا استراتيجيا لإسرائيل، وعدلت عن التصويت الدائم ضدها في المنتديات الدولية. تعمق التعاون المشترك بين البلدين في المجالات العسكرية والاقتصادية.

وقع الطرفان صفقة عسكرية بقيمة ملياري دولار، وباتت الهند تستورد ٤٥٪ من الانتاج العسكري الإسرائيلي. حيث توفر إسرائيل للرئيس اليميني ما يريده من أسلحة، متجاوزا القيود التي تفرضها الولايات المتحدة بسبب ملف الحريات وحقوق الإنسان. وفي ٢٠٢١ وقعت الهند وإسرائيل اتفاقية تعاون عسكري لعشر سنوات قادمة.

روسيا والصين على المحك

بقيت العلاقات مع كل من روسيا والصين على المحك. حيث تتعارض مع الموقف الأميركي والأوروبي من روسيا خاصة بعد غزو أوكرانيا، وما نتج عنها من تداعيات تعرض الاقتصاد العالمي لمخاطر، ولا سيما في مجال الطاقة. وبالنسبة للصين فإن إسرائيل ملزمة تجاه الولايات المتحدة، التزاما غير مكتوب بعدم إعطاء الصين موطئ قدم، بعد أن كادت تغزو معظم بلدان العالم اقتصاديا.

* * *

حل الدولة وحل الدولتين

بدأ نتنياهو المرحلة الثانية من رئاسته للحكومة في ١٤ يونيو٢٠٠٩، بخطاب "بار إيلان" حينما أعلن في مركز بيغن - سادات لأبحاث السلام بجامعة بار إيلان عن إيمانه بالتفاوض من أجل السلام، وتبنيه لحل الدولتين، وقبوله لإقامة دولة فلسطينية. لكن الواقع أسفر عن نية مغايرة لديه، فبعد اثنى عشر عاما لم تتحرك القضية الفلسطينية سوى للوراء. .

في ١٨ مايو ٢٠٠٩ وقبل خطاب بار إيلان المذكور، أعلن الرئيس الأميركي باراك أوباما لنتنياهو أن يؤيد حل الدولتين ويتوقع قيامه بخطوات عملية في اتجاه تحقيق ذلك، مشددا على ضرورة

وقف الاستيطان في المناطق. أما ترامب فلم يعلن تبنيه لحل محدد، وإن أعلن أن القضية ستحل بالتسوية، دون تحديد.

لكن نتنياهو ومنذ خطابه الشهير، لم يتخذ أية خطوات لدفع التفاوض مع الفلسطينين، بل على العكس استمر في التجاهل والعمل على زيادة الانقسام الفلسطيني. كما تجاهل الوساطة المصرية، التي تحدثنا عنها.

أسفر نتنياهو عن موقفه الحقيقي بمواقف مختلفة، ففي ٢٥ أكتوبر ٢٠٢١ نشرت صحيفة هآرتس تصريح نتنياهو "لن تكون هناك دولة فلسطينية. نقطة" وقد علقت الصحيفة بأن الاحتلال سيستمر تحت حكم رابين أو بيريس، شامير أو بيغن أو نتنياهو أو باراك أو بنيت-لابيد، أي أنه يستمر بغض النظر عن هوية الحكومة وناخبيها ورئيسها، حتى لو صرح هو بنفسه أنه يرغب في السلام مع الفلسطينيين.

في ٦ نوفمبر ٢٠٢٢ حسب صحيفة معاريف، صرح نتنياهو:" في البداية يجب صنع سلام مع النطاق العربي، بعدها يأتي تعقُّل الجانب الفلسطيني".

وقد أكد على موقفه من أن السيطرة العسكرية يجب أن تظل في يد إسرائيل، وأن عاصمتها القدس الموحدة كاملة السيادة.

في الوقت الذي أطلقت فيه السلطة الفلسطينية حملة إعلامية دولية، ضد حكومة اليمين المرتقبة، جاء التصريح التالي لبنيامين نتنياهو أن "السلام مع السعودية سيؤدي إلى إنهاء الصراع العربي الإسرائيلي"، حمالا للأوجه، فأي نهاية يقصد، حل القضية أم تصفيتها نهائيا؟.

وفي الحقيقة، أن النقاش لا يقتصر على حل الدولة أم الدولتين وحسب، بل يمتد لتعريف كل حل منهما. فـ"حل الدولة الواحدة" الذي قد يعني لليسار دولة علمانية ديمقراطية أو "دولة كل مواطنيها"، فإنه يعني في الخطاب اليميني "دولة يهودية" تتخلص من الشعب الفلسطيني بأي وسيلة، تصل إلى الطرد وسحب الهوية، ولا يستنكف أخرون عن التعبير عن رغبتهم في قتل كل الفلسطينيين. يزداد الأمر تعقيدا بالنسبة لحل الدولتين، الذي يستند إلى قرار ٢٤٢ وحدود ماقبل ٥ يونيو/ حزيران ١٩٦٧

حيث من المفترض أن تقوم الدولة الفلسطينية على ٢٢٪ من مساحة فلسطين، لكن الأمر لا يتوقف عند ذلك الحد، فقد عمدت إسرائيل إلى فرض أمر واقع بالتوسع في الاستيطان شمال غزة،

وفي الضفة الغربية، واختصت القدس بخطط خاصة أكثر كثافة، بالتوازي مع التضييق على القرى الفلسطينية في الضفة والنقب والهدم بحجة عدم الترخيص.

كما تعمدت في كل اتفاقية أن تجعل تنفيذها على مراحل، ما تلبث أن تعرقل أولى مراحلها، مما يؤدي لتأزُم الموقف، حتى تعود تحت ضغط المقاومة للتفاوض فتعيد تقسيم المرحلة الواحدة إلى مراحل ... وهكذا دواليك. فالمساحة المتبقية للدولة الفلسطينية آخذة في التقلص من يوم لآخر، إذ تفرض إسرائيل الأمر الواقع ثم تدعمه بتقنينه داخليا، ثم بالاعتراف الدولي. باتت المستوطنات ورقة جديدة للتفاوض، هل سيتم إزالتها، او تبادل أراضيها بأراض مماثلة.

أما عن طبيعة الدولة الفلسطينية، ومدى تمتعها بالسيادة، المتمثلة في الاستقلال الاقتصادي والنقدي، وحقها في امتلاك مطار وميناء، وحق العودة للفلسطينيين، يخضع هذا كله إلى أهواء الحكومة الإسرائيلية، فنجد نتنياهو في أقصى نوبات ادعاء "الكرم" يتحدث عن كيان ما، لا يجد له تعريفاً، "دولة لكنها ليست كالدولة.. لنقل حكماً ذاتياً" منزوع السلاح والسيادة، وإمكانية الخروج والدخول لأراضيه، وإنكار حق العودة. بهذا نتحدث عن معازل "كانتونات" يعيش سكانها تحت فوهة البنادق الاسرائيلية وقذائف طيرانها.

تزيد الصورة قتامة، في رؤى اليمين الفاشي، الذي يقبل بوجود هذه المعازل على أن يطرد فلسطينيي الداخل إليها، محققا حلم الدولة اليهودية.

خاتمـــة

عودة نتنياهو على رأس حكومة يمينية فاشية، أمر متوقع، فهذا هو التطور المنطقي للمشروع الاستعماري الصهيوني، وفي ظل تراجع المقاومة، ينعدم أي محفز لأصوات معارضة للطوفان اليميني. أما عن الوضع الإقليمي فحدث ولا حرج، فقد أدت اتفاقيات التطبيع بالجملة إلى خنق القضية الفلسطينية، ومدعاة للمزيد من الصلف من جانب بنيامين نتنياهو.

العملة الرديئة تجد الرواج في سوق أردأ، لم يعد من الممكن التوهم بمجيء حكومة إسرائيلية من الحمائم، ولا التوهم بدعم دولي ولا عربي (أو إسلامي). وتجعل الحل الوحيد في جانب الشعب الفلسطيني، في الضفة وغزة وفي الداخل. لن يأتي الحل دون برنامج وطني موحد، وتكاتف حقيقي، ودفع أجيال شابة لقيادة النضال والخروج به من دائرة الانقسام الفصائلي المفرغة.

أوراق البدايات

الاتحاد العام لطلبة فلسطين درع م.ت.ف
فرع مصر نموذجاً للتأسيس ج٢

أ.حسام أبو النصر*

***المهرجان الذي كاد أن يتسبب بأزمة مع الشقيري:**

تماهياً مع المد القومي الجارف الذي كان سائداً في تلك الآونة اتفق أعضاء لجنة أبناء فلسطين في كلية دار العلوم بالقاهرة، وهم: صالح أبو أصبع، شاهيناز استيتية، عز الدين المناصرة، نبيل خالد الأغا، (وهم طلبة نشطاء آنذاك، قاموا بنشاطات تحسب للاتحاد العام لطلبة فلسطين في بداياته)، إتفقوا على دعوة الرئيس الشقيري لحضور مهرجان وطني بمناسبة إعلان تأسيس المنظمة، ومشاركته بخطاب مباشر، وتكفل الأغا بالاتصال بالسيد الشقيري، وإبداء رغبتهم بزيارته لإطلاعه على مبادرتهم، واتصل به من هاتف عمومي وعرفه بنفسه وبالمهمة التي هم بصددها فرحب بمودة ظاهرة. وفي الموعد المحدد توجه أربعتهم لمقابلته في مقر المنظمة بحي الدقي، واستقبلهم بحفاوة بالغة، وقدموا له أنفسهم واحداً اثر الآخر، وفي نهاية اللقاء اتفقوا على موعد محدد لحضوره إلى الكلية، وخرجوا من مكتبه وهم في حالة حبور وانتشاء لافتين، وطبعوا عشرات الدعوات ووزعوها، وكما نشروا اليافطات على اتساع الكلية، وقبل الموعد المحدد لعقد المهرجان بيومين توجهوا سويا إلى غرفة عميد الكلية الدكتور محمود قاسم، وقدموا له بطاقة الدعوة لتشريفه الحفل، وليكون في مقدمة مستقبلي رئيس المنظمة، ففوجئوا بما لم يكن في حسبانهم، حيث إربدَّ وجهه، وانتفخت

* باحث فلسطيني

أوداجه، وصرخ فيهم غاضباً: من أعطاكم الإذن بإقامة الحفل؟ أنا لست «طرطوراً» في هذه الكلية حتى أكون آخر من يعلم، وكان يجب عليكم أيها «الفصحاء» الحصول على إذني قبل أن تشرعوا في الدعوة للحفل الذي لن أسمح أبداً بإقامته في هذه الكلية!» ، وقد يكون سبب ذلك لترتيبات ودواعي سياسية وأمنية. فتصببوا أسفاً وخجلاً، واعتذروا بشتى الطرق، لكنه أغلق عليهم كل الأبواب والنوافذ، بل وجه إليهم كلاماً نابياً، وخرجوا من مكتبه محزونين مكتئبين، ووقفوا في إحدى زوايا الكلية ليناقشوا الكيفية التي سيعتذروا بها للرئيس الشقيري بشأن رفض العميد وإلغاء الحفل، وتنصل الزملاء من المهمة وأسندوها لنبيل الاغا بإعتباره اتفق معه منذ البداية، ولم يجرؤ على مقابلته في مكتبه، فإتصل به هاتفياً، ووضعه أمام الصورة بحذافيرها وهويرتجف خجلاً ويتلعثم أسفاً، لكن الشقيري كان أكثر وعياً وإدراكاً، فقدّر موقفه فلم يلمهم أو يؤنبهم بل قال بلغة ناصعة، ونبرة قوية: لا تثريب عليك يا ابن خان يونس الشجاعة .. موعدنا غداً في يافا أو حيفا، وليس في القاهرة أو عمان، وهكذا خرجوا من هذا المأزق المحرج والذي حملوا فيه أنفسهم المسؤولية الكاملة لكل ما حدث، لكن الدرس كان قاسياً بكل معاني القسوة!

ما بعد منتصف الستينات برز أحد أهم الأسماء التي لا يمكن تجاوزها حين نتحدث عن فرع مصر، كفاعل رئيسي في الاتحاد العام لطلبة فلسطين واسمه أحمد صخر خلوصي بسيسو ويُعرف باسم صخر بسيسو1حيث ترأس الاتحاد العام لطلبة فلسطين-فرع أسيوط، عام ١٩٦٥، ثم رئيس الاتحاد العام لطلبة فلسطين-فرع الإسكندرية، عام ١٩٦٨، وشارك في المؤتمرات التأسيسية للاتحاد وقبل أن نتحدث عن دوره اللاحق الذي أهله فيما بعد أن يشغل منصب رئيس الهيئة التنفيذية للاتحاد، علينا أن نذكر أهم ندوة عقدها اتحاد الطلبة في القاهرة.

***ندوة فلسطين العالمية في القاهرة:**

كان الاتحاد العام لطلبة فلسطين في القاهرة أحد أبرز الاتحادات الطلابية على المستوى العربي والاقليمي والدولي في عهد ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ خاصة في عقد الستينات، وأهم نشاطات الاتحاد كانت «ندوة فلسطين العالمية» التي عقدت في قاعة الاحتفالات الكبرى بجامعة القاهرة بتاريخ ٣٠-٣-١٩٦٥، وشاركت في الندوة وفود من ١٠٨ دول ومن أبرز الشخصيات

التي اشتركت فيها انتوني ناتنج، وأرسكين تشايلدرز (بريطانيا)، ومكسيم رودنسون وكلود اسيتيه (فرنسا)، كريشنا مينون وكرانجيا (الهند)، فضلا عن مجموعة من المفكرين العرب منهم المهدي بن بركة زعيم المعارضة في المغرب واغتيل بعد الندوة التي ألقى فيها كلمته الأخيرة، واعتذر عن المشاركة الفيلسوف الوجودي الفرنسي جان بول سارتر، والمؤرخ البريطاني الاشهر ارنولد توينبي.

وجاءت تفاصيل هذا الحدث في أوائل العام ١٩٦٥ حيث قدمت الهيئة التنفيذية للاتحاد بناء على طلب المنظمة مشروع ميزانية وبعد اجتماع اللجنة التنفيذية للمنظمة أبلغ الاتحاد أن المنظمة اعتمدت مبلغ ستة آلاف جنيه، وآربعة آلاف لندوة فلسطين العالمية التي كان الاتحاد يعد لها، وشكل هذا القرار صدمة للاتحاد فميزانيته في العام السابق كانت قد بلغت حوالي ٣٠ الف جنيه كما أن الميزانية التقديرية التي وضعها انذاك للندوة بلغت ٦٢ ألف جنيه ولم يكن لدى الاتحاد ما يكفي لسداد ثمن الطعام للوفود القادمة، بعدها بدأت العلاقات تفتر بين الاتحاد والمنظمة وازدادت سوءا نتيجة تدخلات قيادة المنظمة في الاتحاد خاصة في الفترة التي رافقت المؤتمر الوطني الرابع ثم اعلانها عن مجالس الثورة وبدأ الاتحاد يعمل بقيادته وفروعه من أجل تغيير قيادة المنظمة.

كان هناك حلم لدى الهيئة التنفيذية للاتحاد العام لطلبة فلسطين وفي أطره القيادية أن يقوموا بعمل كبير يخدم القضية الفلسطينية في المجال الاعلامي خاصة بعد أن أصبح للاتحاد خمسة واربعين فرعاً في الوطن العربى واوروبا تضم آلاف الطلاب الفلسطينيين الجامعيين، كما أصبح الاتحاد عضواً في اتحاد الطلاب العالمي الذى كان يمثل الكتلة الاشتراكية بقيادة الاتحاد السوفياتي ومركزه (براغ) برئاسة نورى عبد الرزاق، وقد وقف هذا الاتحاد داعماً ومسانداً لوحدتنا وقضيتنا وقدمها إلى الحركة الطلابية في كل أنحاء العالم، الأمر الذى مكننا من المشاركة فى المؤتمرات الطلابية العالمية، واكسبه خبرات واصدقاء انعكست على الحراك السياسى مستقبلاً. وكذلك انتسبنا إلى الندوة الطلابية العالمية التي كانت تدور في الفلك الأميركي الغربي واهتمت بإقامة أقوى العلاقات مع الاتحاد تنافساً على كسبه في المحافل الطلابية الدولية.

في تلك الفترة عقدت ندوة فلسطين العالمية في القاهرة في ٣٠ آذار عام ١٩٦٥م، وكان غازي

مرار(فخري)٢شاهداً على هذا الحدث، وضمن فريق العمل الذي ساهم في إقامة ندوة فلسطين العالمية التي كانت ترتكز على الهيئة التنفيذية والمجلس الاداري للاتحاد العام لطلبة فلسطين، والاخوة النشطاء في الاتحاد من شباب وفتيات منهن من كانت في اتحاد المرأة الفلسطينية برئاسة الأخت سميرة أبو غزالة والاخت عصام عبد الهادي، ومن اتحاد عمال فلسطين رئيسه حسني الخفش ومعه نائب الرئيس ناجي الكوني، كانت هذه الاتحادات تعبر عن التجمع الفلسطيني في الشتات وعلى تواصل مع الأهل فى الوطن المحتل.

ويذكر أنه كان الجو السياسي العربي في تلك الفترة مشحوناً بالعواطف الجياشة وبخاصة في مصر قلعة العلم والعروبة، وقد شارك في الندوة نبيل الاغا٣ الذي انخرط في الاتحاد العام لطلاب فلسطين الفاعل بالعديد من النشاطات، والمحاضرات، والندوات، وإحياء المناسبات الوطنية، ورحلات ترفيهية، وانتخابات ومنافسات على رئاسة وعضوية الاتحاد.وتعرف الأغا خلالها على بعض الطلاب الذين شغلوا فيما بعد مناصب مهمة أمثال الشهيد هايل عبدالحميد (أبو الهول)، وموسى عبدالقادر الحسيني وشقيقه، وتيسير قبعة، وسعيد كمال وغيرهم.

بدأ الاعداد لإقامة الندوة وهي تحتاج إلى دعم مالي وسياسي وإلى جهاز ترجمة حيث قرر الاتحاد دعوة رموز من مختلف انحاء العالم مفكرين، ومناضلين، وسياسيين، وعلماء، بعد أن وضع مخططاً لهذه الندوة الاعلامية في ظل مصر عبد الناصر ودوائره الاعلامية الضخمة. وقد وقفت مصر بقيادتها وبقرار من القائد عبد الناصر (الذى عُرف ترابطنا مع ثورته واهدافها وحب الفلسطينيين لمصر وشعبها وقادتها) وبعد اتصالات بمساعديه ومكاتب الشؤون العربية والاتحاد الاشتراكي، أوعز إلى الجهات المعنية بمساندة الاتحاد والوقوف إلى جانبه منهم، صلاح زعزوع من رئاسة الجمهورية، وعبد الحميد الصغير، من المكتب المسؤول عن الحركة الطلابية العربية، وأحمد سعيد في إعلام صوت العرب، وكل وسائل الاعلام وجامعة القاهرة والنقابات والمؤسسات الشعبية، أن تقف إلى جانب الاتحاد لإنجاح هذا العمل.

قدمت مصر كل ما تستطيع لانجاح هذه الندوة، تمثل ذلك في توفير القاعة الكبرى بجامعة القاهرة مكاناً لانعقادها، وجهاز الترجمة القوي بكل اللغات بقيادة أحمد حمروش في

سكرتارية التضامن الافريقي الذين قدموا الخدمة المجانية لترجمة أعمال الندوة، وكان وضع الاتحاد المالي متأزماً، ووقف أحمد سعيد يجند صوت العرب للدعوة لتغطية أعمال الندوة وكان يذيع نشرة كل ساعة يحشد لها ويتحدث في نشراته الاذاعية عنها وكان مندوبو الصحافة ووكالات الأنباء يجرون الأحاديث الصحافية مع الفلسطينيين، ومع المدعوين الذين بدأوا بالتوافد إلى القاهرة، فيما تغطي مصر اقامتهم وتذاكرهم ومواصلاتهم، بتنسيق كامل مع الاتحاد، واستقبالهم في مطار القاهرة وتسهيل أعمالهم في الاتصالات الدولية والصحافية. وكانت الندوة جهداً جماعياً لشباب فلسطين في ظل قيادة منظمة التحرير الفلسطينية ورئيسها الراحل أحمد الشقيرى.

وافتتحت ندوة فلسطين العالمية بجامعة القاهرة ١٩٦٥، وكان فيها نبيل الأغا وغازي مرار وإلى شماله اللواء وجيه المدني قائد جيش التحرير الفلسطيني ومجموعة من الضباط أيضاً مما شكل زخما قوياً للندوة.

تعتبر ندوة فلسطين العالمية أهم حدث قام به الاتحاد العام لطلبة فلسطين في القاهرة في ذلك الوقت، بقرار اتخذه المؤتمر الوطني الثالث للاتحاد، حيث دعا اليها عدداً كبيراً من المفكرين وممثلي التنظيمات والقوى المختلفة العربية والعالمية وكانت فرصة لطرح القضية الفلسطينية من مختلف جوانبها وايصالها من خلال الحاضرين إلى مختلف دول العالم، كما شكلت فرصة للحوار والتفاعل الفكري بين الفلسطينيين وهذه القوى، وحضرت وفود عالمية وشاركت في الحضور شخصيات عالمية وممثلون عن القوى الشعبية العربية. وكانت تلك الندوة وحتى ذلك الوقت أبرز جهد اعلامي إمتد إلى المجال العالمي بأسره وصدر بيان عن الندوة جاء فيه :»ان قضية فلسطين قضية عادلة من قضايا التحرير وتحرير الفرد من أغلال القيود التي تفرض عليه طبقا لخطة موضوعية ... وتحريره من الاستعمار ومن الخوف والارهاب ... وسجلت الندوة برضى عظيم حقيقة ان نضال العرب ضد الصهيونية لا ينبع من أي حقد ديني أو عنصري لليهود».

ويذكر أن أعمال الندوة إستمرت ستة أيام وأصدرت بياناً مشتركاً تضمن عدة نقاط مهمة بصدد الصهيونية واسرائيل والقضية الفلسطينية لا مجال للتوسع في شرحها، لكن البيان اشار إلى أن قضية فلسطين هي قضية عادلة من قضايا التحرر العالمية وان الاستعمار والصهيونية

لم يستطيعا الوصول إلى اغراضهما إلا لأن الوطن العربي كان منقسماً إلى دول مختلفة معظمها دول تسيطر عليه قوى موالية للغرب ويجب أن يعود لفلسطين فوراً حقها في توحيد اراضيها عن طريق اعادة فلسطين كلها إلى أهلها الشرعيين وهم عرب فلسطين! وكان الرئيس الشقيري قد افتتح الحفل وهو يرتدي بزته العسكرية في أجواء مفعمة بالدرجة القصوى من الحماس.٤

بعد انتهاء الندوة العالمية، انعقد المؤتمر الرابع للاتحاد العام لطلبة فلسطين في مقر الغرفة التجارية في باب اللوق، في القاهرة، بتاريخ ١٩٦٥/١٢/٢٦ مما شكل ثقلاً لعمل الاتحاد هناك، وحصلت الهيئة التنفيذية على ثقة المؤتمر، وكان من ضمن المشاركين فيه شريف الحسيني، هايل عبد الحميد، زكريا ابو سنينة، عبد العزيز ابو شمالة، مسعود الغندور، ملحم، وطبعاً شارك فيه القوميون العرب وجبهة التحرير الفلسطينية، وكان هناك خلاف على أن يحضر ممثلو فتح والقوميين العرب ام يتغيبوا كي لا يحدث نصاب، وكانت المجموعات المحسوبة على القائد احمد الشقيري، تعمل ضدهم للوصول للهيئة التنفيذية، وترأس المؤتمر هاني الحسن، ومن نوابه مهدي بسيسو وسعيد مدلل. وكما ذكرت في المقال الأول كان قد شارك قبلهم في تشكيل الهيئة التنفيذية مع هايل عبد الحميد، كل من عبد القادر ياسر، اياد السراج، حمد حجازي، عمر السراج، مفلح ابو سويرح، وآخرون.٥

ويذكر هنا أن الطيب عبد الرحيم خلال فترة دراسته في جامعة الأزهر في كلية التجارة، تولى رئاسة اتحاد طلبة فلسطين في القاهرة عام ١٩٦٦م، وكان منذر الدجاني٦ طالباً في السنة النهائية في كلية الهندسة بجامعة أسيوط، وكان فاعلاً ومؤسساً للفرع هناك، وعندما اندلعت حرب ١٩٦٧، ترك الدراسة والتحق بكتائب الفدائيين، التابعة لحركة فتح، التي كان عضواً بها منذ أوائل الستينيات، وهذا كان حال عدد من الطلبة الذين التحقوا بالثورة.

مرحلة السبعينات:

كان أمين الهندي٧ قد انتخب رئيساً للهيئة التنفيذية للاتحاد العام لطلبة فلسطين في الفترة ما بين ١٩٦٩-١٩٧١،(قبلهاكان رئيساً لاتحاد الطلبة الفلسطينيين بكونفدرالية المانيا والنمسا لمدة سنتين)٨وكانت مصر قد دخلت السبعينات بحدث جلل وهو رحيل القائد جمال عبد

الناصر في ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ وأدى ذلك إلى استلام محمد أنور السادات للرئاسة مما أحدث تغيرات سياسية كثيرة في مصر، وبالتأكيد انعكس ذلك على نشاط الاتحاد، وكان من ضمن نشطاء الاتحاد آنذاك عبد الرحمن بسيسو الذي كان له نشاط طلابي سياسي، مما أدى لاعتقاله أوائل عام ١٩٧١ بتهمة قلب النظام، وكان نائب رئيس فرع القاهرة آنذاك، واعتقل معه خضر شحادة، وتدخلت القيادة الفلسطينية منهم صلاح خلف وأطلق سراحهم.ففي أكتوبر ١٩٧١حدثت انتخابات الاتحاد الجديدة لفرع مصر واختير عبد الرحمن بسيسو٩ ضمن قائمة فتح (الذي كان قد التحق عام ١٩٦٩ بجامعة القاهرة كلية الاداب)، ومعه مصطفى كساب (الذي ابلغه بذلك) وهو أيضاً كان مرشحاً، ثم أصبح كساب رئيساً للفرع ١٩٧٢ حتى ١٩٧٤، معهم عبد الله ابو الهنود نائب الرئيس لشؤون الطلبة، وعبد الرحمن بسيسو نائب الرئيس لشؤون التوعية والاعلام، وحسين كساب، وكان عدد الناخبين في مؤتمر القاهرة ١٥ ألف طالب، وقدر عدد الطلبة في الفروع كلها ١٢٠ ألف طالب السبب ان الطلاب كانوا يدرسون مجاناً ويعاملون معاملة المصريين بقرار من عبد الناصر سابقاً (قبل ان تتغير الأمور في عهد السادات)، وكان مقر فرع الاتحاد يقع في ١٧ شارع جواد حسني في القاهرة.١٠

فيما كان حسين أبو النمل يشغل عضوية الهيئة التنفيذية للإتحاد العام لطلبة فلسطين عند عقد المؤتمر الخامس للاتحاد عام ١٩٦٩، وذلك ممثلاً عن الجبهة الشعبية، واستمر حتى انعقاد المؤتمر السادس عام ١٩٧١، فيما شغل قبل ذلك عضوية الهيئة الإدارية لفرع القاهرة في شباط ١٩٦٧.

وفي المؤتمر السادس للاتحاد العام لطلبة فلسطين الذي عقد في الجزائر في ١٩٧١/٨/١٥ انتخب فيه لمعي القمبرجي رئيساً للهيئة التنفيذية (والذي اصبح أمين سر اقليم فتح في القاهرة ومعتمده)، ومعه زهدي القدرة (والذي أصبح سفيراً في مصر لاحقاً)، وناصر القدوة أميناً للصندوق، وآخرون.

فيما عقد المؤتمر السابع بعد أقل من عام على حرب تشرين أكتوبر ١٩٧٣، تحديداً في ١٩٧٤/٨/١٦في الجزائر، وانتخب المجلس الإداري صخر بسيسو رئيساً للاتحاد، حيث كان الاتحاد يشارك في عضوية المجلس الوطني الفلسطيني بـــــــ ١٥ عضواً، ويمثله رئيس الهيئة التنفيذية في المجلس المركزي لـــــــ (م.ت.ف) وممثل عن الهيئة التنفيذية يرأس

اتحاد الطلبة العرب، ونائب رئيس اتحاد الشباب العربي (وكان برئاسة وزير الشباب المصري عبد الحميد حسن)١١، ومنسق غرب آسيا في منظمة طلاب آسيا الباسيفيك ومسؤول العلاقات الدولية و مسؤول الشرق الأوسط في حركة الطلبة والشباب التابعة للأمم المتحدة وعضو في اتحاد الشبيبة الاشتراكية الدولية، وشغل بكر عبد المنعم نائب رئيس اتحاد الطلاب العالمي (١٩٦٩-١٩٧٤).

ويذكر هنا أن القيادي واصل أبو يوسف١٢ أصبح عضو الأمانة العامة للاتحاد العام لطلبة فلسطين في الفترة (١٩٧٦– ١٩٨٥)، أي بداية الفترة المذكورة وكان ممثلاً عن جبهة التحرير الفلسطينية وكان له الدور الفاعل في النهوض بالإتحاد في تلك الفترة وتركز عمله في سوريا إلا أنه شارك في المؤتمرات العامة في مكان إنعقادها.

وكان عزام الأحمد١٣قد إستلم مهام نائب رئيس الهيئة التنفيذية مكلفاً باللجنة الاعلامية في الاتحاد العام لطلبة فلسطين وكان المقر في القاهرة شارع سليمان الحلبي، ومعه في اللجنة الاعلامية أكرم هنية وزينب الغنيمي، مع صخر بسيسو (الرئيس)، وكان معه في الهيئة التنفيذية، أحمد عبد الرازق وناصر القدوة عن فتح و٣ من الجبهة الشعبية كايد الغول ونبيل الطاهر، ومحمود سعد، فيما شغل ايدي زنانيري العلاقات الخارجية في الاتحاد، وعادة يكون هناك ممثل من الهيئة التنفيذية للجنة التحضيرية في اتحاد الطلبة فرع مصر، وكان معه من الهيئة الإدارية لفرع القاهرة، علام الاحمد، ريما سالم، وسامح نمر، خلال هذه الفترة عملوا جيدا وكان لديهم عدة انشطة وكانت الغنيمي مسؤولة اللجنة الفنية والاجتماعية في الاتحاد، إضافة لعملها مع الأحمد في الإعلامية، التي كانت تقوم فيها بصياغة البيانات وإصدار النشرات.

وكان الطلبة الفلسطينيون خاصة اليساريون، لهم نشاطات واضحة خاصة في جامعة عين شمس، وكانت هناك صحيفة اعلانية تعلق على جدار الجامعة يكتب فيها هاني المصري ورفقاؤه، وقد تحركوا بعد احداث لبنان، ودعوا لرفض التطبيع (بعد تحركات كارتر للسلام)، ودعما للقضية الفلسطينية، ودعوا للتعبئة في صفوف الطلبة مما اثار حفيظة أمن الجامعة والامن المصري، ويذكر انه تم الاعتداء على أحد المعارض التي استمرت قرابة أسبوع، كان قد أقيم في احد ممرات الجامعة.

وكانت من الأسماء النشطة فترة السبعينات أيضاً، محمد صقر، أحمد عطية، ومصطفى كساب، ومحمد أبو زايد (شغل سكرتير الهيئة الإدارية)، وكان أيضاً من القيادات الطلابية اليسارية صادق الشافعي وشغل عضو هيئة تنفيذية للاتحاد، وياسر عبد ربه (الذي درس الاقتصاد والعلوم السياسية في الجامعة الأميركية بالقاهرة)، وزهيرة كمال (التي كانت فاعلة في اتحاد الطلبة منذ عام ١٩٦٤ ونظمت رحلات منها الى الإسكندرية مع وفد من اتحاد طلبة فلسطين وكان معها نسيم ملحس، أمين قفيعة وملك الناظر، وقد تخرجت من جامعة عين شمس لدراسة الفيزياء الصناعية والكيمياء في القاهرة)، وسعد عبد الهادي، وسمير حليلة، وعزت عبد الهادي ومهند عبد الحميد، وآخرون.كانت الأمور في مصر تزداد تعقيداً، واتخذت إجراءات جديدة بخصوص الطلبة الفلسطينيين.

وفي السبعينات استلم رئاسة فرع القاهرة كل من عبد الله حجازي، عدلي بسيسو(وكان طالباً في الجامعة الأميركية)، ثم عبد الرحمن بسيسو ومعهم قاسم عبد الهادي عضو الهيئة الادارية، حسين كساب، علام الاحمد، عبد الله ابو الهنود (١٩٧١-١٩٧٤)، محمد ابو زايد، سيف الرمحي، عبد العزيز وادي وغيرهم. وكان معهم في لجان الاتحاد عطاف بسيسو وزينب الوزير، وقد نشط في ذلك الوقت أحمد كلوب١٤، واستلم لاحقاً أيضاً رئاسة فرع القاهرة زهدي القدرة، وكان معه ضمن اللجان مهند عبد الحميد(كلية اداب عين شمس)، علياء كنعان وزينب شعث، وفدوى أبو دف وآخرون، وقد ظلوا حتى احداث ١٩٧٦م.

*ازمة انتخابات فرع القاهرة:

وخلال الحرب الأهلية ١٩٧٦ في لبنان كان وقت التحضير لانتخابات اتحاد الطلبة وفي نفس الوقت اجتماع المجلس الوطني في القاهرة، حيث تشكلت لجنة تحضيرية لانتخابات الفرع في مصر ١٩٧٦، وكان صخر بسيسو رئيس الهيئة التنفيذية١٥ عادة يكلف مشرفاً على الانتخابات نائب الرئيس للشؤون الداخلية للفروع في الاتحاد وكان يشغل هذا المنصب ممثل عن الجبهة الشعبية، وقد يكون هو من كلف وجيه مطر بوضع رئيس اللجنة التحضيرية لانتخابات الطلبة في ١٩٧٦، ويذكر أن عدد المقرات التي كانت فعلياً للاتحاد العام لطلبة فلسطين في القاهرة، ١٣ مقراً منها، شبين الكوم، المنصورة، الزقازيق، الاسكندرية، القاهرة، طنطا، اسيوط وغيرها.١٦

في هذا الوقت ترشح عدد من الكوادر منهم الغنيمي، وكانت هناك خلافات شديدة كطلاب ديمقراطيين مع فتح على خلفية من رشحوهم وكان جزء منهم يتبع هايل عبد الحميد بدعم من أبو جهاد، وكانت مجموعة اخرى مع الاقليم وتتبع أبو اياد وأبو اللطف، وقد فازت قائمة مرشحة برئاسة عبد الرحمن بسيسو، وكان فيها زينب الغنيمي وعلام الأحمد، قاسم عبد الهادي، أحمد البرقاوي (طب طنطا) وكان أثناء ذلك مؤتمر جامعة الدول العربية قبل انتخابات اتحاد الطلبة.

وخلال انعقاد المجلس الوطني في تلك الفترة حدث اعتصام في مقر الفرع (في شارع جواد حسني) ضد وجود خالد الفاهوم في رئاسة المجلس الوطني، وضد وجود الصاعقة على اعتبار أنهم كانوا جزءاً من الحرب الاهلية في لبنان وداعمين لها، فصدر بيان من الاتحاد ضدهم يتهمهم بالمساهمة في مجزرة تل الزعتر١٧، وكانت الغنيمي عضواً مراقباً في المجلس الوطني عن اتحاد الطلبة (ومعها نبيل الطاهر من الشعبية وكذلك كايد الغول، وصخر بسيسو وآخرين هم أعضاء مجلس وطني)، فقامت الغنيمي بتوزيع البيان في المجلس الوطني١٨، بعدها إتصل أبوعمار على مكتب فتح، واستدعى شباب التنظيم وكل من نزل مع عبد الرحمن بسيسو في انتخابات الفرع، وحجزهم في المكتب، وطلب من عبد الرحمن سحب ترشيح القائمة لأنه كان آخر يوم في الترشح، فعلاً سحب ترشحه ونزلت قائمة أخرى فيها عبد الرحمن بسيسو وفيها زينب الوزير، وعوض خليل، واغلق أبو عمار باب الترشح وكان قد أشرف شخصياً على الانتخابات كي لا تحدث مشاكل، كل ذلك حصل في ١٩٧٦ وبعدها أغلب الشباب الذين أنهوا دراستهم غادروا القاهرة وبقيت الغنيمي في القاهرة بين ١٩٧٦- ١٩٧٧ .

ويذكر أن زينب الغنيمي لعبت دوراً مهماً عام ١٩٧٦ خلال الحرب الأهلية حيث كانت حسابات الاتحاد في بنك بيروت، وحدث انقطاع لتحويل الأموال والسوريون حاصروا البنوك، وأصبح هناك عدم قدرة على تمويل الاتحاد، وعقد مؤتمر في العراق ضد النظام السوري وضد ما يجري في لبنان، على هامش المؤتمر للمنظمات الشعبية، وشمل اجتماعات في اتحاد الطلبة، وخلاله كان يوجد محمود سعد عضو الهيئة التنفيذية للاتحاد عن الجبهة الشعبية، وكان عزام الأحمد موجوداً بصفته رئيساً للفرع في العراق (وكان الاتحاد العام لطلبة فلسطين يصطحب لأول مرة فتاة بإعتبارها خارجة من السجن وهي الغنيمي، وكانت التجربة

الاولى لها وتكريم عال لها)، خلال ذلك كانت هناك اجتماعات مع الاتحاد الوطني لطلبة العراق الذي كان رئيسه محمد الدبدوب،وكان رئيس المكتب القومي لطلاب العراق كمال الفاخوري فكانوا يعقدون اجتماعات مكثفة مع فروع العواصم، ويجلسون ويناقشون كيفية توفير دعم، فأحمد عبد الرازق، لم يكن مرناً في التفاوض وقد توصل معهم لدعم بعشرة آلاف دولار منحة منهم لاتحاد طلبة فلسطين، وهنا تدخلت الغنيمي وقالت أن هذا المبلغ لا يفي بغرض الاتحاد، ولم نأت من اجل ذلك، فطلبوا منها تحديد مبلغ فقالت ٢٥ الف دولار وكان ذلك، وسلموها المبلغ، حيث لا مجال للتحويل عبر البنوك بسبب الحصار، ولم يستطع أحد من الشباب حمل المبلغ، فحملته الغنيمي إلى القاهرة باليد بمجازفة كبيرة.

ويذكر أنه في عهد عبد الرحمن بسيسو تم تشكيل لجان الكليات في كل الجامعات المصرية وهذه اللجان كانت توكل لها مهمة اقامة الفعاليات في كل محافظة وجامعة، وتم تأسيس نواة اتحاد الطلبة الثانويين والذي سيصبح فيما بعد، هو مكون الاتحاد العام، واختير بعدها رئيساً للجنة التحضيرية ١٩٧٦م،١٩ومعه قاسم عبد الهادي أمين سر الفرع، سيف الرمحي، حسين كساب، كمال الحمد وغيرهم، وقد اعترض بسيسو على بعض الاسماء وقد نجح في رئاسة الفرع، لؤي عيسى، وزينب الغنيمي وعلام الاحمد، وظلوا حتى توقيع اتفاق كامب ديفيد ١٩٧٨م تقريباً، حيث تم ترشيح قائمة لم تكن متجانسة فلم يتم انسجامهم مع بعضهم البعض، مما أدى إلى استقالتهم بعد ثلاثة أشهر، وتشكلت لجنة تحضيرية بعد ذلك، ومن بين أعضائها زينب الغنيمي وآخرون، وأيضاً هذه اللجنة لم يكتب لها النجاح ومن ثم قدموا استقالاتهم، ومع ذلك قاموا بعمل حفل تكريم لهم، ثم أجريت مشاورات في الاقليم ومع القيادة وتم تشكيل لجنة تحضيرية أخرى كان أحمد كلوب(اسمه الحركي تيسير ابو حميد) أحد أعضائها حيث تسلم مهمة السكرتير العام لاتحاد طلبة فلسطين فرع القاهرة٢٠، حيث جرت الانتخابات من أجل اختيار هيئة إدارية لفرع الاتحاد العام لطلبة فلسطين بالقاهرة، وبدأت الاتصالات والمباحثات والاجتماعات واللقاءات، التي تمثل كافة القطاعات في حركة فتح من قطاع غربي وإقليم وتوصيات القيادة من أجل اختيار من يتبعونهم من الولاءات وما إلى ذلك، وفعلاً جرت الانتخابات ونجحت قائمة حركة فتح بشكل لافت للنظر، وتمت عملية توزيع المهام وكان من نصيب كلوب السكرتير العام لاتحاد طلبة فلسطين فرع القاهرة،

حيث كان يداوم في الصباح في مكتب حركة فتح في شارع عدلي، وفي المساء في مقر الاتحاد العام في شارع جواد حسني أو في فرع مصر الجديدة،خلال أربع سنوات. وفي العام التالي جرت الانتخابات في موعدها، وكان من الضروري أيضاً نزول قائمة أخرى لأعضاء المؤتمر العام والذي يتم من خلاله اختيار الهيئة التنفيذية للاتحاد العام لطلبة فلسطين على مستوى العالم، ومن ثم أصبحت هناك قائمة من أحد عشر عضواً من أجل انتخاب الهيئة الإدارية لفرع مصر، وسبعة أعضاء آخرين في قائمة أخرى يتم انتخابهم كأعضاء مؤتمر، ونجحت قائمة فتح الخاصة بالهيئة الإدارية للفرع وفشلت قائمة فتح الخاصة بالمؤتمر العام من الحصول على نسبة الأصوات المطلوبة، ومن ثم فلا بد من إعادة التصويت مرة ثانية بعد أسبوعين (بالنسبة لقائمة فتح المشاركة في المؤتمر العام) ، وفي حال عدم حصولها على النسبة المطلوبة يتم أخذ أول سبعة أسماء ممن نجحوا في قائمة الهيئة الإدارية بداية ممن حصل على أكبر عدد من الأصوات، ومن أجل إدارة دفة الازمة والانتخابات في الاتحاد جرى اجتماع في مكتب جمال عرفات أبو رؤوف (شقيق الرئيس أبوعمار) بعد صدور النتائج، بحضور زهدي القدرة وتأخر عن هذا الاجتماع ربحي عوض ربما منعاً للإحراج عند توزيع المهام، وكانت هناك نية ترشيح لؤي عيسى رئيساً لفرع مصر، وعليه فقد اتفق مجموعة الشباب، الذين نجحوا في هذه الانتخابات منهم كلوب أن لا يعترضوا على ترشيح عيسى لهذا المنصب، وفي نفس الوقت اتفقوا ألا يتسلم مهمة السكرتير العام أحداً خلاف أحمد كلوب، وفعلاً تم ترشيح لؤي رئيساً للاتحاد العام لطلبة فلسطين في مصر، ووافق الحضور على ذلك، حيث كانت هناك نية لترشيح قاسم شراب ليكون سكرتيراً عاماً للاتحاد، فقام قاسم رضوان بترشيحه سكرتيراً أول، وتم تزكية ذلك الترشيح ومن ثم أصبح خارج دائرة المنافسة على موقع السكرتير العام، وتم ترشيح زينب الوزير أمين صندوق وقاسم رضوان مسئولاً للجنة الرياضية، هكذا إلى أن بقي موقع السكرتير العام والعضو المنتخب أحمد كلوب، فكان هذا الموقع من نصيبه دون اعتراض من أحد، وقبلت القيادة بذلك، وعندها حضر ربحي عوض بعد توزيع جميع المهام.

بعد أسبوعين تم إعادة انتخابات أعضاء المؤتمر العام الذين كما قلنا لم ينجحوا في المحاولة الاولى، وفي هذا اليوم بالذات شدت الأعصاب، ذلك أن انتخابات القاهرة لها مدلولات لدى القيادة حيث لا تقبل بأن يؤثر في ذلك أي موقف لأي كادر من كوادر الحركة (فتح)،

وبسبب هذه الأهمية تواجد كل من أبوعمار وأبو اللطف و أبو الهول، وبدأ القلق واضحاً من بداية النهار على القيادة التي أوفدت (القدرة) إلى مكان مجاور لمبنى الاتحاد العام لطلبة فلسطين في شارع جواد حسني، وخاصة فترة ما بين الظهر والعصر، وبدأت مراسيل القيادة والاستعجال لمعرفة نتائج المؤتمر، ومعرفة عدد الذين حضروا للتصويت حتى تلك اللحظة، وقبل صلاة العصر بقليل انطلقت إشارة الانضباط والالتزام وتغليب مصلحة الحركة على المصلحة الشخصية، فتحركت جموع الطلبة والطالبات من مناطق القاهرة المختلفة أن انتصروا لحركة فتح فتقدم مئات الطلبة والطالبات في مواكب لفتت أنظار الجميع وعلى وجه الخصوص القدرة، ووصل عددهم إلى أكثر من ثمانمائة طالب وطالبة وكانت فتح بحاجة إلى حوالي ثلاثمائة وخمسين صوتاً تقريباً لتنجح قائمة حركة فتح وكان لأحمد كلوب دور كبير في نجاح القائمة، الذي قال للقدرة قبل غلق صناديق الاقتراع بلغ الأخ أبوعمار بأن النصاب قد اكتمل وهنئه بنجاح قائمة حركة فتح في المؤتمر العام.

***ندوة في مقر الاتحاد:**

عقدت ندوة سياسية هامة جدا في مقر الاتحاد العام لطلبة فلسطين فرع القاهرة، مطلع تشرين الأول أكتوبر ١٩٧٦، واستمرت لستة أيام متتالية، منذ المغرب، وحتى منتصف الليل، وقد غصَّت القاعة، على اتساعها، بالحضور، وغالبيتهم من اليسار المصري.

حاضر في الندوة كل من: أحمد صادق سعد (الأطماع الاقتصادية)، الحزب الشيوعي السوداني (كوارث نظام نميري)، الجبهة الوطنية البحرينية (الحركة الوطنية البحرينية)، أحمد بهاء الدين شعبان (أنصار الثورة الفلسطينية)، فريدة النقاش (الأنشطة الأميركية في المجال الأدبي)، محمود المراغي (الأطماع الاقتصادية)، سامي السلاموني (الأطماع الأميركية في مجال السينما)، د.لطيفة الزيات (الأنشطة الأميركية في مجال الفكر)، عبد القادر ياسين (النشاط الأميركي في المجال الصحافي: دار أخبار اليوم نموذجًا).ولطفي الخولي (الامبريالية الأميركية والحركة التحررية العربية، اهم ندوة شهدتها القاهرة كانت هذه الندوة. حلمي شعراوي، كان خبيراً في الشؤون الافريقية وكان صخر بسيسو، (رئيس الاتحاد العام لطلبة فلسطين)، اشترط قراءة المحاضرات، قبل السماح بإستخدام القاعة إياها، وقد كان.

نزل اليساريون المصريون بكل ثِقلهم في هذه الندوة، كفرصة قد لا تتكرر، للتنديد بنظام

السادات، وبشاعات أجهزة الأمن. الحقيقة أن غالب هلسا كان يترك المتحدِّث، حتى يُكمل حديثه، ثم يطلب من المتحدث ضرورة الالتزام بعنوان الندوة، وعدم الخروج عنه.

وخلال أيام الندوة، انعقد مؤتمران، أولهما في «قاعة عبد الناصر»، بجامعة القاهرة، شارك اتحاد الطلبة ممثلاً بكايد الغول عضو الهيئة التنفيذية للاتحاد فيما شارك عبد القادر ياسين ممثلاً عن الاتحاد العام للكتاب والصحافيين في تنظيمه، وألقيتُ فيه كلمة الاتحاد، وألقى أحمد فؤاد نجم رائعته: «بيان هام»، أما المؤتمر الثاني، فعُقِد في مسرح البالون، لإدانة التدخُّل السوري في لبنان. وشارك فيها اتحاد الطلبة والقى عبد الرحمن البرقاوي كلمة، بعدها اعتقل هو وهاني المصري، وكان المؤتمران، والندوة مهرجانًا للتنديد بالأميركان، وأنصارهم، والتأييد للقضية الفلسطينية، وشعبها.٢١

***نهاية الاتحاد في مصر:**

قام الفرع بكل النشاطات الممكنة في العاصمة المصرية، مع مختلف الفعاليات المصرية والعربية والداعمة للقضية الفلسطينية، شملت مهرجانات، وندوات كان يحضرها ويتحدث فيها صلاح خلف، خالد الحسن، وعدد من المفكرين، وغالبا ما كانت تعقد النشاطات في قاعة جمال عبد الناصر في جامعة القاهرة، أو مدرج ٧٨ كلية الآداب جامعة القاهرة، وفي تلك الفترة اشتدت حملات المطاردة والاعتقال للطلاب الفلسطينيين منذ العام ١٩٧٦، على فترات متفاوتة ومتقاربة.

وقد دعا الطلاب المنتمون لتنظيم الديمقراطيين الثوريين مع القوى اليسارية المصرية، لاحياء يوم الارض في ٣٠ اذار ١٩٧٦، كان عبد الرحمن البرقاوي قد توجه لمقر الاتحاد فأخبره الامن المصري انه مغلق بالشمع الاحمر، وكانت هناك اجراءات امنية مشددة لوقف تحرك المظاهرة، وفعلاً تجمع الطلاب والقوى في ساعة الذروة ظهراً، في ميدان التحرير وكانت متجهة نحو السفارة الاميركية، واستطاع الامن تغيير مسارها فتوجهت الى مقر الامم المتحدة وسلم الطلاب مذكرة، أدى ذلك لعدة اعتقالات لاحقاً، وبعدها تمت الدعوة من قبل الاتحاد العام في مقره بمصر الجديدة، الى ندوة لتقييم ما حدث في يوم الارض، وتحدث فيها عبد الرحمن البرقاوي الذي كان عضوا في اتحاد الاطباء وطالب ماجستير، وقدمه محمد صقر عضو الهيئة الادارية لفرع القاهرة انذاك، وحدثت أيضاً مناوشات، وفي نفس العام كان اتحاد

الطلبة قد اعلن التعبئة العامة بسبب الاحداث في لبنان ولكن لم يخرج إلا ٦ طلاب منهم وليد الأحمد، وخضع الباقون للملاحقة السياسية منهم من باب الذكر لا الحصر: ابراهيم عدوان، مروان الخالدي، عوض خليل، وليد عبد السلام، سهيل سرور، رزق صقر، مهند عبد الحميد(الذي كان مطاردا ورُحّل بعدها من مطار القاهرة).

وقد دعت جمعية كتاب الغد المكونة من يساريين مصريين (عمال شيوعي مصري) مع الطلبة الديمقراطيين الثوريين، لمؤتمر نادي السامر في العجوزة، وتحدث فيه البرقاوي، وكان هاني المصري وهلسا موجودين أيضاً،٢٢ كانت هناك تحركات شعبية وانشطة مع المعارضة المصرية، وحدثت اعتقالات في جامعة القاهرة شملت البرقاوي ووجيه مطر من اتحاد الطلبة الهيئة الادارية وحسين كساب وأحمد عبد الرازق كان رئيس فرع الاسكندرية، (لاحقاً أصبح سفيرنا في باكستان)،٢٣ فيما سجن هاني المصري في سجن انفرادي في القناطر، وكان هناك ٥ آخرون كل واحد في الانفراد.٢٤

وعقدت فعالية خلال زيارة السادات لاسرائيل والقائه خطاباً في الكنيست، وذلك في مقر الفرع الثاني الكائن في مصر الجديدة، فوق سينما كريستال، روكسي، كان الامن والمخبرون يملأون المكان، وكان اهمهم محمد الجوهري، وهوصديق لكثير من الطلبة وصديق أبو عمار أيضاً، وقد وفر الحماية لكثير منهم، لكن نتيجة الفعالية، تم اقتحامها وفضها بالقوة، والضرب، واعتقل عدد كبير منهم وزعوا بين أقسام الشرطة وأمن الدولة ومقر لاظوغلي، وقد تدخلت حركة فتح، ربحي عوض، ويونس الشريف، وصخر بسيسو، وتوصلوا لاتفاق لاطلاق سراحهم الفوري.

في أواخر عام ١٩٧٦ حدثت حملة اعتقالات جديدة طالت العديد من الكوادر الطلابية واغلبها من الديمقراطيين الثوريين، منهم محمد صقر، توفيق ابو زعنونة، محمد نجيب، وبعدها بأسبوعين تقريباً، تم استئناف الاعتقال وشمل، غازي عليان، خالد الطريفي، وليد الخالدي، مهدي المصري (واعتقل اول مرة خلال عملية البحث عن اخوه هاني)، عاطف العماوي، قاسم عبد الهادي، فتحي عبد الرحمن، وآخرون.

وعندما حصلت مظاهرات في شارع جواد حسني وفي مقر مصر الجديدة حدث اجتماع أيضاً ضد مبادرة السادات و كانت في بيروت مظاهرات منددة وتم اعتقال عدد كبير من الطلبة

والشباب في القاهرة وترحيلهم، والدفعة الأولى من الترحيل كانت إلى العراق ونسبوهم هناك في الجامعات وامنوا سكناً للفلسطينيين ولكن حدثت مشاكل من الطلبة البعثيين، فتم ترحيلهم جميعاً إلى بيروت. كان سهيل، وتوفيق أبو زعنونة من الديمقراطيين الثوريين قريبين من الحزب الشيوعي المصري كان أحمد البرقاوي (آخر سنة تخرج)وهاني المصري(مسؤول التنظيم السري لهم).

وخلال حملة الاعتقالات التي شملت مئة طالب من كوادر الطلبة على إثر زيارة السادات لإسرائيل١١/٢١/ ١٩٧٧، وقد طالت صخر بسيسو رئيس اتحاد الطلبة الذي رحل إلى بيروت مع جمال الصوراني ممثل م.ت.ف، ربحي عوض، ممثل فتح، بعدها بأربعة أيام تم ترحيل عزام الاحمد من القاهرة، فيما بقي نبيل الطاهر ومحمود سعد، وكايد الغول (عن الشعبية) وناصر القدوة، أحمد عبد الرازق سكرتير الهيئة، وهم هيئة تنفيذية للاتحاد، ومن اللجنة الادارية من الكتاب، من غير فتح، علي هاشم رشيد افلت، ورضوى عاشور افلتت، ومنهم جبهة شعبية، وجبهة ديمقراطية، الوطنيون الديمقراطيون مقرهم القاهرة، الاشتراكيون الديمقراطيون ومقرهم الإسكندرية. ولاحقاً تم ترحيل توفيق وصفي ابو زعنونة، الشاعر مريد البرغوثي(ممثل الاتحاد العام لطلبة فلسطين في اتحاد الشباب الديمقراطي العالمي ١٩٧٤)، وعبد الرحمن البرقاوي، وحسين كساب، كمال الحمد، وبعض الديمقراطيين الثوريين ومنهم هاني المصري، من مختلف الأطر الفلسطينية وليس فقط الطلبة كل ذلك تحديداً في ١٩٧٧/١١/١٩ وبعدها أخذت مؤسسة اسر الشهداء والجرحى مقر اتحاد طلبة فلسطين لها، حيث كانت ملكيته تعود لحركة فتح، لتوقف عمل الاتحاد العام طلبة فلسطين بالكامل وفقاً للقرارات والوضع الأمني في مصر.

١٩/ فبراير ١٩٧٨ تم اغتيال السباعي مما زاد الطين بلة، حيث تم التشديد على الفلسطينيين في اقاماتهم، والسادات اصدر قانوناً، حرم الفلسطينيين من المساوة مع المصريين منها التعليم، وتم منع دخولهم كليات القمة: الطب، الهندسة، الصيدلة، العلوم، الصحافة، وغيرها، وكان قد اصدر جمال عبد الناصر قانون ١٩٥٤ بمساواة الفلسطينيين، وسوريا أيضاً نفس القرار. علما بأن فرع القاهرة كان له دور مهم، إذ كان يمثل اثني عشر ألف طالب فلسطيني في الجامعات المصرية، ولكن في عام ١٩٧٧ انتقل مقر الاتحاد من القاهرة إلى بيروت، على اثر

حادثة الاغتيال حيث تم التشديد على الطلبة مثل عدم قبولهم واقامتهم لكن الترحيل كان قبل هذه الحادثة في صيف ١٩٧٧ (مبادرة السادات) أما من لم يُرحّلوا كانت فعلاً عليهم رقابة شديدة وبعدها توقف تقريباً لفترة قبول الطلبة في الجامعات المصرية، وبذلك اغلاق المقرات كان مرتبطاً بمبادرة السادات وقد تم ترحيل الطلبة وعليه انتهى دور الاتحاد في القاهرة سواء شارع جواد حسني أو مصر الجديدة ولم يعد هناك جرأة للشباب أن يظهروا لدرجة أن هناك شباباً لجأوا إلى مناطق ريفية ومحافظات مصرية وعادوا عند الامتحانات للجامعات لكن الامن اعتقلهم مرة أخرى وتم ترحيلهم حيث كانت ملاحقة الطلبة شديدة.٢٥

وانعقد المؤتمر الثامن في سوق الغرب في لبنان ١٩٧٨٢٦واستمر بعده بسيسو رئيساً وكان معه روحي فتوح (الذي بدأ عمله السياسي في حركة فتح، إقليم سوريا حيث كان أمين سر التنظيم والمكتب الحركي للطلاب ورئيس الهيئة الإدارية في فرع الاتحاد العام لطلبة فلسطين في سوريا ليصل في نهاية السبعينات، ١٩٧٩ إلى منصب عضو الهيئة التنفيذية لاتحاد طلبة فلسطين حيث تخرج من جامعة دمشق بآداب اللغة الإنكليزية)، وعزام الاحمد، وتوفيق الطيراوي وناصر القدوة ولؤي عيسي عن فتح، فيما كان يوسف العش عن الصاعقة، وماجد الكفارنة عن جبهة التحرير العربية، وممثل عن الحزب الشيوعي، بعدها أصبح ناصر القدوة رئيساً للهيئة التنفيذية، أوائل الثمانينات. وكان قد توقف طبعاً عمل الاتحاد العام لطلبة فلسطين في مصر بالكامل.

وعلي ان أذكر هنا ان كل مؤتمر كان ينعقد للاتحاد العام لطلبة فلسطين كان يقدم برنامجاً سياسياً شاملاً لكل الأحداث والمستجدات ولا يقتصر عمله على اصدار بيان ختامي بل مخرجات يأخذ بها، وتعمل بها القيادة الفلسطينية التي كانت تولي اهتماماً كبيراً بمؤتمرات الاتحاد لذلك كانت القيادة الفلسطينية تحرص على حضور جلساتها وأيضاً زعماء وشخصيات عربية لما تمثله من أهمية، فكان الاتحاد رافعة لعمل المنظمة والثورة الفلسطينية ووقوداً لها.

المحاولة الأخيرة:

جاءت المحاولة الأخيرة لإحياء الاتحاد العام لطلبة فلسطين في القاهرة، بعد انقطاع طويل لعمل الاتحاد بشكله الرسمي منذ سبعينات القرن الماضي، وفي عام ٢٠١١ وصلت القاهرة (حسام أبو النصر) بمنحة ابن شهيد لدراسة الماجستير في التاريخ، في معهد البحوث والدراسات

العربية وحقيقة ان عدد الطلبة في مصر شهد تزايداً ملحوظاً في تلك الفترة خاصة من قطاع غزة بحكم قرب المسافة، والتكاليف المعقولة لدى الطلبة الفلسطينيين، والوضع الفلسطيني أيضاً، الذي دفع بكثير من الشباب لايجاد آفاق اخرى في ظل الوضع المتردي، المهم ان ذلك أفرز وجوداً فلسطينياً في اغلب الجامعات المصرية منها: القاهرة، عين شمس، الاسكندرية، معهد الدراسات العربية (الذي كان مكاناً لتجمعنا كقيادة طلبة في شارع القصر العيني، جاردن ستي)، السويس، ٦ اكتوبر، الخ، وبالتالي أصبح هناك جسم فلسطيني يحتاج لإدارة اموره، فتم تشكيل رابطة للطلاب الفلسطينيين، وكانت التجاذبات الفلسطينية تنعكس على أدائها، وبحكم متابعتي للوضع التاريخي للاتحاد وضرورة وحاجة اعادة الاعتبار للاتحاد العام لطلبة فلسطين شكلنا لجاناً على مستوى المحافظات المصرية لمساعدة الطلبة ومتابعة امورهم، ولكن كل ذلك لم يغني عن الحاجة لأن يكون هناك جسم ناظم، لذلك خرجنا ببيان أول يدعو إلى اعادة فتح مقرات الاتحاد العام لطلبة فلسطين في مصر بشكل واضح وكان ذلك بتاريخ ٢٠١٢/٤/١٠، حيث دعا البيان إلى توحيد الصفوف، واشار لدور مصر التاريخي في دعم طلبتنا والتزامهم بالقضية الفلسطينية، وبعد أن كتبت البيان، سلمته لمنار أبو سمرة وهو الذي قام بنشره، وكانت الشرارة من جديد لانطلاق عمل الاتحاد العام لطلبة فلسطين، المهم ان ردة الفعل لهذا البيان جاءت عكسية حيث بدل ان يقابل بالايجاب آثار حفيظة، الجهات الرسمية الفلسطينية، سفارة فلسطين، والامن المصري، وبعض اقطاب التجاذب الفلسطيني في القاهرة، وتم الاتصال بعدد محدود من الهيئة التنفيذية للاتحاد في فلسطين منهم صلاح عبد العاطي للاستفسار عن دورهم وموقفهم من ذلك، وتم الاتفاق ان تجلس جميع الجهات معنا وانا على رأسهم، والتقينا في ميدان التحرير وتم الاتفاق على المضي قدماً في تسيير أمور الطلبة مع مراعاة الوضع الأمني في مصر وعدم استقرار الاوضاع، إضافة إلى أنه كانت هناك متابعة دائمة من الجهات الرسمية المصرية لفعالياتنا وتحركاتنا ضمن سياسة تقليدية، لضمان الأمن، وهي حقيقة كانت مشروعة في ظل التخوفات المصرية مما يحدث في مصر والاقليم، ولكن كان مبالغاً فيها اتجاه الطلبة الفلسطينيين، المهم بعدها تم اصدار البيان الثاني في ٢٠١٢/٩/٣، وفيه يحدد خطوات العمل، وتم ذكر أهم الفعاليات والنشاطات التي يقوم بها الطلبة في مصر بشكل واضح، وتم انشاء صفحة الكترونية تحمل اسم الاتحاد العام لطلبة فلسطين ج.م.ع، بنفس شعار الاتحاد التاريخي، واستمر العمل

واقامة الفعاليات في مقر نقابة الصحافيين، وفي الجامعات وفق ما هو متاح وموافق عليه، وتنظيم الاعتصامات والوقفات أمام جامعة الدول العربية دعماً للقضية وبحضور الفعاليات والأحزاب المصرية، وقد شارك اتحاد الطلبة في افتتاح سفارة فلسطين في التجمع الخامس بحضور السيد الرئيس ابو مازن، وفعالية ذكرى استشهاد ابو جهاد، وتأبين محجوب عمر، ووقفات أخرى أمام مقر الأمم المتحدة في القاهرة، وتنظيم عدد من الرحلات للطلبة الفلسطينيين منها الاسكندرية، والمشاركة في المؤتمر العلمي الثاني لمعهد البحوث والدراسات العربية حيث ألقيت خلاله كلمة فلسطين أمام الحضور العرب، وحقيقة كان هناك عدد من الشباب الفاعلين في ذلك الوقت، اذكر منهم من باب الذكر لا الحصر، محمد الغول وعبد الرحمن الجبور (الجبهة الشعبية)، أما من فتح كان، عطية القططي، هيثم ابو معيلق، هيثم أبو الكاس، محمود عزات، محمد اشتية، محمد رمزي حمودة في الاسكندرية، أحمد النجار، حامد أصرف، خالد هتهت، طارق محيسن(وكان من أشد المؤيدين لقيام الاتحاد)، عبد مبروك، د. شاكر صيام، ومحي الدين السالمي كان في الإسكندرية، أحمد يونس حمودة، سعيد الصفطاوي، هشام صافي، محي حرارة، حسام ابو جزر، عماد عمر، محمد عباس، علاء العقاد، زايد الحسنات، حسام ربايعة، ونادية الدلو، رانيا اللوح (كلفتها باللجنة الاعلامية)، ايناس ابو اللبن، ورانيا المدهون (مقيمة دائمة في مصر) وجزء منهم كان عضو اقليم فتح القاهرة (شارع عدلي)، وآخرون، وجزء كبير منهم كان في رابطة طلاب فلسطين وهم من ساهم في تشكيلها لكن مجموعة منهم كانت ضد فكرتي اعادة صرح الاتحاد العام لطلبة فلسطين، خوفاً من الملاحقات والارتباطات السياسية ووضعهم واقاماتهم واعتبروا اعادة الاتحاد العام لطلبة فلسطين مجازفة ومغامرة غير محسوبة وقد تؤدي إلى صدام مع الامن، فوقفوا على الحياد أو ضد الفكرة، أما الجزء الآخر وهو فاعل وبارز بشكل كبير في الساحة المصرية، فكان قرارهم بمؤازرتي في اعادة صرح الاتحاد، وكان موقفاً يسجل لهم، على رأسهم منار ابو سمرة (وهو من مؤسسي رابطة طلاب فلسطين سالفة الذكر)، محمود عزات(كان نائبي ويدرس في جامعة قناة السويس)، وطارق معمر(بربخ) عن الجبهة الشعبية، واحسان ابو شرخ عن الجبهة الديمقراطية، ومحمد البوبو عن جبهة التحرير الفلسطينية، ومحمد حمودة في الاسكندرية واخرون، ومنهم أيضاً الصديق سليم البريم الذي رافقني في عدة جولات شملت جريدة الاهرام، ومقر جامعة الدول العربية، وزيارة محمد صبيح ممثل فلسطين،

وهو الوحيد منهم الذي عايش معي تجربتي اتحاد الطلبة في القاهرة والجزائر، حيث كان في اتحاد طلبة فلسطين في الجزائر فرع باتنة لكن انتقل الى العاصمة وشارك في النشاطات هناك في اواخر التسعينات). ويسجل هنا أن دخول الفصائل على الخط هو الذي أعطى الشرعية لتحركي من خلال إحسان ابو شرخ وطارق معمر ولاحقاً محمد البوبو واعطى بعداً وطنياً وحدوياً جامعاً للتحرك واعادة صرح الاتحاد، وأذكر هنا ان السفير الفلسطيني في ذلك الوقت د.بركات الفرا ومعتمد اقليم فتح، أما مسؤول الشؤون التعليمية في السفارة الفلسطينية كان سليم التلولي، وهو شخصية لها حضورها لدى الطلبة ومحبوب لدى اغلبهم، وكان يساعد ويساهم في حل كثير من القضايا وقريب من الجميع ومنها التدخل عند اعتقالنا، لكن للاسف كل هذه الجهود لم تكلل بنجاح اعادة فتح مقر الاتحاد العام لطلبة فلسطين، لعدة اعتبارات، أولها عدم استقرار الأوضاع في مصر خاصة بعد الثورتين، وأيضاً بسبب التجاذبات في الساحة الفلسطينية وانقسامنا خاصة الفتحاوي الفتحاوي، والانقسام الفصائلي، الذي انعكس سلباً على وضعنا في مصر بل وفي الدول العربية كافة، وللأسف كثيراً من الطلبة لم يحصلوا على اقامات في مصر بسبب هذه الاوضاع علما بأن هناك جامعات مصرية لا تقبل الطلبة الفلسطينيين قبل أن يكون هناك موافقة أمنية، في النهاية تم اعتقال عدد من الطلبة، وتم ترحيلي إلى غزة في أواخر عام ٢٠١٣، ولحسن حظي كنت قد أنهيت مقررات الدراسات العليا في التاريخ، فيما لم اكمل مناقشة الماجستير، وانتهت تلك المحاولة، وبقيت المقرات مغلقة حتى يومنا هذا رغم الوجود الفلسطيني الطلابي الكبير في مصر، وفي أغلب الجامعات.

*صالح رأفت:٢٧ ساهم في تأسيس فرع الاتحاد العام لطلبة فلسطين في جامعة الجزائر وانتخب رئيساً للهيئة الادارية الأولى للفرع وشارك في المؤتمر العام الرابع للاتحاد الذي عقد في القاهرة عام ١٩٦٥ وانتخب من قبل المؤتمر عضوا في المجلس الاداري للاتحاد.

- اعتقل في الجزائر عدة اسابيع بعد الانقلاب والإطاحة بالرئيس أحمد بن بله عام ١٩٦٥.

- ترك دراسته في جامعة الجزائر فور اندلاع حرب حزيران عام ١٩٦٧. وعاد الى الضفة الغربية للمشاركة في مقاومة الاحتلال.

(إستكمالاً لمقالي الاتحاد العام لطلبة فلسطين درع م.ت.ف فرع الجزائر نموذجاً في العدد ٣٠ صيف ربيع ٢٠٢٢، عنوان فرعي مرحلة التأسيس ص ٧٣)

مراجع :

*أحمد كلوب، عبر مسيرتنا الطويلة، موقع دنيا الوطن، غزة، ٢٠١٢/١٠/٢٢

*أسعد عبد الرحمن وآخرون، الاتحاد العام لطلبة فلسطين، الموسوعة الفلسطينية، ج١، دمشق، ١٩٨٦

*أكرم هنية، رحيل القائد البارز تيسير قبعة، جريدة الايام، رام الله، العدد ٧٣٧٤، ٢٠١٦/٧/٢٢،(ص ١و٢٠)

*الاتحاد العام لطلبة فلسطين، الهيئة التنفيذية، مجلة جبل الزيتون، العدد ١٣ ايار(مايو) ١٩٧١.

*حسام أبو النصر، المحاولة الأخيرة ... الإتحاد العام لطلبة فلسطين فرع مصر، الحوار المتمدن، العدد ٧٢٨٠، ١٥/٦/٢٠٢٢

*نبيل شعت، حياتي من النكبة الى الثورة، دار الشروق، ٢٠٢٠

*سوزان عاطف، سفير فلسطين السابق: عدم معرفة «عرفات» بيوم الحرب حرم ٣ آلاف فلسطيني من القتال، المصري اليوم، القاهرة، ١٧-١٠-٢٠١٣

*عليان عليان، منظمة التحرير الفلسطينية، من كيانية التحرير، إلى استراتيجية التسوية والاعتراف باسرائيل، دار الان ناشرون وموزعون، عمان، ٢٠٢١

*عيسى عبد الحفيظ، ناهض الريس، الذاكرة الوفية، الحياة الجديدة، ٢٧ شباط ٢٠١٨

*عبد القادر ياسين،لاجئ من يافا وقصة الترحيل من مصر.. الروائي غالب هلسا نموذجاً، عربياً ٢١، ٢٤ يوليو ٢٠٢٠.

*شحادة موسى، حول تجربة الاتحاد العام لطلبة فلسطين، مجلة شؤون فلسطينية، العدد ٥، مركز الابحاث م.ت.ف، بيروت، نوفمبر، ١٩٧١

*غازي مرار، حديث في القضية: الاتحاد العام لطلبة فلسطين ندوة فلسطين العالمية، ٢٠١٧-٠٥-٠٨، موقع ١٩٤.

مقابلات أجراها المؤرخ حسام أبو النصر:

*مقابلة مع هاني المصري، رام الله، ٢٠٢٢/٦/٢٦

*مقابلة مع زينب الغنيمي، غزة، ٢٠٢٢/٥/٢٩

*مقابلة مع مهند عبد الحميد، رام الله، ٢٠٢٢/٥/١

* مقابلة مع عبد القادر ياسين، القاهرة، ٢٠٢٢/٤/١

*مقابلة مع عبد الرحمن بسيسو، رام الله، ٢٠٢٢/٦/٢٩

* مقابلة مع عبد الله ابو الهنود، غزة، ٢٠٢٢/٥/١

* مقابلة مع عبد الرحمن البرقاوي، رام الله، ٢٠٢٢/٦/١

*مقابلة مع عزام الاحمد، رام الله، ٢٠٢٢/٧/١

*مقابلة مع صخر بسيسو، رام الله، ٢٠٢٢/١٠/١٧

*مقابلة مع غازي مرار (فخري)، مصر، ٢٠٢٢/١٠/٢٦

الهوامش

١ (وُلد في عام ١٩٤٤ في بئر السبع) مهندس وسياسي فلسطيني، وهو عضو في المجلس الوطني الفلسطيني والمركزي الفلسطيني وحركة فتح ومجلسها الثوري، مَثَّل منظمة التحرير الفلسطينية لدى المجر في الفترة ١٩٨٢–١٩٨٥، في ١٣ أغسطس ١٩٩٦، عُين محافظًا لمحافظة خان يونس واستمر بالمنصب حتى عام ٢٠٠١، وفي ٢٦ أكتوبر ١٩٩٩، عُين عضوًا في مجلس أمناء جامعة الأزهر في غزة.، وفي ١ يوليو ٢٠٠١، عُين محافظًا لمحافظة شمال غزة. واستمر حتى فبراير ٢٠٠٥، في ٢٤ فبراير ٢٠٠٥، عُين وزيرًا للشباب والرياضة ضمن حكومة أحمد قريع الثالثة واستمر بالمنصب حتى ٢٧ مارس ٢٠٠٦.

٢ كان في المرحلة النهائية في دراسته بكلية العلوم بجامعة عين شمس وتخرج في تلك السنة، وأصبح ملحقاً ثقافياً في سفارة فلسطين بالقاهرة لاحقاً

٣ خلال صيف عام ١٩٦٣ حصل على شهادة الثانوية العامة في قطر، ثم توجه الى القاهرة وقدم أوراقه الثبوتية الى إدارة شؤون الوافدين وتم قبوله طالبا بكلية دار العلوم التابعة لجامعة القاهرة، على مستوى كلية دار العلوم فقد توثقت صلة نبيل الاغا بالعديد من الزملاء والزميلات في مقدمتهم الشاعر محمد عز الدين المناصرة وصالح خليل أبو اصبع «الدكتور والأديب فيما بعد»، وشهناز مصطفى استيتية «الدكتورة وزوجة معالي محمد السقاف، ونداء راغب العلمي، وسلمى الريماوي «المدرستين فيما بعد» وحياة أحمد أبو مدين، ومصطفى الحوراني وسالم العمصي، وفتحي حنون، وعبدالمعز البكري وغيرهم، وقاموا بعدة أنشطة وطنية داخل كلية دار العلوم وخارجها.

كما توثقت علاقة الاغا بمجموعة من أساتذته في الكلية من أبرزهم الدكتور المرحوم عبدالصبور شاهين والدكتور كمال بشر والمرحوم الشاعر علي الجندي الذي حدبَ عليه وعانقه في احدى المناسبات الوطنية في الكلية بعد ان ألقى الاغا خطاباً وقال له مقسما: والله ان لك من اسمك نصيب يا نبيل!. وانتهز الاغا فرصة اقامته في القاهرة وتعرف على العديد من الشخصيات الوطنية العربية ومن بينهم المفكر والمؤرخ العراقي المعروف اللواء الركن محمود شيت خطاب الذي كان يقيم في احدى الشقق بضاحية مصر الجديدة. وأثناء احدى زياراته له طلب نصيحته في كتاب طالما ودّ تأليفه عن الشهيد الحي عبدالقادر الحسيني باعتبار ان خطاب شارك في حرب ١٩٤٨ في مدينة جنين ولديه مخزون من المعارف والمعلومات فشجعه وأخذ بيده وكتب مقدمة مسهبة عن الكتاب الذي صدر في بيروت عام ١٩٨٢م. وأثناء وجود الاغا في القاهرة تعرف على اللواء الأردني المرحوم عبدالله التل قائد معركة القدس في حرب ١٩٤٨، وكان يومئذ مقيماً في القاهرة كلاجئ سياسي، ودعاه للمشاركة في مناسبات وطنية أحيتها «لجنة أبناء فلسطين في كلية دار العلوم».

٤ ويذكر هنا نبيل الأغا موقفين طريفين عابرين حدثا في تلك الأمسية الوطنية (الندوة)، ففور دخول الشقيري إلى قاعة الجامعة التهبت حناجر الحاضرين بالهتافات، واصطكت أكفهم بالتصفيقات، تأييداً وترحيباً بالمنظمة الوليدة، وبقائدها الجديد المعبر عن تطلعات الشعب الفلسطيني مدعوماً بمؤازرة الشعب العربي وقوى التحرر في العالم، وكان مأمولاً أن تتوقف مظاهر الحماس فور اعتلاء الشقيري للمنصة، لكن الامور لم تكن كذلك، بل ان الموقف تضاعفت حدته عندما اعتلى المنصة، ولم يبق مدعو جالسا على مقعده، الكل واقف والهتافات المدوية طالت مدتها، وقد حاول المنظمون تهدئة الحاضرين والكف عن الحماس، واتاحة الفرصة للرئيس كي يلقي كلمته المرتقبة، لكن المحاولات لم تفلح الا قليلا، ويبدو ان الشقيري استمرأ الموقف وطرب له، واذا به يصب زيته الحار على نار الجمهور المشتعل، فأخذ يخاطب المنظمين بقوله بصوت أجش: اتركوهم يعبرون عن مشاعرهم، فنحن الآن في حالة حرب، فالحرب ـ كما قالت العرب ـ اولها الكلام!!

فالتهب الموقف مجددا ليخفت بعدئذ رويدا رويدا.. وأثناء إلقاء الخطاب قوطع عدة مرات من كافة انحاء القاعة، لكن حدث موقف عارض ولم يتركه «ابومازن» يمر دون تعليق، فقد ارتطمت قدم احد المنظمين اثناء سيره على المنصة بأحد اسلاك مكبر الصوت فوقع اللاقط أرضاً، ومن فوره علق قائلا: وهذا الذي حدث شبيه ايها السادة بحال امتنا العربية اليوم.. لا تثريب عليكم ايها السادة.. لا تثريب، فصفق الحاضرون اعجابا بسرعة بديهته التي حولت الموقف من حالة الاضطراب والاحراج إلى حالة الطرافة والاعجاب، وهذه احدى صفات القائد الناجح.

٥ ويذكر أن المشاكل كانت قائمة من المؤتمر الأول الذي رأسه سعد الدين الغندور، وكان أحمد صدقي الدجاني يمثل توجه الأخ أحمد الشقيري في المؤتمر، وشارك سمير عبد الواحد الذي شكل الفرع في بور سعيد حيث كان يدرس دراسات عليا.

٦ سفير فلسطين في الجزائر (١٩٨٣-٢٠٠٥)، ثم سفير في مصر (٢٠٠٥-٢٠٠٨) وهو أحد أبطال معركة الكرامة

٧ أول مدير للمخابرات في السلطة الوطنية الفلسطينية، وقد التحق بصفوف حركة التحرير الوطني الفلسطيني «فتح» في الستينات من القرن الماضي، وعمل في تنظيم القاهرة واتحاد الطلبة فيها، ومن ثم عمل في الأمن مساعداً للشهيد صلاح خلف أبو اياد)، وبعد اغتيال ابو اياد تولى مسؤولية الامن الموحد حتى دخول السلطة الوطنية الى ارض الوطني، وكان الهندي أحد الذين يشتبه بعلاقتهم بعملية ميونيخ التي نفذتها فرقة كوماندوس وأدت إلى مقتل ١٨ شخصا بينهم ١١ رياضياً اسرائيلياً في الخامس من سبتمبر/ايلول ١٩٧٢.وشغل في عام ١٩٧٢ مهام نائب رئيس جهاز الأمن الموحد الذي ساهم بتأسيسه مع ابو اياد عضو اللجنة المركزية للحركة. وكان رئيساً ومؤسساً لجهاز المخابرات العامة الفلسطينية منذ عام ١٩٩٤ وحتى عام ٢٠٠٥، وكان عضوا في المجلس الثوري منذ عام ١٩٧٨ وحتى المؤتمر العام السادس للحركة العام الماضي. كما كان عضوا في المجلس المركزي لمنظمة التحرير الفلسطينية، وعضوا في مجلس الأمن القومي الأعلى.

٨ حيث انعقد المؤتمر الخامس لاتحاد الطلبة في الجامعة الاردنية في عمان، في يوليو ١٩٦٩ وقد شارك فيه صخر بسيسو وكان أول مؤتمر تتولى فيه حركة فتح رئاسة الهيئة التنفيذية حيث نجح ٦ منهم أمين الهندي رئيساً، نبيل قليلات مسؤول الاعلام، محمد الدجاني العلاقات الخارجية، صخر بسيسو أمين الصندوق، يونس الشريف سكرتير العلاقات الداخلية و٣ من الجبهة الشعبية، حسين أبو النمل، خضر شحادة، صادق الشافعي.

٩ ١٩٧٠ يونيو خرج لدورة تدريبية عسكرية مع كوادر من طلبة فلسطين عددهم ١٠٠ من القاهرة بإتجاه معسكر حموريا في دمشق، وكان المشرف العام ابو علي اياد، حدثت أحداث ايلول الأسود فخرج مع رفاقه إلى درعا ثم دمشق مشياً على الاقدام.

١٠ حيث كان المقر مسجلًا رسمياً بإسم محمد عبد الرؤوف القدوة (ياسر عرفات) وهذا سبب مشكلة لدى الجهات الرسمية فبعدها تم نقل مقر الهيئة التنفيذية إلى شارع ٦ شارع سليمان الحلبي، وانتقل أيضاً بعدها مقر الفرع.

١١ واختلفوا في مؤتمر الشباب العربي على تمثيل رئاسته من الدول العربية، وعلى تشكيل الاتحاد، ولم ينجح مؤتمر التوحيد في القاهرة، وبعد عقد مؤتمري بغداد ١٩٧٨م، ودمشق تم اختيار رئيس سوري للاتحاد ، ونائب فلسطيني هو منذر الدجاني.

١٢ عضو اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية، أمين عام جبهة التحرير الفلسطينية.

١٣ وقد كلف الاحمد، عبد القادر ياسين بتوثيق تلك المرحلة وتاريخ الرابطة والاتحاد، والتي كان لرفعت النمر ونديم النحوي، وحامد أبو ستة وغيرهم (تم ذكرهم سابقاً)، دور فيها وفي دعمها، ومن الأسماء الناشطة والمؤسسة لها.

١٤ بعد خروجه من المعتقل وحاجته لإجراء عمليات جراحية ضرورية من أجل إنقاذ حياته، لجأ الى القاهرة وقام بعملتين هناك، بعدها فكر في اكمال دراسته من أجل الحصول على شهادة جامعية، فالتحق بكلية التربية، جامعة عين شمس بالقاهرة، وبدأ التفكير بضرورة أن يكون له دور فعال في العمل النقابي (الاتحاد العام لطلبة فلسطين)، وبدأ الاتصال بكل من كان يعرفهم من الطلبة والطالبات في كل من جامعة القاهرة وعين شمس والأزهر وحلوان، وتمكن من ايجاد قاعدة عريضة من المؤيدين وكان ذلك في الأعوام ١٩٧٥م حتى ١٩٧٨م.

١٥ مقر الهيئة التنفيذية الذي كان في ٦ شارع سليمان الحلبي، حيث كان سابقاً في ١٧ شارع جواد حسني، الطابق الثاني في شقة منفصلة عن شقة الفرع في الطابق الثالث.

١٦ (طبعا كانت كل المناطق في مصر تسمى فروع ولكن بعد تعديل النظام أصبح في كل دولة فرع واحد وتنبثق عنه وحدات، أي تصبح القاهرة وحدة، الاسكندرية وحدة، بغداد وحدة، عنابة وحدة قسنطينة وحدة الجزائر وحدة وهكذا)

١٧ وفي نفس الوقت كانت هناك مشاكل بين أبو عمار وأبو إياد على موضوع اتفاقية شتورة (١٩٧٦-١٩٧٧)

١٨ فرآها مرافقو زهير محسن فقالو له زينب وزعت البيان، وخلال تلاوة أبو عمار البيان السياسي أبلغه زهير محسن أنه في ظل إلقاء بيان الوحدة وزع الطلبة بياناً بإسم المنظمات الشعبية، فأمر أبو عمار بإحتجاز زينب ووضعوها في غرفة في جامعة الدول وجاء بعدها مستنكراً حدوث ذلك بعد الضوضاء في القاعة، وعند التحقيق على من وقع البيان، الوحيدة التي وقفت مدافعة عصام عبد الهادي وقالت أنهم وقعوا فعلاً على البيان كي تحمي الغنيمي، المهم أبو عمار أمر بإحتجازها في مكتب فتح بعد أن أبلغوه أنها نزلت في قائمة منشقة عن حركة فتح، وهي المرة الأولى التي تنزل في قائمة فتح فرع القاهرة، المهم أصر نبيل الطاهر الذهاب مع الغنيمي إلى مكتب فتح في (شارع عدلي)، وخلال ذلك تم تهريبهم من السيارة بعد أن فتح السائق الباب لهم.

١٩ ويذكر هنا أن ناصر القدوة ترأس احدى اللجان التحضيرية في القاهرة ايضاً قبل ذلك واشرف على انتخابات الهيئة الادارية في مصر

بتكليف من القيادة.

٢٠ وجاء ذلك بعد أزمة ترشيحه لانتخابات الهيئة الإدارية لفرع القاهرة السابقة، حيث قبل إجراء الانتخابات بيومين تم شطب اسمه ووضع بدلاً منه اسم شخص أخر من باب ترضية أحد المسؤولين، ورغم ذلك وقف الموقف المطلوب من الكادر الفتحاوي الملتزم، ومن ثم وضع كل إمكانياته من أجل إنجاح قائمة حركة فتح التي تم استبعاده منها، وفعلًا نجحت قائمة حركة فتح.

٢١ بعد ستة أيام من الندوة الكاسحة، أنهاها غالب هلسا، وركب السيارة مع المفكّر اليساري المصري، حلمي شعراوي، وذهبا سويًا إلى منزل الناقد الأدبي، الأستاذ الجامعي، د.عبد المنعم تليمة، وحين وصلا إلى بيته، قرب منتصف الليل، اتضح بأن سيارة لأمن الدولة تلاحقهما، ومنع من فيها غالب من دخول منزل تليمة، واقتادوه إلى مبنى أمن الدولة، في لاظوغلي، وفي مساء اليوم التالي، علم ياسين بالخبر، وكان خلالها في مقر الفرع (اتحاد الكتاب)، وعنده الأديب الفلسطيني، الروائي يحيى يخلف، رئيس اتحاد الكتاب والصحافيين، فرع سوريا، فاتصل هاتفيًا بأبي أحمد. وسأله عما إذا كان صحيحًا إعتقال غالب، فرد عليه بالإيجاب، وأردف أنه اعتُقل بسبب اتفاقه مع «حزب العمال الشيوعي المصري» على عقد هذه الندوة. فرد عليه ياسين أنه صاحب فكرة الندوة، وأنه قطعاً لا أعرف أحدًا من أعضاء هذا الحزب، وإذا كان لا يصدِّق ذلك فليعتقل ياسين بدل منه، وأوضح له كيف أخذ غالب على عاتقه إدارة الندوة، وأقصاه. وأنهى ياسين كلامه بوعد قاطع بأن لا يقتربوا من الآن فصاعدًا من الإمبريالية الأميركية، فرد العقيد كامل، منزعجاً: «الندوة كلها انصبَّت على النظام في مصر»، وحين طالب ياسين بضرورة الإفراج عن غالب، فاجأه بأن قرار وزير الداخلية قد صدر بترحيل غالب، ومعه شُبان فلسطينيون آخرون، وهم: د.عبد الرحمن البرقاوي (عضو لجنة إقليم «فتح» في مصر، عضو لجنة فرع اتحاد الأطباء الفلسطينيين)، وهاني المصري، الطالب في السنة النهائية بجامعة عين شمس، ووجيه مطر، رئيس اللجنة التحضيرية في اتحاد الطلبة الفلسطينيين (فرع القاهرة)، وأحمد عبد الرازق، عضو الهيئة التنفيذية لاتحاد الطلبة الفلسطينيين. وبعد أن أُفرج عن الأخير، تم ترحيل الثلاثة إلى لبنان، عن طريق البحر، من ميناء بورسعيد، وبعد نحو ثلاثة أيام، تم ترحيل غالب إلى العراق.

٢٢ فيما الغنيمي غادرت قبل ان تحدث الانتخابات إلى غزة ١٩٧٤-١٩٧٥ ولم تعرف ماذا حدث في الفرع، وعلام الأحمد كان في كلية الحقوق وعند خروجها من السجن عادت الى القاهرة خلال ١٩٧٦.

٢٣ وكان من ضباط الامن المصري الذي عرفوا انذاك كامل داود، ومحمود العطار، والجوهري، وكان علاقتهم بالطلبة جيدة، ويضاف هنا أن كثيراً من ضباط الامن المصري كانوا متعاطفين مع الفلسطينيين، ولكن هناك قرارات سيادية يتعاملون معها وفق الاوامر، وجزء منهم كانوا اصدقاء لهؤلاء الطلبة.

٢٤ وكان يستغرب هاني وصول بعض الوجبات الجيدة، اتضح فيما بعد أنها من السفارة الأردنية التي كانت تتابع حالات من يحملون الجنسية أو الجواز الأردني.

٢٥ وكانت الغنيمي في بيروت حيث وصلتها رسالة أن لا تأتي للقاهرة واجلت امتحاناتها بدل صيف ١٩٧٨ ونزلت في ١٩٧٩ بعد أن هدأت الأمور بدون فيزا، وبعد الامتحانات ذهبت لتصدق شهادات عبد الرحمن البرقاوي (الذي أصبح زوجها فيما بعد) وقد اخذت الشهادات من جامعة عين شمس للسفارةالاردنية، فصادفها الجوهري (من رجال الأمن المصري) فأدركت انها ستسائل فسافرت فوراً وبعد سفرها فعلًا سألوا عنها كيف دخلت وكيف خرجت، وهذا يدل ان ملفات الطلبة لم تغلق لدى الأمن المصري.

٢٦ كان آخر مؤتمر تحضره الغنيمي، (وقد مثلت رئيس الاتحاد عدة مرات بترشيح من صخر بسيسو في مؤتمرات عديدة، حتى مؤتمر المرأة العالمي في براغ كانت الغنيمي هي ممثلة عن اتحاد الطلبة رغم انها نشطت في الاتحاد حتى انتهت العلاقة بالاتحاد عام ١٩٧٨ في المؤتمر الثامن، حيث كانت عضو مؤتمر وكان هناك عدد من الانتخابات في اوروبا ولندن)

٢٧ ولد في بلدة عرابة، جنين عام ١٩٤٥، درس في مدارس عرابة وجنين ونابلس وأنهى الثانوية العامة في العام ١٩٦٤ والتحق بجامعة الجزائر في العام ١٩٦٤ ودرس في كلية التجارة والإدارة وبقي فيها حتى حرب حزيران/يونيو ١٩٦٧، عضوا في قيادة حركة القوميين العرب عام ١٩٦٢، في منطقة جنين ومسؤولاً عن منظمتها الطلابية، وتولى مسؤولية الحركة في الجزائر ما بين ١٩٦٤-١٩٦٧، ساهم في تأسيس الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين في العام ١٩٦٧، ثم ساهم في تأسيس الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين عام ١٩٦٩وتولى أمانة سرها. وفي العام ١٩٩٠ ساهم في تأسيس الاتحاد الديمقراطي الفلسطيني «فدا»، وتولى عدة مسؤوليات قيادية في مكتبه السياسي ومن ثم تم اختياره أمينا عاماً لـ «فدا»، عضو في المجلس الوطني الفلسطيني منذ عام ١٩٦٩، انتخب عضواً في اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية ممثلاً للجبهة الديمقراطية عام ١٩٧١، وفي أيار عام ٢٠٠٣ تم اختياره مجدداً عضواً في اللجنة التنفيذية كممثل لـ «فدا» وهو حاليا رئيس الدائرة العسكرية والأمنية في منظمة التحرير الفلسطينية

لجنة الدفاع عن الثقافة القومية

أسماء الغرباوي*

ما يحدث ، الآن، على الساحة العربية من مستجدات، ومحاولات لتبرير، " التطبيع «،وتمريره مع الكيان الصهيوني، ليس وليد اللحظة ، وإنما هو نتاج تراكم ،و استمرار ،يؤكد على أن "التطبيع الثقافي "هو أكثر أنواع "التطبيع" خطورة ، فهو الوحيد القادر على العبث بالفكر العربي، والثقافة الوطنية ، وترويج المفاهيم المغلوطة ، وتزييف حتى المسلمات التاريخية ، حيث يتلاعب "التطبيع الثقافي" بالعقل ، والوجدان العربيين ، ومن ثم يدعو إلى تقبُّل العدو الصهيوني ، و يعمل على ضرب فكرة المقاومة، والوطنية الفلسطينية، والقومية العربية ، والدين الإسلامي ، في آن . وبالطبع ، أدرك الكيان الصهيوني مدى تأثير "التطبيع الثقافي" ، فتبنّتْه المخططات الصهيونية ،وسارت على نهجه ، وخططت له ؛إذ « مع منتصف هذا القرن [القرن العشرين]، بدأت الاستراتيجية الغربية (الأوروبية - الأميركية، على وجه الخصوص) تُخطط لعملية تحكّم واسعة النطاق بالعقل السياسي، والثقافي العربي ،مستخدمة خبرتها الطويلة في استعمار العالم ،من خلال أحدث وسائل السيطرة التكنولوجية،والسياسية ،والثقافية. وأتى ما يسمى بالبحوث الميدانية المشتركة بين علماء، ومؤسسات البحث العلمي الغربية، ذات الصلة الوطيدة بأجهزة المخابرات ،وصناعة القرار السياسي الغربي ، والإسرائيلي،وبين بعض العلماء العرب، ومؤسسات البحث، السياسية والاجتماعية، أتت هذه (الحالة) لتمثل واحدة من أنجح وسائل الاستراتيجية الغربية للتحكم ،والسيطرة، والتغلغل في العقل العربي ، داخل كل قُطر على حدة، ووِفق خطة مبرمجة ،ومتعددة الأدوار ،والأدوات "(١).

على ذلك فإن التنبّه، والوعي لكافة أشكال الاختراق الصهيوني الثقافي للعقل العربي ، ومحاصرة كل

* باحثة فلسطينية.

أشكال «التطبيع الثقافي « ،و المقاطعة العربية لمؤسسات البحث الغربية التي تتعامل مع الصهاينة، تحت ستار خفي ، « أي أن المقولات الغربية، التي تُصدَّر إلينا من قبيل (العِلم للعِلم)،و(العِلم للإنسان) ، مقولات لا معنى لها ،وليست سوى غطاًء كثيفًا يخفي تحته العديد من الأهداف السياسية ،والاقتصادية ،وتتضح هذه الحقيقة أكثر، إذا ما علمنا أن جملة ما أنفقته -مثلاً- وزارة الدفاع الأميركية على البحوث العلمية المختلفة ،في عام واحد، بلغ ١٧ بليون دولار، أي حوالي ١٪ من ميزانية الدفاع الكلية، بل إن مخصصات البحث العلمي للبنتاجون ارتفعت بمقدار ٢٪، خلال عام واحد ،وعندما نعلم أن وكالة المخابرات الأميركية كانت خلف إنشاء ،واستمرار العديد من الجامعات، في دول العالم الثالث، مثل (كلية نكومبي الدولية في زامبيا، وبعض جامعات إكوادور، وأراجواي، والمكسيك ،والجامعة الأميركية بأنقرة ،وبيروت ،والقاهرة «(٢).

لكن لا يخفى على أحد الموقف الرسمي لبعض الدول العربية، في سبيل تبريرها ل"التطبيع" مع الكيان الصهيوني ، والتعاطي معه ،بل والتودد ،والتغزل فيه تحت ،مسمى "التطبيع السينمائي» ،أو "التطبيع الثقافي» . « وكان الصهاينة واضحين في أهدافهم ،ومراميهم ،وفي طرح مفاهيمهم المغلوطة ،علنًا، فبدلاً من صورة إسرائيل المعتدية، صوّر بيغين ، في خطابه بالكنيست، في العشرين من نوفمبر / تشرين الثاني ١٩٧٧، إسرائيل مُعتدى عليها من العرب !و الصهاينة مُحرِرين لأرض إسرائيل التاريخية ،قالِباً كل الحقائق التاريخية، بقوله : (كنا لا نؤمن بالقوة ، القوة وُجِّهت إلينا ، ولم نتوقع أن نكون مُهدَدَين بالقوة ،وهدْم استقلالنا ...نحن ندعو إلى تعاون اقتصادي ،لتطوير بلادنا ،والشرق الأوسط ،وإذا قام السلام في الشرق الأوسط ،فإن بإمكان العبقرية اليهودية ،والمال العربي، أن يقلبوا هذه المنطقة إلى جنة ...لِتُفتَح حدودنا ،وتُفتَح جميع الحدود الأخرى ،أمام الجميع ،وكما أشرْت إننا نريد من الجنوب ،والشمال ،والشرق نفس الوضع من التعاون .(٣).

لعلنا ، بالفعل انتقلنا من مرحلة "كامب ديفيد" المصرية إلى "كامب ديفيد» العربية .فمنذ أن أقدمت مصر الرسمية ،في ١٩٧٩،على الاعتراف بالدولة الصهيونية ...رفض المثقفون المصريون -أفراداً، ومنظمات – منذ توقيع اتفاقيات» كامب ديفيد» ،أي شكل من أشكال التعامل مع إسرائيل ، سواء على الأراضي المحتلة ،أو داخل مصر (٤).

بيد أن «سياسة التنازلات أعطت إسرائيل الفرصة لتُحوِّل ما تأخذه إلى حقائق سياسية ،تزيد من تصلّبُها ،وتمنحها القدرة على تحويل ذلك ،مجدداً،إلى عوامل قوة إضافية ،لتستخدمها، في الفترات

اللاحقة من الصراع «(٥). وانطلاقاً من إدراك خطورة «التطبيع الثقافي» ، وما يرمي إليه ، ونتيجة للتطورات السريعة التي حدثت، ولاتزال ، في مشاريع التسوية السياسية، في الصراع العربي- الصهيوني ، علماً بأن المطلوب- إمبريالياً،و صهيونياً- ليس مجرد التصالح مع إسرائيل، بل الاندماج معها، في وحدة إقليمية ،تحت الهيمنة الأميركية)٦).

هنا يكمن دور المُثقف، ومسؤوليته ، في توضيح القضية، ورفع وعي المواطن العربي . سواء كان عملاً فردياً،أو من خلال منظمة ،أو لجنة مشتركة(٧).

بيد أن مقاومة «التطبيع «مع العدو الصهيوني، في زمن يُروِّج لما يُسمى «أنصار السلام «، أصبحت، الآن، أكثر إلحاحاً، وصعوبة، في الوقت نفسه ، فمن الضروري التصدي ل "التطبيع الثقافي"، وإلقاء الضوء، على اللجان التي أخذت على عاتقها هذا الواجب .حيث أخذت «لجنة الدفاع عن الثقافة القومية « على عاتقها التصدي للتطبيع مع العدو الصهيوني في المجال الثقافي، ،تحديداً،وإن لم يمنعها هذا من أن تمد أنشطتها إلى مجالات «التطبيع» الأخرى ،ولكن بدرجة أقل (٨).

لذا، يمكننا أن نتخذ من تجربة « لجنة الدفاع عن الثقافة القومية «، في مصر ،نموذجاً مُلهماً ،لإعادة التجربة في شتى الأقطار العربية ،و حتى تتعرف الأجيال الجديدة على نضال المثقفين الوطنيين ،في مصر ،وحلقة من حلقات النضال الوطني المصري ، والاستفادة من نقاط القوة، والضعف، وجوانب النجاح ،و الإخفاق.

فبعد معاهدة « كامب ديفيد»(سبتمبر/ أيلول ١٩٧٨)، و رداً على اعتراف الحكم المصري بالدولة الصهيونية ، وإقامة علاقات معها، وفقاً للمعاهدة المصرية- الإسرائيلية(مارس/آذار ١٩٧٩)(٩) بعد أن وقّع كل من السادات ،وبيغين، كطرفين،وكارتر كشاهد- «وهذا تخريج غاية في الغرابة من، الناحية القانونية، لإشراك واشنطن، سياسيًا، في وثيقتيْن قانونيتيْن"(١٠)- اجتمع عدد غفير من المثقفين المصريين ،في مقر « حزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي « ، في وسط القاهرة ، في يناير/ كانون الثاني ١٩٧٩، بدعوة من أمينة الثقافة في «حزب التجمع « ، الناقدة الأدبية المرموقة ،فريدة النقاش ، وخرجوا بتكوين لجنة، تعمل مع غيرها من القوى الوطنية ،على التصدي للأخطار الجسيمة، التي مثَّلتها تلك الخطوة ،وخاصة في المجال الثقافي .وسرعان ما تمخَّض عن هذا الاجتماع تأسيس « لجنة الدفاع عن الثقافة القومية « ، أبرز التنظيمات الثقافية التي ظهرت في مصر، في سبعينات القرن الماضي ، حيث أُنشئت اللجنة ، في الثاني من أبريل / نيسان عام ١٩٧٩، برئاسة الأكاديمية، المناضلة ، د. لطيفة الزيات، والمفكر

حلمي شعرواي أميناً لسر اللجنة . وما ميّز اللجنة ،هو هويتها المناضلة، حيث أخذت على عاتقها التصدي ل» التطبيع» مع العدو الصهيوني ،وخاصة في المجال الثقافي ،عبر الندوات ،والمؤتمرات ،والوقفات الاحتجاجية ، وأشكال النشر ،بما فيها الكتاب، والبيانات، ومجلتها غير الدورية « المواجهة»، التي تولت الأكاديمية، والأستاذة الجامعية د. رضوى عاشور رئاسة تحريرها (١١).

أولاً: النشأة

متى، ولماذا جاءت فكرة تكوين « لجنة الدفاع عن الثقافة القومية» ؟

يقول حلمي شعراوي ، أمين سر اللجنة : « نشأت فكرة (اللجنة)، عقب إعلان اتفاقيات «كامب ديفيد» ،سبتمبر/ أيلول ١٩٧٨،التي عقدها أنور السادات مع الكيان الصهيوني، بواسطة الأميركيين ، ولذا، تم التوقيع في منتجع الرئيس الأميركي، جيمي كارتر ، بالولايات المتحدة الأميركية، (كامب ديفيد)، فانتشرت الدعوة في داخل حزب " التجمع الوطني التقدمي الوحدوي " بعقد لقاء لعدد كبير من المثقفين ،لإعلان الاعتراض على توقيع هذه الاتفاقيات، وخاصة بعد زيارة السادات للكيان الصهيوني. حيث صدرت فكرة « اللجنة « بعد دعوة أمينة الثقافة بحزب التجمع ، فريدة النقاش، لاجتماع عدد من مُمثّلي أحزاب اليسار، والذين دعموا فكرة مؤتمر عام للمثقفين، في مقر حزب « التجمع»، في يناير/كانون الثاني ١٩٧٩، وقرروا اختيار عدد من الحاضرين في لجنة، تحمل اسم « الثقافة القومية» ، بهدف مقاومة أي شكل ل»التطبيع» مع العدو الصهيوني (١٢).

أشار شعراوي إلى اعتراض بعض أعضاء اللجنة ، كصلاح عيسى ، على مسمى «القومية « في الثقافة ،أكد ذلك عندما اضطرته الظروف للتواجد في تونس ، واكتشف وجود اختلاف في الثقافات العربية ،يقول شعراوي : " كما قدرْت اعتراض (صلاح عيسى) على مسمى (القومية) في الثقافة ، التي لا يمكن أن تُعبِّر عن كل مناطق ، وتعبيرات الشعوب العربية ، ولذا أسمى [عيسى] مجلته (الثقافة الوطنية) ،تقديراً منه للتنوُّع الثقافي، على مستوى الشعوب العربية، واحتراماً لمبدأ شائع عن (التنوُّع والوحدة)"(١٣).

عن المؤسسين الرئيسيين:

تقول فريدة النقاش: « تم تشكيل (اللجنة)، في الثاني من إبريل / نيسان ١٩٧٩، من عدد كبير

من المثقفين، بلغ ٤٥عضواً أساسياً ، شاركوا في عملية التأسيس ، أذكر منهم ممن تسعفني الذاكرة بأسمائهم ،مثل : الأساتذة د. لطيفة الزيات – حلمي شعراوي – د.أمينة رشيد – إنجى أفلاطون- د. رضوى عاشور- سليمان فياض – د. سيد بحراوي – سمير فريد – صلاح عيسى – د. عبد العظيم أنيس – د. عبد المحسن طه بدر»(١٤).

بينما بلغ عدد المشاركين في المؤتمر التأسيسي نحو المائة مثقف.

من الملاحظ وفرة حضور التيار اليساري ،والمتعاطفين معه ، مقارنة بمختلف التيارات الأخرى.

المنطلق الفكري «للجنة « ، وخطة العمل

أحد أبرز أهداف اللجنة الأساسية " مواجهة السيل الإعلامي المزيِّف لحقائق التاريخ ،الذي تعرضت له مصر، وما ارتبط به ،من مناخ يختلف، اختلافاً، لتمرير تطبيع العلاقات بين مصر ،وإسرائيل، على الأصعدة الاقتصادية، والسياسية، والثقافية".(١٥) كان على اللجنة أن تعمل جاهدة من أجل ترسيخ مناخ مناهض يرتكز إلى المنطلقات الوطنية، والكفاحية للشعب المصري ويجلو الذاكرة الجماعية بتأكيد مسلماتهاالتاريخية"(١٦).

جاء البيان التأسيسي للجنة ،ليؤكد على الهوية المصرية، وضرورة الدفاع عنها، ضد محاولات الاستعمار، بأشكاله المختلفة، وتحت عنوان نداء: دفاعاً عن الثقافة القومية جاء في البيان :

"منذ الثورة العرابية وإلى اليوم، قامت كل ثقافة مصر الحديثة على منطلقات فكرية وطنية ،وتحررية، معادية للاستعمار الأجنبي ،والتبعية الاقتصادية، وعلى هذا، الأساس، انطلق ،وارتكز كل ما أبدعه العقل المصري، والوجدان المصري، واليد المصرية ،في مجالات العلوم الإنسانية ،والتطبيقية ،والفنون ،والآداب ،والخبرة ،والتصنيع، والتقدم الفني. ومن هذا الأساس، استمدت الثقافة المصرية العربية مغزاها ،ومعناها، وهويتها، واستلهمت ،وألهمت الشخصية المصرية نفس الهوية " (١٧).

أشار البيان إلى التناقض بين منطلقات الثقافة الوطنية في مصر ،والثقافة الاستعمارية الصهيونية، ونبَّه للمخاطر العديدة، التي تتعرض لها البلاد ،من جراء اتفاقيات كامب ديفيد، و"منها القطيعة المفتعلة بين الشعب المصري، وباقي الشعوب العربية ،وطمس تاريخ مصر ،وتزييف الحقائق ،إلى حد محاولة تغيير بعض المناهج التعليمية ،بما يتفق والسياسات الجديدة"(١٨). وحذَّرت اللجنة من

كافة أشكال التبادل العلمي ،والثقافي ،والتقني ،وما يصاحبه من الترويج للتفوُّق الإسرائيلي "(١٩) . أوصت اللجنة ،في بيانها التأسيسي، بضرورة حماية التراث الكفاحي لشعب مصر، دفاعاً عن ثقافته الوطنية ،وذلك بالعمل على كشف المخططات الاستعمارية، والصهيونية، ،والتصدي لها، وإحباطها، وبرفض كافة أشكال التبعية العلمية ،والتقنية، وضرورة مواجهة محاولات تشويه تاريخ مصر الحديث، وتأكيد (الوحدة الوطنية) بين عنصريْ الأمة ، و" المقاطعة الشاملة ،لكل أشكال التبادل الثقافي ،والعلمي ،والتربوي مع العدو الصهيوني، وضرورة إلغاء القوانين المقيِّدة للحريات الفكرية، والدعوة لتشكيل هيئة للدفاع عن الثقافة الوطنية "(٢٠).

أكد البيان على أن " سلاح الثقافة سلاح لنا ،وسلاح علينا، لنا الثقافة الوطنية، التي تستنهض من الماضي العفي فيه ،وتنتفع من مخزون الخبرات ،والقيم الشعبية، تشحذ الذاكرة ،وتضئ العقول ،وتُبدع ،وتُضيف من أجل إطلاق الطاقات على طريق التحرر الوطني، والاجتماعي . وثقافة أخرى علينا، مسلَّطة كحد السيف، زائفة، أو مفسِدة، أو معرقلة للنهوض ،والتحرر، والتشتيت ،ما يُرسِّخ تبعيتنا الاقتصادية ،والسياسية ،أو تستنهض من الماضي أشباحاً متواترة ، تقبض أنفاسنا ،وتوزِّع أبناء الوطن الواحد، والمصلحة الواحدة، تشغلهم بالفتن الطائفية، وتُبدِّد طاقاتهم وتُهدر إنجازهم التاريخي(٢١). شدد البيان على أن "الثقافة ليست حجراً كريماً، في المتحف الوطني، أبدية الصفات، ثابتة الملامح ،بل هي ،كالتاريخ نفسه ،مركَّبة متغيِّرة ،متحركة ـ هي ثقافة واحدة، في المجتمعات اللاطبقية ،تنقسم ،بعد ذلك في المجتمعات الطبقية ،حيث تصبح ثقافتيْن، إحداهما رسمية، مدونة ،تُكرِّس ،غالباً ،سلطة الفئات السائدة ،والأخرى شعبية ،ومهمَّشة، وإن بقيت، رغم ذلك قائمة ،وعفيه، تخلق مواقعها الاجتماعية، عبر الحِكم ،والأمثال ،والحكايات ،والأغاني،والممارسات ،والطقوس " (٢٢).

بينما عرّفت اللجنة «الثقافة» ،بمعناها الواسع ، بأنها « تعني أسلوب حياة شعب من الشعوب، في مرحلة من مراحل تطوره التاريخي ، واتساق قيمه .وقد ناقشت (لجنة الدفاع عن الثقافة القومية)، هذه القضية، من منطلق فهمها لطبيعة تكوين الثقافة الوطنية ،في مصر ،تاريخه ،ومستقبِلاً ثقافة جامعة متعددة الآفاق، والأبعاد ،تندمج ،على مدى آلاف السنين، لتجمع بين عناصرها ،في النهاية، مواطنيها ،المسلمين والمسيحيين، جماعة ثقافية وطنية واحدة، في نسيج اجتماعي، يثبت صموده، ووحدته ،على مر القرون . وفي ظل هذا المفهوم، اعتبرت اللجنة الارتباط المصري- الأميركي- الإسرائيلي ارتباطاً يستهدف وقف التنمية المستقلة ، في مصر ، ويشكل، بالتالي ،تهديداً للثقافة المصرية «(٢٣).

لذلك ،اعتبرت اللجنة أن التصدي لهذا الارتباط المصري- الامبريالي- الصهيوني جزءًا لا يتجزأ من حركة التحرر الوطني العربية، ومن هذا المنطلق، تبنَّت اللجنة كافة قضايا التحرر الوطني، في المنطقة ، وفي مقدمتها القضية الفلسطينية.

فضلاً عن كشف اللجنة للأدوار المشبوهة، التي تقوم بها بعض المراكز ،والمؤسسات الثقافية الأجنبية، وحَذَّرت اللجنة المثقفين المصريين من الدخول، كطرف، في البحوث المشتركة، التي تعمل لخدمة المصالح الاستعمارية الأميركية، حيث عقد (مركز ابن خلدون) ندوة، حول حقوق الأقليات في الوطن العربي ،في منتصف مايو/أيار ١٩٩٤ ، كما أعلن حضور عدد من الشخصيات السياسية، الممثلة لبعض هذه الأقليات ،» وقد استنفر وضع مسألة الأقباط في مصر، كإحدى مشاكل الأقليات ،في العالم العربي، والشرق الأوسط، غضب كثير من الوطنيين المصريين أقباطاً، ومسلمين، محتجين على وضع المسألة بهذا الشكل المضلِّل ،أو وضع أسماء البعض قائمة الحضور، دون علمهم، لاستغلال مكانتهم، وتأكيد خطورة المسألة «(٢٤).

ردت اللجنة على هذا المؤتمر ببيان لها ، حَذَّرت فيه من أن تعالج إحدى المؤسسات البحثية ، في مصر ،بالتعاون مع هيئات التمويل ، و مصادر الدعم الأجنبية، قضايا الوطن العربي، بكل هذا القدر من الخلط ،وفتح الأبواب لصراعات خطيرة(٢٥). كما استنكرت اللجنة استخدام مثل هذه القضايا، ضد وحدة شعوبنا العربية ،مؤكِّدة على وحدة النسيج الاجتماعي، في مصر .«كما ناشدت مثقفي مصر ،والوطن العربي، أن يقاطعوا مثل هذه الندوات، وأن يفضحوا أهدافها ،والهيئات التي تقف وراءها» (٢٦).

بذلك، اتسم عمل اللجنة بالإيجابية، وإن شابه خلل في الجانب التنظيمي، كما تأرجح العمل في اللجنة ما بين الفكري، والنضالي، وما بين الثقافي ،و السياسي .وقد كان اختلاط السياسي، والثقافي، والنضالي والفكري، همّاً من هموم اللجنة ، وجاء كل مرة تحت وطأة الأحداث . ولشعور اللجنة بضعف الأحزاب السياسية، وإلحاح مواقف ،هي من صميم واجبات قوى أخرى، فاعلة في الساحة، وبينما وجدت اللجنة نفسها في هذه المواقف بؤرة لاهتمام الكثيرين من العناصر الوطنية، الشابة، والفاعلة، بدت اللجنة للبعض وكأنها تغامر بالعمل الجبهوي الواسع، وبالتخلي، ولو مؤقتًا ،عن دورها الثقافي، والفكري المميَّز، والمتميِّز، أو كأنها تُحاصر نفسها في بعض الأشكال النضالية ،التي تكسب الصفة المؤقتة، وتفتقر إلى التصميم على الجذريَ بعيد المدى(٢٧) .

الهوامش

١. د.رفعت سيد أحمد ،التطبيع والمطبّعون -العلاقات المصرية الإسرائيلية (١٩٧٩-٢٠١١)،المجلد الأول ،التطبيع السياسي والاقتصادي، القاهرة ،مركز يافا للدراسات والأبحاث ،٢٠١٥ ،ص٢٣-٢٤.

٢. د.رفعت سيد أحمد ، اختراق العقل المصري :الجامعة الأميركية والبحوث المشتركة في مصر ، ط١،القاهرة ،مركز يافا، ١٩٨٥/١٠،ص.٥

٣. د.رفعت سيد أحمد ،التطبيع والمطبّعون -العلاقات المصرية الإسرائيلية (١٩٧٩-٢٠١١)،المجلد الثاني ،التطبيع الإعلامي والثقافي ،القاهرة ،مركز يافا للدراسات والأبحاث ،٢٠١٥،ص١٥٠-١٥٢.

٤. أحمد بهاء الدين شعبان ، من ثقافة المقاطعة إلى ثقافة المقاومة ،ط١، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠١٤،ص٣٧.

٥. وثائق اتفاقيات كامب ديفيد ،شؤون فلسطينية(بيروت)،نوفمبر/تشرين الثاني ،١٩٧٨،ص٢١٩-٢٢٩.

٦. قاسم عبده قاسم ، البعث الثقافي للصراع العربي -الاسرائيلي ،الوحدة (الرباط)العدد٥٦،السنة الخامسة،١٩٨٩،ص٣٢

٧. نبيل محمود عبد الغفار، السياسة الأميركية تجاه الصراع العربي الإسرائيلي، الهيئة العامة للكتاب ،القاهرة ،١٩٨٢،ص٥٣-٥٧.

٨. مقابلة مع المؤرخ الفلسطيني ،عبد القادر ياسين في منزله بالقاهرة ،بتاريخ ٢٠٢١/٥/١٥.

٩. حليم أحمد ، كتاب محمد حسنين هيكل : حديث المبادرة (مراجعة)، شؤون فلسطينية (بيروت)،العدد ٨٦، يناير/ كانون الثاني ،١٩٧٩،ص ١٥٦-١٦٢.

١٠. الموسوعة الفلسطينية ، المجلد الثالث ،ص٦٢٥-٦٣٢.

١١. د. أنيسة الأمين ، الثقافة والمقاومة في ثقافة المقاومة ومواجهة الصهيونية ، لجنة الدفاع عن الثقافة القومية ،المجلس الثقافي اللبناني ،القاهرة ،١٩٨٩/١١،ص٤٣-٤٤.

١٢. مقابلة مع المفكر ،أمين «لجنة الدفاع عن الثقافة القومية» ،حلمي شعراوي، بتاريخ ٢٠٢١/٤/٢٨.

١٣. المرجع نفسه.

١٤. مقابلة مع الأستاذة فريدة النقاش بتاريخ ٢٠٢١/٥/١.

١٥. السياسة الدولية (القاهرة) ،العدد٥٦، أبريل/نيسان، ١٩٧٩.

١٦. د. أمينة رشيد ،د. رضوى عاشور ، د.سيد البحراوي ، من مقاومة التطبيع إلى مواجهة الهيمنة-دراسات ووثائق ١٩٧٩-١٩٩٤،مركز البحوث العربية للدراسات والتوثيق والنشر ،القاهرة،١٩٨٠ ،ص١٥-١٦.

١٧. د.إبراهيم علوش ، المعركة على جبهة المصطلحات في الصراع العربي- الصهيوني ، دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع ،عمان،١٩٨٢،ص٢٣-٢٤.

١٨. د. لطفي عبد العظيم ،الطريق المفروش بالنوايا الطيبة ،الأهرام الاقتصادي ،(القاهرة)، العدد ٦٣٩، ١٩٨١/٤/١٣.

١٩. عرفه عبده علي ، تهويد عقل مصر ،ط١،القاهرة ، سينا للنشر، ١٩٨٩،ص١٩-٢٠.

٢٠. عزيز شكري ،المدخل في القانون الدولي العام في وقت السلم ، دمشق ، ١٩٧٣،ص٦٥.

٢١. وثائق وبيانات «لجنة الدفاع عن الثقافة القومية»،ص٣٢.

٢٢. د. الأمين ،مصدر سبق ذكره،ص٤٦-٤٨.

٢٣. وثائق وبيانات "لجنة الدفاع عن الثقافة القومية "،مصدر سبق ذكره ،ص٨٣-٨٥.

٢٤. عبد العظيم مناف ،وآخرون، عام على التطبيع ،كتاب الموقف العربي، دار ماجد للطباعة ، القاهرة ،١٩٨١،ص١٤٢.

٢٥. إحسان عبد القدوس ، بدأت المعارك بيننا وبينهم ،الأهرام(القاهرة) ،١٩٨١/٣/٢.

٢٦. وثائق وبيانات "لجنة الدفاع عن الثقافة القومية "،مصدر سبق ذكره،ص٨٠.

٢٧. د.إبراهيم البحراوي ، الرؤية الإسرائيلية في ندوة الصراع والسلام، بالإسكندرية، الأخبار(القاهرة) ، ١٨ /١٩٨٢/٥.

المثقفون يبشرون بالثورة

عبد القادر ياسين*

لاغنى عن الكلمة، في كل الأحوال؛ في التوعية، والتعبئة، وعند ترجمة الرؤية إلى استراتيجية، وتفكيكها إلى تكتيكات. وحتى حين يلعلع الرصاص،فإن الكلمة هي التي تحدد الاتجاه،والهدف، والطريق.

الإبداع

قبل ظهور الأشكال الأدبية الحديثة(الرواية،والمسرحية،والقصة القصيرة)، سادت في فلسطين القصائد الملحمية، وقصص الحب،والحواديت الشعبية.

القصة والرواية

منذ ثلاثينات القرن العشرين، أخذت القصة القصيرة، والرواية تُطلان برأسيْهما في فلسطين. وركزتا على مخاطر الانتداب البريطاني،والمشروع الصهيوني، وإن نأتا بنفسيْهما عن وصف الأحوال الاجتماعية للبلاد، مثل رواية «الملّاك والسمسار « لمحمد عزة دروَزة(١٩٣٤)، و» مذكرات دجاجة «، لإسحاق موسى الحسيني (١٩٤٣). ومن أول ما ظهر مجموعة قصص قصيرة للأديب اليساري المعروف، نجاتي صدقي « الأخوات الحزينات « (١٩٤٧) (١).وإذا كان صدقي عالج، في معظم قصص هذه المجموعة، موضوعات اجتماعية، فأغلب الظن بسبب ثقافته الماركسية.

لقد بدأت الرواية الفلسطينية مع خليل بيدس، الذي اطلع،اطلاعًا حسنًا، على الثقافة الغربية،

* كاتب وباحث فلسطيني.

وترجم عددًا من الروايات الروسية، منها « ابن القبطان «، لبوشكين (١٨٩٨)، و» أهوال الاستبداد «، لتولستوي(١٩٠٩)، قبل أن يُقدِّم بيدس روايته الأولى « الوريث « (١٩٢٠)، المعتمِدة على سرد الحوداث،سردًا وصفيًا تقريريًا مباشرًا.وإن أكدت مراجع أخرى بأن الرواية الفلسطينية ظهرت في القرن التاسع عشر، مع رواية «أم الحكيم «، لأحمد رفيق التميمي، فضلاً عن روايات أُخرى، لميخائيل جرجس عورا. وبعد بيدس، جاء يوحنا دكرت، برواية « ظُلم الوالديْن «،الاجتماعية الأخلاقية؛ قبل أن يضع كاتب حمل اسمًا رمزيًا (ي)، رواية « الضحية وابتسامة الهوى وضحية الحمام «؛ وبعده جاء اسكندر الخوري البيتجالي برواية «الحياة بعد الموت»، التي تناولت أحداثًا من الحرب العالمية الأولى (٢(.

إذا كان الروائيون قد واجهتهم مصاعب خاصة بالشكل الروائي، فلأنهم تبنوا شكلاً أدبيًا منقولاً عن الغرب، أما الشعراء، فلم يواجهوا هذه المشكلة، لاستنادهم إلى تراث عريق من الشعر العربي الكلاسيكي. في القصة أسهم كلٌ من: محمد عزة دروَزة؛ وإسحاق موسى الحسيني؛ وعارف العزوني؛ ومحمود سيف الإيراني. وفي الرواية، جاء خليل بيدس رائدًا.

في الشِعر

لقد كان الشعراء، أمثال إبراهيم طوقان، وعبد الرحيم محمود، ومطلق عبد الخالق، وعبد الكريم الكرمي (أبوسلمى)، وبرهان الدين العبوشي،ومحمد حسن علاء الدين، حُداة الحركة الوطنية، في نهوضها، بعد أن كانوا الغزال،الذي بشَّر بذاك النهوض، مع خفوُت تلك الحركة الوطنية، وتراجعها.

هذا الشاعر محمد حسن علاء الدين،ينشر قصيدته «شبح الرحيل «، في يومية «الدفاع « اليافية، متأسيًا من سلبية الحركة الوطنية، أواسط الثلاثينات :

شبح الرحيل خسئت من تمثال يُزجي إلى قلبي رؤى الأهوال
شبح الرحيل أما تكف عن الأذى شبح الرحيل أماتني تغشى لي
ما الذنب ذنبك يا خيال وإنما هوذنب شعب موغل في القال
كم ذا أدار من الكلام سلافه وارتد منصاعًا لدى الأفعال
إن لم تثر يا شعب ثورة زائدفلأنت، حقًا جلمد بحبال

أكمل إبراهيم طوقان :

ضاق البريد وما تغيَّر حال الذل بين سطورنا أشكال

خسراننا الأرواح والأموال وكرامة يا حسرتا أسمال

أوتبصرون وتسألون ماذا يكون ؟ إن الخداع له فنون مثل الجنون

هيهات، فالنفس الذليلة لوغدت مخلوقة من أعين لم تُبصر

ألحقها طوقان بقصيدة أخرى، تأسى فيها على حال المواطن الفلسطيني، وحرَّضه على الثورة:

أفنيتَ يا مسكين عمرك بالتأوُّه والحزَن

وقعدتَ مكتوف اليدين تقول: حاربني الزمن

ما لم تقم بالعبء أنت فمن يقوم به إذن ؟!

عاد علاء الدين،أواسط الثلاثينات، لينشد في ديوان «أثير»، ناعيًا غياب الزعامة الوطنية، وحاجتها الملحَّة للمفكرين :

أين الزعيم لأمة عربية ؟ أين الحكيم له يروح مساعدًا؟

راحت أويْقات الزعامة والحجى وغدا القطيع عن الكلا متباعدًا

يا ويْح شعبي من طويل ثباته أيان يا شعبي تهب مجاهدًا

...

كم ذا أود لكم زعيمًا مرشدًاكم ذا أود لكم حكيمًا ناقدًا

ماهم كلٍ منهما إلا العُلالجموع شعب قد تمطى راقدًا

أقدِم بربك يازعيم مخلّصًا وانثر على الشعب المصيخي شواردا

في الوقت الذي نعى طوقان على نوع من الزعامة :

وطنٌ يُباع ويُشترى وتصيح فليحيا الوطن !

ألحقها طوقان بقصيدة أخرى، تهكَّم فيها على قادة الحركة الوطنية :

أنتم المخلصون للوطنية أنتم الحاملون عبء القضية !

أنتم العاملون من غير قول بارك الله في الزنود القوية !

و(بيان) منكم يعادل جيشًا بمعدات زحفه الحربية !
و(اجتماع) منكم يرد علينا عابر المجد من فتوح أُمية !
ما جحدنا أفضالكم غير أنَّا لم تزل في نفوسنا أُمنية
في يدينا بقية من بلاد فاستريحوا كي لا تطير البقية
كما حذَّر طوقان بني وطنه من أخطار الهجرة اليهودية إلى فلسطين :
يهاجر (ألف) ثم ألف مهرَّبًا ويدخل ألف سائحًا غير آيب
وألف جرَّار ثم ألف وسيلة لتسهيل ما يلقونه من مصاعب
وفي البحر آلاف كأن عبابه وأمواجه مشحونة في المراكب
بني وطني! هل يقظة بعد رقدة وهل من شعاع بين تيك الغياهب؟

بينما ندَّد عبد الكريم الكرمي (أبوسلمى) بصمت حكام العرب على جرائم الاستعمار البريطاني والصهيونية في فلسطين؛ وإن استدرك الشاعر، فعلَّق الأمل على الشعوب العربية:

إيه شعوب الغُرب أنتم مبعث الأمل الجديد
...
سيروا على التُرب المخضَّب والثموا أثر الجدود
حرية الإنسان بالد م تُشترى لا بالوعود

تهكَّم عبد الرحيم محمود، في قصيدته « أفكار في لزوم ما لا يلزم،» في مجلة « الغد « اليسارية، على المعتقدات البائدة :

بغى في قسمة الأرزاق ناس وقالوا : هكذا قسَّم الإله
وقالوا: إنْ أحبَّ الله عبدًا برزقته المقدَّرة ابتلاه
دعوْنا أن يكون هذا صحيحًا ير الفقراء معبودًا خلاه
رأيت القلب إما ضاق صبرًا محبوب لحرمان سلاه
لقد وصفوا الإله بشر ظلم بما قاموا تنزَّه في علاه

قبل أن يدافع محمود عن الفتوحات العربية، ويبرِّئها :

نـحـن لـم نحمل السيوف لهدرٍ بل لإحقاق ضائع مهدور
نــحـن لم نرفع المشاعـل للحـرق ولكــن للـهـدى والنور
نحن لم نطعن الضمير ولكن بقنانا احتمى طعين الضمير
كان فينا نصر الضعيف المعني وانجبار المحطَّم المكسور
بينما أدان العبوشي «السلفية «:
هل رجوع للمعنـى القريــب للربــوع
فالضلوع حنَّت لذكر الحبيب والدموع
مترعات الأسـى في كــؤوس المســا
احتسيــها عســى تستريــح الجنــون
حثَّ طوقان على التمسك بالأرض :
فكِّربموتك في أرض نشأتَ بها واترك لقبرك أرضًا طولها باع
أما علاء الدين، فتنبأ بالنكبة الفلسطينية، منذ أواسط الثلاثينات :
قلبي يحدثني حديثًا لاذعًا فيه التهكُّم يُضحـك الألبــاب
قلبي يحدثني بيوم مفجع يُدني العدى ويُبعد الأصحاب
ياقلب لا ينبس بأي فجيعةهل خففت شكوى تبث عذاب؟
يا قلب اسكت لا تصخ فلعل مايضويك يفني روحك الوثابة

في المسرح

شهدت فلسطين حركة مسرحية نشطة، نسبيًا، امتلكت مؤلفيها، وفنانيها المرموقين. وحفَّ بتلك الحركة وتطوُّرها، جملة من المحددات: (٣)

أولها، الإرساليات التبشيرية، والنوادي الاجتماعية؛

ثانيها، الفِرق المسرحية في الأقطار العربية المجاورة، التي نظَّمت جولات فنية، في مدن فلسطينية عديدة؛

ثالث المحددات، تمثَّل في الإذاعة الفلسطينية.

لقد ظهرت كتابات مسرحية، غدت إرهاصات مُجدية، أسهم فيها كل من: محمد عزة دروَزة، ونجيب نصَّار، وجميل البحيري، وخليل بيدس، (وبندلي، ونصري، وجميل الجوزي)، وموسى سالم، والأرشمندريت أصطفان، ويوسف سالم، وشفيق، ووديع ترزي، وعزيز ضومط، وعبد الحميد الأنشاصي، وبرهان الدين العبوشي، ومحمد حسن علاء الدين، ومحيي الدين الحاج عيسى الصفدي، وفؤاد الخطيب.ودارت مسرحياتهم حول الهموم الوطنية، والقومية، والاجتماعية. واعتبر المسرحيون، هنا، مسرحياتهم واجبًا وطنيًا (٤).

في الكتابــة السياســة

ردَّ الفلسطينيون على الانتداب، والصهيونية، بفيْض من المطبوعات السياسية، كتبًا ومقالات، شرحت تاريخ القضية الفلسطينية، وفضحت أغراض الصهيونية، واجترحت استراتيجية لمواجهتها؛ وهذا كتاب نجيب نصار « الصهيونية »، الذي ظهر مبكرًا (١٩١١)؛ وكتاب روحي الخالدي عن الموضوع نفسه (١٩٠٩)؛وقد أعاد الخالدي ظهور الصهيونية إلى محدديْ»اضطهاد اليهود»، و» يقظة الشعور القومي اليهودي». وعُذر الخالدي هنا أنه لم يُتح له الاطلاع على المنهج العلمي في تحليل الصهيونية، في نشأتها، ومأسستها، وهوالمنهج الذي يُعيد ظهور الصهيونية إلى اقتران الفتوحات الامبريالية، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، بضغوطٍ شديدة على الفئات الوسطى الأوروبية، وبضمنها اليهودية هناك؛ ما جعل الأخيرة تفتِّش عن حل فريد لأزمتها، فضلاً عن رغبتها المديدة في ملاذ اقتصادي آمن. أما ما سماه الخالدي «الشعور القومي اليهودي»، فمردود عليه بأن الصهيونية ظهرت، بعد أن ارتدت الحركات القومية الأوروبية إلى العنصرية، غداة «معركة واترلو»، العام ١٨١٥ م، التي حاقت فيها الهزيمة العسكرية بنابليون بونابرت، على أيدي حكام أوروبا(٥).

بعد احتلال القوات البريطانية لفلسطين، واجتزائها من الجسم السوري، صدرت دراسات أكثر علمية، فتنبأ بولس عبود،في وقت مبكِّر، بالمصير الأسود الذي ينتظر الشعب الفلسطيني، إذا ما نفَّذت بريطانيا « وعد بلفور »، وجاء هذا التنبؤ في كتاب عبود « الأرض المقدسة والصهيونية « (يافا، ١٩٢٠)؛ بينما حاول محمد عزة دروزة – المتأثر بالفكر القومي العربي –ربط تطور

الحركة القومية العربية، بمستقبل فلسطين، في كتابه « فلسطين والعروبة « (القدس، ١٩٢٩).كما نسف محمد يونس الحسيني، في كتابه « تحليل وعد بلفور « (القدس، ١٩٣٣) الأساس القانوني والأخلاقي لذاك الوعد الاستعماري. في الوقت الذي قدَّم حسن صدقي الدجاني «ظُلامة فلسطين « (القدس،١٩٣٦)، وفيه أشار إلى طرد آلاف الفلاحين العرب الفلسطينيين من أراضيهم، لحساب الصهيونية (٦).

أنتجت ثورة ١٩٣٦ الوطنية الفلسطينية، عملاً مشتركًا، لثلاثة من أبناء يافا (أمين عقل / إبراهيم نجم / وإبراهيم أبوالنصر)، حمل عنوان «جهاد فلسطين العربية «(بيروت، ١٩٣٩). وفيه ألقى مؤلفوا هذا الكتاب الضوء على الحركة الوطنية الفلسطينية، مع تركيز خاص على ثورة ١٩٣٦. بينما كان ابن يافا، يوسف هيكل، أصدر كتابه «القضية الفلسطينية «، سنة ١٩٣٧، في الموضوع نفسه؛ إلى كتاب عيسى السفري: «فلسطين العربية بين الانتداب والصهيونية «(١٩٣٧) (٧). بينما أصدر حسن صدقي الدجاني كتابه «تفصيل ظلامة فلسطين» (١٩٣٦)، وفيه جأر الدجاني بالشكوى، من الظلم الذي حاق بالعرب على أيدي البريطانيين، والصهاينة. كما أصدر محمود العابدي «تاريخ فلسطين القديم والمتوسط : الناحية العمرانية» (القاهرة، ١٩٤٣)؛ إلى كتابه «القصور الأموية» (عمَّان، ١٩٥٧). وكتابيْ عارف العارف: «بئر السبع وقبائلها» (القدس، ١٩٣٤)، و»تاريخ القدس» (القاهرة، ١٩٤٧). فضلًا عن كتاب إحسان النمر «تاريخ جبل نابلس والبلقاء» (نابلس، ١٩٣٨).

أما نجاتي صدقي، فلعله الرائد في مجال التأريخ للحركة القومية العربية، عبر حلقات ثلاث، نشرتها له، العام ١٩٣٧ م، شهرية «الطليعة « الدمشقية اليسارية؛ وقد جمعها صدقي، لاحقًا، في كتاب صدر في بيروت،العام ١٩٣٩، حمل عنوان «تاريخ الحركات العربية من عهد الانقلاب العثماني حتى عهد الكتلة الوطنية». ورأى صدقي في كتابه هذا بأن الوعي القومي بدأ يتخلل حركة الجماهير العربية، تحت ضغط الاحتلال الغربي، خلال العقديْن التالييْن للحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨). واعتبر صدقي هذه علامة واعدة بنموشعور عربي، يُفضي إلى الوحدة العربية (٨). وكان رفيق التميمي قد سبق صدقي، بكتاب «تاريخ العرب»، «تاريخ ولاية سوريا»، بالاشتراك مع محمد بهجت (بيروت، ١٩١٦)، و»الإقطاع وأول إقطاع فى الإسلام» (القدس، ١٩٤٥)، ثم «الحروب الصليبية» (القدس، ١٩٤٥)، و»تاريخ أوروبا الحديث» (القدس، ١٩٤٥)، و»تاريخ العصر الحاضر» (يافا، ١٩٤٦). إلى كتابيْ قدري طوقان، «تراث العربي العلمي» (القاهرة، ١٩٤١)؛ و»الأسلوب العلمي عند العرب»

(القاهرة، ١٩٤٦). وكتاب نقولا زيادة «وثبة العرب» (القدس، ١٩٤٥). وكتابيْ محمد عزة دروَزة: «سيرة الرسول» (القاهرة، ١٩٤٨)؛ و»حول الحركة العربية الحديثة» (صيدا، ١٩٤٨/١٩٥٠).

ركَّز أحمد كمال، ابن نابلس، من « حزب الاستقلال العربي «، في كتابه «أُسس النهوض القومي « (بيروت، ١٩٣٩)، على أهمية اللغة، والثقافة، والتراث الديني، كعناصر للوحدة العربية؛ كما رأى المؤلف نفسه بأن القومية العربية قد اشتد عودها، بعد الحرب العالمية الأولى؛ أولاً، بعد أن أصبح لها هدف محدَّد (محاربة الاستعمار)؛وثانيًا، لتقدم وسائط المواصلات؛ وثالثًا، بالتساوق مع النهضة الثقافية؛ وأخيرًا، بفعل الرابطة الدينية.وانتهى كمال إلى أن هذا كله سيقود إلى شكل ما للوحدة العربية (٩).

توالت الكتب القومية،وبخاصة كتابيْ نقولا زيادة «القومية والعروبة «(القدس، ١٩٤٥)؛ ويوسف هيكل «نحوالوحدة العربية « (القاهرة،١٩٤٥). وفي العام ١٩٤٦، غادر عميد الإمام مسقط رأسه، يافا، إلى القاهرة، وفيها أصدر مجلة «الوحدة العربية «. وجاء التوجُّه القوي إلى القومية، والوحدة العربيتيْن؛ أولاً، بسبب الوعي العميق بأن فلسطين قضية عربية؛ وثانيًا، بأن العروبة قوة لفلسطين.

لم يُثرِ الشيوعيون المكتبة الفلسطينية بالإبداع والكتابات السياسية فحسب، ذلك أنهم لم يهملوا الشأن الطبقي الاجتماعي، وإن أنزلوه إلى المرتبة الثانوية، الموازية لمرتبته في سلَّم التناقضات،التي حكمت فلسطين، آنذاك؛ بينما احتل تناقض الشعب العربي الفلسطيني مع الاستعمار البريطاني والصهيونية مرتبة التناقض الرئيسي.فأصدر جبرا نقولا،سنة ١٩٣٥، كتبه الأربعة :»التنظيم المهني»، و»حركة الإضرابات بين العمال العرب في فلسطين «،و»في العالم اليهودي «،و» لينين «(١)*. فضلًا عن نسبة غير قليلة من المقالات، التي نشرتها الصحف الشيوعية في هذا الصدد، من « المنبِّه «،إلى «النور»، و»إلى الأمام»،و»الاتحاد».

في مجال الترجمة، أسهم كل من عادل زعيتر، بغزارة لافتة؛ وعجاج نويهض «حاضر العالم الإسلامي»؛ ومحمد زايد « الامبراطورية البيزنطية»؛ وعنبرة سلام الخالدي «الإلياذة».

في ميدان الصحافة

١ * لعل اللافت أن جميع هذه الكتب صدرت عن مطبعة النور، في يافا، العام ١٩٣٥.

بعد الاحتلال البريطاني، تحوَّلت الصحف الفلسطينية إلى المطالبة بإلغاء «وعد بلفور»، ووقف الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وإنهاء الانتداب، ومنع انتقال الأراضي للمستوطنين اليهود، وشركاتهم، وهي الشعارات نفسها، التي رفعتها قيادة الحركة الوطنية. وإن لم تكفّ هذه الصحف عن الدعوة إلى الوحدة العربية، وعيًا من هذه الصحف بأن هذه الوحدة ورقة قوة للقضية الفلسطينية(١٠).

على مدى المرحلة الأولى من الحركة الوطنية الفلسطينية (١٩١٨-١٩٢٩)، صدرت ٤٨ صحيفة عربية في فلسطين، عدا ٦ صحف أخرى عاودت الصدور،بمجرد أن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها.وبذا وصل عدد الصحف،في هذه المرحلة، إلى ٥٤ صحيفة؛٢٢ منها سياسية،و٧ ثقافية،و٣ فكاهية، و٨ دينية، وصحيفة واحدة جامعة،و٧ تربوية،و٣ اقتصادية،وصحيفة واحدة حقوقية،وثانية كشفية،وثالثة عمالية.وقد صدرت ثلاث من صحف هذه المرحلة بشكل يومي، وصحيفتان بمعدل ثلاث مرات أسبوعيًا، و١٠ نصف أسبوعية،و١٧ صحيفة أسبوعية،وصحيفتان نصف شهرية، و١١ صحيفة شهرية،و٥ مجلات فصلية، بينما بقيت ٤ صحف غير منتظمة الصدور(١١).

أما المرحلة الثانية من الحركة الوطنية الفلسطينية (١٩٣٠-١٩٣٩)، فتضمنت ٤٣ صحيفة،اختفت فيها الصحف الفكاهية،والجامعة،وتلك التي تصدر خطيًا، إلى المفتقرة للانتظام في الصدور؛غالبًا لاتسام هذه المرحلة بالجديَّة والحسم في مواجهة العدوالبريطاني، وتابعه الصهيوني. بينما تم التوسُّع في إصدار الصحف الثقافية، من أدبية وفنية (بما فيها الصحف السينمائية)؛ حيث قفز عددها إلى ١٤ صحيفة، منها صحيفة واحدة تاريخية، وأخرى تربوية، و٣ صحف علمية. فضلاً عن صدور ٩ صحف يومية؛ بعد أن كانت « فلسطين» أول صحيفة تصدر بشكل يومي في فلسطين؛ حيث تحوَّلت، منذ العام ١٩٢٨، إلى الصدور اليومي. بينما صدرت صحيفتان بشكل نصف أسبوعي، و١٥ صحيفة أسبوعية، وصحيفتان نصف شهرية،و١٢ صحيفة شهرية، و٣ صحف فصلية.كما أصدر صحافيون عرب فلسطينيون صحفاً باللغة الإنجليزية، مثل :

(Times of palestine), (Palestine daily mail), (Trouth, Arab Fedration)، (Falastin).

بهدف تقديم ظُلامة الشعب الفلسطيني إلى الرأي العام الغربي عمومًا، والبريطاني، على نحوخاص(١٢).

في المرحلة الثالثة من الحركة الوطنية (١٩٤٠-١٩٤٧)، صدرت ٣٧ صحيفة، بعد أن قاست الصحف كثيرًا، خلال سني الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩-١٩٤٥)، تحت وطأة شُحّ الورق، وتشديد الرقابة

على الصحف.وكانت ١٦ صحيفة سياسية، مقابل ٥ ثقافية، و٤ دينية، وصحيفة واحدة فكاهية (هي الصحيفة الكاريكاتيرية الأولى في فلسطين)، وصحيفة واحدة اقتصادية،و٣ اجتماعية، وصحيفتان جامعتان، وصحيفتان أخريان رياضيتان، وصحيفة طبية واحدة، وثانية علمية، وثالثة زراعية.أما دورية الصدور، فتوزَّعت بين ثلاث صحف يومية، وواحدة ثلاث مرات أسبوعية،و٢٠ صحيفة أسبوعية،و٤ صحف نصف شهرية،و٧صحف شهرية، وواحدة مرة كل شهريْن، وأُخرى فصلية (١٣).

الهوامش

(1)Adnan Abu Ghazaleh،Arab Cultural Nationalism in Palestine During British Mendate، Palestine Studies،No.3،Vol.1،Spring 1972

(2) Ibid..

(٣) انتصار الشنطي، ذاكرة المسرح الفلسطيني قبل نكبة ١٩٤٨، صامد الاقتصادي (عمان)، العدد ١٣٦،نيسان /أبريل ٢٠٠٤،ص ١٥٦-١٧٨.

(٤) الموسوعة الفلسطينية، القسم العام، المجلد الأول، دمشق، ١٩٨٤، ص ٢٠٩، ٣٧٠، ٥٧٤-٥٧٥؛

- واصف منصور، قراءة في المسرح الفلسطيني، الكرمل (نيقوسيا)، العدد ١٨، ١٩٨٦، ص٢٢٨-٢٣٠؛

- د.عبد الرحمن ياغي، الأدب الفلسطيني الحديث، القاهرة، دار الكاتب العربي، سلسلة «المكتبة الثقافية « (٢٢٥)، ١٩٦٩،ص١٠٤؛

- نصري الجوزي «المقدسي»، تاريخ المسرح الفلسطيني ١٩١٨-١٩٤٨، نيقوسيا، شرق برس، ١٩٩٠.

(٥) Abu Ghazaleh،Op.Cit..

(6) Ibid..

(7) Ibid..

(8) Ibid..

(٩) لمزيد من التفاصيل، يمكن العودة إلى :

أحمد كمال، أسس النهوض القومي، بيروت، دار الأحد، ١٩٣٩.

(١٠) عبد القادر ياسين، كفاح الشعب الفلسطيني قبل العام ١٩٤٨، ط١، بيروت، منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، ١٩٧٥، ص ٢٩-٣٣.

(١١) المرجع نفسه، ص ٢٩-٣١.

(١٢) المرجع نفسه، ص ٣٧-٤١.

(١٣) المرجع نفسه، ص ٤٧-٥٣.

أوراق الذاكرة

برنامج توثيق تاريخ الثورة الفلسطينية

شهادة الاخ مروان عبد الحميد، عن هايل عبد الحميد (أبو الهول) ما بين ١٩٥٥ إلى ١٩٦٥م

اعداد وتحرير يحيى يخلف

المرحلة في الساحة السورية ودور الشهيد (هايل عبد الحميد) ابو الهول في تلك الفترة ما يمكن ان اتذكره وابدأ فيه النكبة ١٩٤٨م والتي تبعها خروج الفلسطينيين مرغمين من بلادهم الى المنافي.

جاء قسم من اللاجئين الفلسطينيين الى سوريا ولبنان، وبشكل عام كان أكثرهم من المنطقة الشمالية من فلسطين التاريخية، كانوا من مدن، صفد ، طبريا، عكا، صفورية، حيفا.

والحقيقة ان النكبة أثرت كثيراً في نفس الشعب الفلسطيني الذي وجد استقبالاً شعبياً سورياً، وحكومياً بأخوية وكرم ، فلقد احتضن الشعب السوري اللاجئين الفلسطينيين بود، وقدم الكثير منهم بيوتهم لايواء إخوتهم المهاجرين وهذه حقيقة لا بد ان تقال.

الوضع السياسي في سوريا، في تلك الفترة كانت سوريا خارجة من مرحلة الانتداب الفرنسي فلقد استقلت سنة ١٩٤٥، ودخلت الحرب الفلسطينية من خلال المتطوعيين السوريين الذين جاءوا عبر جيش الانقاذ الى فلسطين فالفريق الاكبر فيهم كان متطوعاً لدى جيش الانقاذ.

اما الحالة الفلسطينية بعد النكبة فكانت مفاجئة للجميع وخاصة الشعب الفلسطيني، وان كان واضحاً ان اهم اسباب النكبة كانت:

أولاً: كان درساً مهماً اجمع عليه الفلسطينيون ، ان القضية الفلسطينية ليست بأيدي أصحابها، فهي

في أيدي الأنظمة العربية، وهذا السبب بالذات كان أحد الركائز الاولى لطريقة تفكير الفلسطينيين.

والثاني: ان اللاجئين الفلسطينيين فقدوا اهم ما يملكون، راس المال بالمعنى الشامل فلقد ضاعت في لحظة واحدة، الارض ، والبلاد، الاموال، والعقارات، فكل ما يملكونه اغتصب من قبل المحتل.

إذن كانت أسباب النكبة الجوهرية واضحة للفلسطينيين، الجهل، وعدم امتلاك القرار، الذي كان في ايدي العرب والمناخ العربي العام الذي لم يكن يملك هو الآخر استقلاليته فالاردن كان تحت الوصاية البريطانية ، وسوريا خارجة من الوصاية الفرنسية حديثاً، ومصر لا تزال تحت الوصاية البريطانية أيضاً، وكذلك العراق تحت الوصاية البريطانية، يعني ، لم يكن هناك استقلال للأنظمة العربية.

في ظل هذه الظروف التي وجد الفلسطينيون أنفسهم فيها، كان لا بد من البحث عن اي حل ، ولم يقتصر هذا الحل على الرجال كبار السن.

بدأ مع الشباب حديثي العهد في الحياة، الجيل الجديد، وكانت النواة الاولى في مدارس وكالة الغوث في المخيمات التي أصبحت سكناً للمهاجرين الفلسطينيين، كان يسمعون من الاباء والاهل ، آلامهم، وأحزانهم، وكانت ذاكرة هؤلاء الأهل تنزرع في عقول وقلوب الجيل الجديد، وتنمّي نوعاً من التحريض لعمل تجمع وبحث عن الهوية وعن الكيان الخاص بهم.

فعندما جاؤا الى المنافي كلاجئين، فقدوا سلطتهم ككيان، وكان الضياع يدفع بهم أحياناً للجوء الى سلطة العائلة كي يستطيع الواحد ان يحمي نفسه او يثبت وجوده من خلالها.

ولكن الجيل الجديد من الشباب بشكل خاص، تمرد على هذه السلطة ، رفض سلطة العائلة، فكان في تجمعاته يبحث عن حل مختلف للقضية، فوجد ان الأقرب والموجود أمامه الأحزاب العربية، وكان في ذلك الوقت من أهم هذه الأحزاب الحزب القومي الذي ينادي بالقومية العربية، ثم أحزاب اسلامية، واخرى علمانية، اذن اصبح لدى الجيل الجديد نزعة قوية.

إما أن يذهبوا الى الأحزاب كطريق للوصول الى فلسطين ، او ان يكون لهم عمل فلسطيني مستقل عن كل هذه الاحزاب.

وكان امامهم أيضاً طريقان ، أولهما، الطريق الحزبي، أي الدخول في الاحزاب الموجودة وهذا ما فعلته الأغلبية. باعتبار ان طريق الاحزاب العربية يمكن ان تكون اسهل، خاصة وان جميع هذه

الاحزاب كانت لها شعارات، أهمها وأولها الدعوة الى تحرير فلسطين، فانشّدوا اليها على أمل تحرير فلسطين.

وكانت هناك قلة قليلة من الشباب الفلسطيني رفضت الحزبية رفضاً قاطعاً طريقاً الى فلسطين.

فبدأت تتجمع، بتجمعات عفوية، ارتجالية، يدفعها الحماس والايمان بفلسطين، هذه التجمعات وصل عددها كما اتذكر في سنة ١٩٥٥ (٣٦٠) تجمعاً، كانت سرية ولم تكن (عسكرية) بالطبع، لكنها ذات هدف واحد هو فلسطين، وكان هذا العدد من التجمعات في سوريا وحدها، وللتوضيح، كان كل تشكيل من هذه التجمعات عبارة عن اربعة اشخاص او خمسة، المشترك العام بينهم، النضال من اجل العودة ، كيف يعود؟..

لم يكن هناك فكر واضح ولا امكانية لتتوحد هذه التجمعات للعمل على ارضية فكرية واحدة مما اضاع او شتت امكانياتها.

وللحقيقة اقول ان اهم منظمة من بينها جميّعا ، كان لها فكر ورؤيا جديدة على الساحة الفلسطينية في سوريا، كانت هي التي تبناها ابو الهول (رحمه الله) ، فقد طرح مبادئه ، بأنهم تجمع لا يريد ان ينشيء حزباً، ولا أن ينشيء حركة، ولا منظمة، انه تجمع (عرب فلسطين) كان هذا هو اسمه.

بمعنى أن هذا العنوان يعطي القومية العربية نحن (عرب فلسطين).

وثانياً: لا يجوز ان يكون لها عضوية فردية من اجل سرية عملها.

وثالثاً: العمل على استقطاب جمهور فلسطيني.

كان يجب ان تبدأ بنواة، وهكذا تشكلت هذه النواة من (١٢) شخصا، عدد مزدوج.

لماذا (١٢) واحد؟ قال لأنه يجب ان يقود هذه المنظمة او التجمع واحد من الـ (١٢) كل شهر.

اولاً: من اجل ان يتدرب على القيادة ، وثانياً لن ينفرد هذا الواحد بالتنظيم، ويرتبط اسم التنظيم به.

وبالتالي لا يكون هناك أي فردية في اتخاذ القرار، فيجب ان يكون القرار جماعياً.

وايضاً لا يسمى من يستلم (بالقائد)، كان يسمى (الموجِّه) لهذا الشهر. لكن بالتأكيد ، تميزت من بينهم شخصيات في حضورها وأدائها خلال عملها الشهري، وفرضت نفسها بهذا التميز بمقدرتها

عن بقية الاعضاء.

فبرز اعضاء في هذا التجمع الذي كان سنة ١٩٥٥ ، وبالتأكيد كان اهمهم هايل عبد الحميد، وكان ايضا انيس الخطيب، ومن بينهم كان فيصل حوراني، وعدد من الأخوة بعضهم موجود الان في المانيا، منهم محمود حجازي، ود. جهاد عيسى وعدد من الشخصيات. اذن سنة ١٩٥٥ بدات الفكرة تظهر، وكان هايل في ذلك الوقت طالباً عادياً لا يزيد عمره عن (١٨) عاماً، ولكن الجيل الذي وجد في ذلك الوقت، كان جيلاً سابقاً لأوانه، وسنوات عمره، عاصر النكبة وأثرت في تكوينه لدرجه فقدانه لطفولته، وكان ايضاً ممتلكاً لقدرته.

لقد وجد نفسه يتحمل مسؤولية التحرير القادم، والتعبئة الفكرية لشعبه، والتعبئة السياسية.. الخ.

وبالنسبة للتجمع كانت أولى المهمات الملقاة على عاتقه، القيام بالمظاهرات الفلسطينية، في المناسبات الفلسطينية، إحياء لهذه المناسبات، وتبدأ المظاهرة ، باسم (عرب فلسطين)، شعار العنوان نحن (عرب فلسطين) لسناً حزباً أو منظمة .

بدأت الظاهرة تغزو المخيمات (عرب فلسطين) بتجمع يدعو فقط الى قضايا فلسطين، وعدد قيادته (١٢) شخصا، والشعب الفلسطيني هو جمهوره الأول. والخامة الهامة هي المخيمات الفلسطينية، وكانت استجابة الناس داعمة مهمة لهم، خاصة وان التجمع يطرح الاستقلالية، فهناك قرار مبدئي بأنه لا يجوز ان نقبل ان نكون في الاحزاب أو ان تكون الاحزاب ادوات لنا للعمل في النضال من اجل الوحدة فكما قلت من قبل ، ان الاحزاب القومية كانت تطرح الوحدة طريق التحرير، لكن نحن كنا نطرح التحرير طريق العودة وهذه اول فكرة طرحت في سنة ١٩٥٦.

كان نضالنا الاساسي، تثبيت الحقوق الانسانية والمدنية للاجئين الفلسطينيين في سوريا.

وكان في سوريا بعد الاستقلال في ذلك الوقت برلمان وديمقراطية، والاحزاب على الساحة تشارك في البرلمان ، وسأذكر هنا حادثة مهمة حصلت. كان رئيس البرلمان السوري ، الاستاذ (اكرم حوراني) رحمه الله، وكان البرلمان مفتوحاً للشعب، كنا نذهب الى البرلمان، نسمع ونحضر المناقشات ، وفي احدى المناقشات طرح على البرلمان موضوع اللاجئين الفلسطينيين وحقوقهم المدنية وجنسيتهم.. الخ اذكر أن ابو الهول أخذ وفداً وذهب الى (اكرم حوراني) وقبل ان تبدا

الجلسة ، قال له ، نحن الفلسطينيين نرفض التجنيس، ولكننا نطالب بأن يكون لنا حقوق مدنية في سوريا، وان نحصل على كافة حقوقنا المدنية دون أن نحصل على الحقوق السياسية، بمعنى ان ندخل في الاطار الحكومي وكذا .. الخ.

كنا لا نزال في سنة ١٩٥٥ وكان هذا القرار الاول الذي أخذ لصالح اللاجئين الفلسطينيين ولم يتغير ، حصل اللاجيء الفلسطيني على كل الامتيازات بحكم المواطن.

ولم يتغير القانون بتغير الحكومات المتعاقبة على سوريا منذ ذلك التاريخ وحتى اليوم حقوق اللاجيء الفلسطيني الذي يعيش في سوريا لا يزال يحصل على نفس الحقوق والواجبات.

تطورت الامور على الساحة السورية سنة ١٩٥٨ ، فقد حدث شيء مهم، صارت الوحدة بين سوريا ومصر، والغيت الاحزاب، لكن تنظيم عرب فلسطين كان الوحيد الذي لا ينطبق عليه الالغاء، فهو غير منظمة ، ولا هو حزب، وكان له في الاوساط قوة لا بأس بها.

هذا التنظيم (عرب فلسطين) اتفقوا ان يترشحوا للاتحاد القومي الفلسطيني الذي أنشأته الجمهورية العربية المتحدة بعد الوحدة، ونزل التنظيم بقائمه ضمت الشباب الصغار مثل ابو الهول ، وبعض الشباب وايضاً المناضلين القدامى مثل المناضل الشهيد صبحي ياسين الذي كان على رأس القائمة، كان مسموح (لعرب فلسطين) الترشح للاتحاد القومي الفلسطيني فكونه غير حزب سهل له الامور، دخلوا الانتخابات، في جو من التنافس الشديد ونجح من القائمة ابو الهول لما يتمتع به من شعبية مع الناس وفي اوساط المخيمات الفلسطينية.

وتم التأكيد على نفس الطرح، بأننا نحن (عرب فلسطين) يجب ان يكون لنا استقلاليتنا دائماً، نحن مع عبد الناصر، ونحن مع الجمهورية العربية المتحدة ومع الوحدة العربية، ولكن لا نريد ان نكون جزءاً من الاتحاد القومي العربي، يومها كان عبد الحميد السراج ، وكان كمال رفعت، وتدخلت المخابرات عبرهما، وحصلت مشاكل للسيطرة على استقلالية الانتخابات ، لكن تنظيم (عرب فلسطين) رغم كل ذلك فاز، ففازت يومها الفكرة.

فبدا الاخوة في القيادة يسعون للتوجه الى الذين يأملون بهم، ويطمحون في انضمامهم لهذه المجموعة.

وهنا سأذكر حادثة كتبها في تلك الفترة الاخ ابو مازن، في الكتاب الصادر عن حركة فتح لم أكن اعرف عنها، قال ابو مازن، انه في عام ١٩٥٨، وفي فترة فقدان سلطة للشعب الفلسطيني، وفي

فقدان سلطة العائلة، كان كل واحد يبحث عن عمل وعن مجال عمل، وكنت انا على وشك الذهاب الى قطر، وكان لي معرفة او نوع من الامكانية بمساعدة ايجاد بعض الاعمال أو الوظائف هناك، فكان يطرق بيتي دائماً سائل عن عمل من هنا وهناك ، أو المساعدة في البحث عن وظيفة.

وفي يوم من الايام طرق باب بيتي شابان يافعان اعرفهما من أيام صفد عندما كنا جيراناً، رأيت هايل، ولم يذكر اسم الثاني، اعتقدت أنهما يريدان دعماً ما، عملاً، لكن هايل بدأ مندفعاً متحمساً ، مسكوناً بالقضية الفلسطينية تحدث عن فلسطين، تفاجئت انه لم يطلب واسطة لعمل، كان يريد ان يجندني في تنظيم ، وسعدت بهذا ، واستمر في الحديث ، كيف نعمل نحن الفلسطينيين، لا نريد ان نكون في الاحزاب، ولا نريد ان نعطي للانظمة العربية فرصة، فيجب ان نكون نحن الفلسطينيين الطليعة الاولى في التحرير ، واذا لم نكن الطليعة، فلن يكون هناك اي تحرير بالمعنى ولن يكون هناك دعم عربي لنا ، لذلك يجب ان نكون نحن الطليعة في العمل النضالي، والعمل العسكري.

يقول ابو مازن كنت متفقاً مع ابو الهول فيما يطرح. وذهب الى قطر، وبدأنا التنظيم في قطر، والذي انضم وتكامل مع التنظيم الموجود في الكويت ، وتكونت مجموعة قطر، ابو مازن، كمال عدوان، ابو يوسف النجار، ابو شاكر (رفيق النتشة)، مشابهة في افكارها لما طرحه ابو الهول، يعني اصبح ربط بين (تنظيم عرب فلسطين) وبينهم، بدعم التوجه، والمبادئ، ووافق ان يشتغلوا مع بعضهم.

في النهاية، يقول ابو ابو مازن حدث سنة ١٩٦٣ انني انتدبت من قيادة الحركة بالذهاب الى القاهرة، وقالوا لي الاخوان، انك ستلتقي مع مسؤولنا في القاهرة وتراه.

أي مسؤول حركة فتح في القاهرة، وأعطوني اسماء وهمية، ذهبت واتصلت وعندما التقينا، تطلعت فإذا هو هايل الذي اراد تنظيمي سنة ١٩٥٨ ، واكتشفت كم كان توجه هذا الرجل صادقاً وحقيقياً.

لنعد الى سنة ١٩٥٨ وكما قلت من قبل منعت الاحزاب جميعها في سوريا، لكن دعم حركة تنظيم (عرب فلسطين) بقي عند الناس، كانوا مستمرين في طرحهم بصدق، فاتفقوا ان يكون في التنظيم ، تدريب عسكري، وان يكون هناك قَسَمْ ثم يتبع ذلك ، انشاء خلايا للتنظيم، اصبح لهم جمهور ، وكانوا القوميون العرب هم الاقرب للحوار مع تنظيم (عرب فلسطين).

فحزب البعث كان يعتقد ويطرح انه لا يجوز لاي احد ان يعمل إلاّ من خلال الحزب، بينما القوميون العرب حركة من السهل الحوار معها، وخاصة مع الرفيق جورج حبش، فكان ابو الهول وأنيس الخطيب مكلفين بالحوار عن (عرب فلسطين) مع الدكتور حبش، وتم ذلك من خلال ابراهيم الراهب الذي كان ابن شقيقة الرفيق جورج حبش وفي الوقت نفسه عضواً في حركة القوميين العرب ، ثم اتسع الحوار مع الشخصيات الفلسطينية في سوريا ومع باقي البلدان.

كان ابو الهول ينظر باتجاه غزة، وكان يعتقد انها البقعة الوحيدة الباقية من فلسطين، ويجب ان تكون منطلق الثورة، وهذه حقيقة.

في سنة ١٩٦٠ كانت امور (عرب فلسطين) قد تركزت كحركة بشكل واضح، فبدأت ملاحقتهم الأمنية من قبل النظام ، ثم ازدادت هذه الملاحقة بعد الانفصال.

رغم ذلك استطعنا في الفترة التي كنا موجودين فيها في سوريا، من البدء بالتدريب العسكري. كنا نستأجر غرفة في الغابات ، يأخذوننا اليها ليدربونا عسكريا، كنت قد التحقت معهم سنة ١٩٥٨ ، وان كنت من قبل دائما قريباً منهم، لم اكن في القيادة خاصة في البداية، لكن منذ التحقت وابو الهول يوجهني بكيفية العلم، واذكر حادثة اوردتها في الكتاب، كان هناك عمل على انشاء الاتحاد العام لطلبة فلسطين، لكن قبل ذلك، كانت رابطة الطلبة الفلسطينيين في سوريا.

كنا قد اخذنا لها موافقة، وكان ابو الهول يضع كل جهده ، لنجاحنا في هذه الرابطة التي أنشئت سنة ١٩٥٦ أذن نجحنا في انشاء رابطة للطلبة الفلسطينيين ، وخضنا نضالا عنيداً مع النظام السوري ، واستطعنا ان نأخذ اجازة رسمية لها، واستأجرنا مقرا، وبدأت القوى الاخرى تحاول ان تلعب دورا وتدخل الى هذا المجال.

وحين أنشئت الرابطة، فاز تنظيم (عرب فلسطين) فيها وكان انيس الخطيب هو رئيس هذه الرابطة.

وانا اعتبر هذا الجزء مهماً فلقد تكرس وجود رابطة للطلبة الفلسطينيين في سوريا، اما في القاهرة فقد كانت رابطة طلبة فلسطين موجودة، وكان رئيسها (ابو عمار) رحمه الله، ثم بعد تخرجه استلمها (ابو اياد) رحمه الله، وكان في الاسكندرية ايضا رابطة لطلبة فلسطين وكذلك في بيروت يعني أربعة روابط كانت موجودة للطبة الفلسطينيين.

بعدما ترك الاخ ابو عمار القاهرة، وذهب الى الكويت، فكر الطلبة الذين بقوا في القاهرة بعمل

اتحاد عام لطلبة فلسطين، وانا أعتبر هذا الجزء هاماً جداً، ففي سنة ١٩٥٩ في ٢/ نوفمبر، جاءنا الى سوريا في زيارة ، رئيس رابطة الطلبة الفلسطينيين في القاهرة ، الاخ زهير العلمي، وجاء معه لطف غنطوس، من اجل الحوار لإنشاء الاتحاد العام والموافقة على دستور الاتحاد، ثم عقد مؤتمر، جرى حوار في ذلك الوقت ، كان قد دخل جزء قليل من البعثيين ، وجزء من القوميين العرب الى الاتحاد ، ولكن الاكثرية كانت من (عرب فلسطين) بدون الاعلان عن ذلك رسمياً.

تم عقد المؤتمر في القاهرة في ٢ نوفمبر سنة ١٩٥٩ وكان لمجموعة (عرب فلسطين) دور في دعم وانشاء الاتحاد العام من خلال رابطة سوريا.

تم انشاء الاتحاد العام لطلبة فلسطين وفي اعتقادي أنه كان المدرسة الأولى، والكيان الاول المستقل للشعب الفلسطيني منذ سنة ١٩٥٩. كانت (الهيئة العربية العليا) موجودة ولكن بلا أي فعالية ، ثم تم إنشاء منظمة التحرير الفلسطينية لمحاولة السيطرة على الكيانية والقرار الفلسطيني.

وفي دمشق كان قد تأسس أقوى تنظيم حقيقي على الارض سنة ١٩٥٨. وانتقل هنا الى حادثة شخصية حصلت لي ولهايل في تلك الفترة فقد كانت الوالدة متزوجة وتقيم في غزة بعد وفاة والدي، وبقيت في غزة، ونحن في سوريا.

طلبت الوالدة هايل للذهاب لزيارتها ، وكانت الفكرة مفرحة بالنسبة له، فغزة فيها العمل الحقيقي، وكان أمله دائما بان الثورة يجب أن تنطلق من غزة.

ترتب له كل شيء للذهاب الى هناك ليبدأ العمل سنة ١٩٥٨ – ١٩٥٩ وكنت قد ذهبت قبله وأقمت أربعة أشهر، كان سعيداً فعلاً بالذهاب ، فمن جهة سيرى الوالدة التي لم يكن قد رآها منذ زمن طويل ، وثانياً سيبدأ العمل الذي كان يؤمن مسبقاً بأنه هناك بين أبناء شعبه.

للاسف في يوم وداعه جاءت جماهير فلسطينية الى البيت لوداعه ، وجاء خبر وفاة الوالدة في نفس الوقت، فذهب دون ان يراها او تراه، وبقي فترة مقيماً في غزة، وعاد منها لاسباب معروفة.

بعدها حصلت اناعلى منحة للدراسة في يوغسلافيا من خلال الاتحاد العام لطلبة فلسطين، وقرر هايل الذهاب الى المانيا للدراسة والعمل ، كان في المانيا الغربية في ذلك الوقت حوالي ٣٠ الف عامل فلسطيني، وكانوا بالنسبة لهايل مادة خاماً يجب العمل بينهم ، وصل الى المانيا في شهر

١٩٦١/٨ وبدأ يشتغل ، ويعمل في التنظيم ، ويدرس. ومما اذكره في تلك الفترة، أنه هاتفني وطلب مني الذهاب اليه، كان ذلك سنة ١٩٦٢ سافرت في القطار، ووصلت الى البيت وسأقول بصدق ودقة الوضع الذي وجدت فيه هايل، كان البيت عبارة عن ملحق بسقف مائل يقع في نهاية البيوت الألمانية ، لا تتسع مساحته إلاَ لسرير لا يزيد عرضه عن ٧٠ سم.

سألته أنت تدعوني للحضور، على الأقل أين سأنام؟ وانا وانت لا امكانية لدينا للذهاب الى فندق.

قال لي، لا تهتم بهذا الموضوع، هذا محلول.

قلت : كيف؟

قال انا اعمل من الساعة العاشرة ليلاً الى الساعة السابعة صباحاً في المعمل وللملاحظة هذا ما آثر على طريقة حياته فيما بعد. فالذين يعرفونه يعرفون انه لا ينام في الليل، فلقد اصبح عنده الليل للعمل.

كان يعود لينام من الساعة الرابعة بعد الظهر ، للساعة التاسعة ليلاً، ثم يبدأ برنامجه ، فترة الصباح يذهب الى الجامعة للدراسة ، ثم التنظيم.

في المانيا أنشأ تنظيماً، كان استمراراً واستكمالا لتنظيم (عرب فلسطين).

بدأوا بتشكيل أول حالة فلسطينية منظمة ما بين الشباب المتعلم وما بين العمال، من خلال عمل الكونفدرالية ما بين اتحاد الطلبة ، واتحاد عمال فلسطين.

وكان ابو الهول كما يقال في العامية (لولب) يعمل ليل نهار على نجاح هذه الفكرة بزملائه الطلبة الذين كانوا معه في اتحاد الطلبة.

وكان واضحاً ان هذا التنظيم يقوده ابو الهول، في تلك الفترة كان معه الاخ هاني الحسن، ثم التقى بعبد الله الافرنجي، وأمين الهندي، فعملوا معاً.

كانت مجموعة البعثيين قوية في اوساط الطلبة والعمال، مما اوجد تنافساً أو صراعاً، لكنهم استطاعوا تشكيل نوع من التجمع او التنظيم تحت اسم (طلائع العودة)، وتشكلت لهم قيادة.. الخ

سنة ١٩٦٢ اكتشفوا ان هناك حركة وطنية يقودها الاخ ابو جهاد في الجزائر، وكان ابو جهاد (رحمه الله) قد تواصل مع عبد الله الافرنجي في المانيا، فكتب رسالة .. ورد على استلام رسالة

من عبد الله الافرنجي ، يقول فيها، وصل الى المانيا منذ عامين (فلان) من انشط الشباب الذي يعمل من اجل فلسطين هنا، وانا اعجبت به... الخ.

فكان رد الشهيد ابو جهاد على عبد الله الافرنجي (عليك توطيد العلاقة معه)، المهم ان التنظيم تشكل وأخذ دوره داخل الانتخابات الكونفدرالية واكتسحوا الانتخابات ووطدوا تواجدهم.

حصل في تلك الفترة اتصال معهم من الكويت ، بالذات من ابو عمار وابو جهاد، اللذين بادرا بالاتصال بابو الهول وبهاني الحسن وكان هذا قبل سنة ١٩٦٣ .. دار حوار بينهم لكي يبداوا بالتعاون للعمل معاً.

كان ابو الهول دائما مضحياً ولم يسعَ اطلاقاً الى أي امتياز شخصي لاستلام منصب سياسي او شهرة.

وهنا لا بد من اضافة معلومة هامة، ان تنظيم المانيا ، كان اكثر تنظيم منظم وفاعل، من المتعلمين والطلاب والعمال ، اي كان ثمة درجة عالية للتنظيم الجماهيري المدني فيه، وكان هذا كافياً لان يكون رصيداً رافداً كبيراً للحركة التي بدأت تتكون في الكويت، من نخبة جيل العمالقة لانطلاق العمل الفدائي، وهذه الخاصية الهامة وفرتها للثورة ساحة المانيا، فلقد اتفق ابو الهول وهاني الحسن واقتنعوا بعمل الاخوة في الكويت فالهدف الواحد تكامل، الهدف ان نجتمع وليس ان نكون وحدنا، وهكذا انضموا الى فتح واتفقوا على الانضمام بكل ما عندهم من طاقات وامكانيات في الساحة الالمانية.

كانت كما ذكرت الكونفدرالية موجودة في المانيا، وكان لفتح سيطرة عليها، اما الان فأصبحت فتح تسيطر عليها بالكامل ، رغم الصراعات التي كانت تقوم بها قوى البعث، والقوميين العرب في اتحاد الطلبة.

برزت قوة فتح عندما تقرر عقد مؤتمر للاتحاد العام لطلبة فلسطين في غزة سنة ١٩٦٣ كانت فتح حاضرة بقوة في هذا المؤتمر، انتخب هاني الحسن رئيساً للمؤتمر بوجود البعثيين والقوميين، وكان وراء هذا النجاح حجم هائل من الاتصالات التي دارت قبل عقد المؤتمر من خلال الكونفدرالية في المانيا وكانت النتيجة هي هذا الانتصار .

في المؤتمر أيضاً، انتخب تيسير قبعة رئيساً عن حركة القوميين العرب التي كان لها ثقل لا بأس به. وانتخب ابو الهول نائبا للرئيس، وطرح طلبا بأن يستلم العلاقات الداخلية حتى تكون صلة قوية

مع كل الطلاب الفلسطينيين في العالم ، واستلم هذه المهمة.

عقد المؤتمر الثاني سنة ١٩٦٤ واستمر ابو الهول في موقعه بعد المؤتمر ، ولكن حركة فتح إتخذت قراراً بذهابه الى القاهرة للاقامة والالتحاق بجامعة القاهرة وهنا سأروي الموقف الذي حدث بعد اخذ القرار لأنها واقعة أعتز بها ، وشهادة بأن الموقف الذي حدث بيني وبينه قد علمني الكثير.

كنت لا أزال طالباً في يوغسلافيا ، وكنت نشيطاً جدا في اتحاد الطلبة ، كما انني ايضاً رئيس فرع اتحاد الطلبة فيها، اذكر الموقف واللقاء بيني وبينه قال لي : يا مروان انت الان تدرس ، وانا أيضا ادرس في المانيا وأعمل ، وليس لدينا اي مصدر رزق ، ولا مصدر يمولنا أبداً.

قلت له: هذا صحيح.

قال لي: اذن اسمع ما سأقوله لك بصراحة، كلانا نعمل في العمل الوطني ونحن ننتمي في تنظيم ، وفي رأيي الشخصي، اذا لم تمتلك المال، أو على الأمل تأمين حياة كريمة ، فلن تستطيع ان تمتلك القرار، لأن الذي سيعطيك راتبك، هو الذي يمتلك قرارك.

قلت له: ماذا تعني؟

قال: على احدنا ان يتفرغ للعمل الوطني، إما ان تقرر انت الان التفرغ للحركة وانا أتفرغ للعمل الوظيفي ، وبذلك يكون راتبي ضمان لمستقبلك ، وضمان لقرارك المستقل، او أن نعمل العكس.

انت الان تدرس الهندسة ، ولديك منحة، فإما ان تكون انت سندي المالي وانا اذهب للتفرغ للعمل الوطني، انا لا اقول ان مساندتك ستؤمن لي كل متطلبات حياتي ، لكن سيكون لديّ القوة، بانني اذا لم يعجبني الوضع ، اكون قوياً، وارفض ما لا أومن به.

قلت له: جوابي انني اعاهدك منذ الان أن اتخرج بأسرع ما يمكن حتى أفي لك بالوعد.

هذا الموقف جعلني اكون رابع طالب يتخرج من دفعتي البالغة ٥٢٦ طالباً، ليس بالدرجة، ولكن بالسرعة ، لان نظام دراسة الهندسة هناك يعتمد على السرعة ، فكنت رابع طالب في دفعتي في يوغسلافيا البالغة كما اسلفت ٥٢٦ طالباً.

لقد كان ذلك الموقف دافعاً وحافزاً لي لهذا التقدم اما هو فقد ذهب الى القاهرة معتمداً لحركة فتح.

وهناك في القاهرة بدأ من الصفر واستطاع ان يجمع عدداً من الطلبة بلغ ٣٥ ألف طالب فلسطيني يدرسون في مصر، كان هذا سنة ١٩٦٣ وعن تلك الفترة سيتحدث اخوة له ، يعرفون اكثر مني ، أنا أعرف ولكن ليس بدقة الذين كانوا معه هناك.

وما اريد ان اؤكد عليه أخيراً أن أثر (عرب فلسطين) لا يزال موجوداً في سوريا حتى اليوم وأنهم يعرفون من كان يدعمهم ، ومن كان يستأجر الباصات لاحضارهم من المخيمات للمظاهرة التي كان يعرف اولها ولا يعرف آخرها، دون ان يحاول اخذ موقف منهم، أو طلب شيء نظير ذلك.

وحين تعرضت هذه المجموعة للملاحقة من أجهزة الأمن السورية، لم تعثر على شيء الا اسماء ١٢ شخصاً، كانوا معرفوين فلم يكن هناك حزب ولا تنظيم ولا خلايا بالشكل الذي كان في التنظيمات الأخرى، انما جمهور موجود في المخيمات (عرب فلسطين) وكلنا عرب فلسطين.

اتسعت روافد الفكرة في اكثر من موقع ومكان، فظهر تنظيم المانيا، وتنظيم القاهرة الذي تكونت مادته كلها من المتعلمين ، والطلاب، والمثقفين الذين التحقوا بحركة فتح، والذين هم كل الكوادر التي نعرفها وقادت مسيرة فتح. سنجد ان اكثرها قد خرج او تخرج من القاهرة، او من سوريا اكثر من أية ساحة اخرى.

ربما لان اكثرهم درس في القاهرة فكما قلت كان عددهم يزيد عن ٣٥ الف طالب خرجوا من الساحة المصرية الى قلب الثورة الفلسطينية وقادوا مسيرتها.

واستشهد منهم الكثير على الطريق، ولا يزال عدد كبير منهم يشغلون مواقع هامة الى يومنا هذا في حركة فتح المجيدة.

أوراق ثقافية

"الطنطورة» وأخواتها..
إنتاجات سينما إسرائيلية تحت سقف «البيت الصهيوني»!

يوسف الشايب

" حاربوني وطاردوني داخل المحاكم، وتم الضغط بشدة تجاهي للتوقيع على خطاب تراجع يفيد بأن المذبحة لم تحدث، وهو ما قمت به للتخلص من تلك الضغوط، وحتى الشهادة الجامعية صاحبة الدرجات العالية ألغتها الجامعة»، هكذا تحدث الباحث إسرائيلي تيدي كاتس عما تعرض له من قبل مقاتلي لواء «السكندروني» في العام ١٩٤٨، في بداية الألفية الثالثة، بعد أن كشفت دراسته التي كان تقدم بها لجامعة حيفا الإسرائيلية، عن حقائق مجزرة قرية «الطنطورة» الفلسطينية، وما اشتملت عليه من قتل ودفن جماعي ضد المدنيّين الفلسطينيين، مع اختلاف الروايات من «مرتكبي» المجزرة أو النافين لارتكابها أو المرتبكين في رواياتهم، أو المبررين لها، حول ما إذا كان من قُتل «مدنياً»، فهناك حديث عن أن دورية من هذا اللواء تعرضت للتنكيل «الوحشي» من قبل المقاومين الفلسطينيين، الذين بطبيعة الحال لم يصفوهم بالمقاومين، قبل القرار باقتحام القرية، وهناك محاولات لتبرير الفظائع في الطنطورة، في بعض الأحيان، باعتباره حدثاً فردياً من أحد افراد هذه العصابة الصهيونية».

ورغم أن ما كتبه كاتس، وما تعرض له من «قمع واضطهاد» كان في العام ٢٠٠٠، والأعوام القليلة التي تلته، إلا أنها أصبحت حديث كافة المتابعين للشأن الفلسطيني، بعد أن أعاد فيلم وثائقي إسرائيلي حمل اسم «الطنطورة» أو (Tantura)، إحياء تلك التفاصيل عبر ١٤٠ ساعة من المقابلات المسجلة مع ١٣٥ شاهداً من اليهود والعرب على الحدث، في فيلم تم عرضه في احتفاء رسمي

نظمته الهيئة العامة للإذاعة والتلفزيون الفلسطينية، وبالشراكة مع مسرح وسينماتك القصبة في مدينة رام الله، في مقر الأخيرة، وهي عروض تحولت مجانية بعد أن كانت تجارية في "القصبة" وغيرها من دور العرض السينمائي بمدينة رام الله.

إشادة فلسطينية

ووسط الهجوم الشرس عبر تصريحات لمسؤولين إسرائيليين أو مقالات في مواقع وصحف إسرائيلية على «الفيلم»، فإن القيادة الفلسطينية تجد فيه وثيقة إدانة لما اقترفه جنود نظاميّون ما بعد إعلان دولة إسرائيل في العام ١٩٤٨ كحال مجزرة الطنطورة، أو العصابات الصهيونية قبلها كما في «دير ياسين» وغيرها من جرائم بحق الشعب الفلسطيني في العام ١٩٤٨، بحيث أشاد الرئيس محمود عباس بالفيلم وقصته.

وحسب نص الخبر، كما نشرته وكالة الأنباء الرسمية الفلسطينية (وفا)، في السادس من كانون الأول (ديسمبر) ٢٠٢٢،: أكد رئيس دولة فلسطين محمود عباس أن الحقائق التي وردت في فيلم الطنطورة تؤكد مصداقية الرواية الفلسطينية بخصوص مجازر الاحتلال الإسرائيلي التي ارتكبت بحق أبناء شعبنا في عام ٤٨ وما تلاها من مجازر، وبذات الوقت فإن هذه الحقائق التي ظهرت في الفيلم تدحض مجددا الرواية الإسرائيلية التي أنكرت لسنوات طويلة ارتكاب هذه المجازر وعملت على طمس معالمها.

و"شدد سيادته على أن أهمية هذه الشهادات الحية أنها وردت على ألسن من ارتكب هذه المجزرة».. وأشاد الرئيس بشجاعة من بحث عن الحقيقة وأظهرها للعالم أجمع، بعد كل هذه السنوات من محاولات الاحتلال الممنهجة لإخفاء وطمس هذه المجازر.

وعن قيمة الفيلم وأهميته القانونية، قال وزير العدل الفلسطيني محمد الشلالدة إن فيلم «الطنطورة» يمثل وثيقة ذات قيمة قانونية مهمة جداً لمساءلة وملاحقة السلطة القائمة بالاحتلال منذ العام ١٩٤٨، بارتكابها العديد من الجرائم التي ترتقي لوصفها بجرائم حرب وجرائم ضد الإنسانية وجرائم إبادة جماعية"

وأضاف خلال تصريحات أدلى بها عقب عرض الفيلم في مسرح وسينماتك القصبة بمدينة رام

الله: «من خلال الفيلم يتضح أن مجزرة الطنطورة هي جريمة إبادة جماعية مخالفة لاتفاقية منع الإبادة الجماعية والمعاقبة عليه للعام ١٩٤٨، وأنه كآلية قانونية فلسطينية يمكن الاعتماد على الفيلم باعتباره تحقيقاً جنائياً بالأدلة والإثباتات والشهادات الحية، وأنه من خلاله نستطيع مقاضاة الاحتلال أمام محكمة العدل الدولية اعتماداً على كون فلسطين طرفاً في الاتفاقية.“

وأشار الشلالدة إلى أنّ مسؤولية جنائية تترتب على إسرائيل، وإلى أن أركان الجريمة تتمثل النية والقصد الجنائي بقتل جماعي منهجي وواسع النطاق ليس فقط في الطنطورة، وإنما في أكثر من ٥٠٠ قرية فلسطينية تمت إبادتها، مضيفاً: لا بد من إحياء هذا الملف لمساءلة إسرائيل، كسلطة قائمة بالاحتلال، ليس فقط فلسطينياً وإنما من خلال التشريعات العالمية الوطنية التي تسائل إسرائيل في هذا الجانب، وأنه لا بد للسلطة القائمة بالاحتلال أن تعترف بارتكاب هذه الجريمة المخالفة لكافة الاتفاقيات والمعاهدات الدولية وقرارات الأمم المتحدة، لما يترتب عن اعترافها من آثار قانونية لجبر الضرر والتعويض لضحايا المجزرة.

وختم وزير العدل الفلسطيني: الفيلم يستحق التقدير والثناء من دولة فلسطين لفضحه للسياسة الإجرامية الاسرائيلية، باعتباره وثيقة تتمتع بقيمة قانونية هامة في القانون الدولي والقانون الدولي الجنائي، وأنها إثبات وشهادة حية على الجرائم المرتكبة بحق الشعب الفلسطيني، والتي يعاني منها اللاجئون الفلسطينيون إلى يومنا هذا، من خلال إنكار إسرائيل حق العودة والتعويض للاجئين الفلسطينيين.

الفيلم يحقق جوائز دولية

واللافت أن الفيلم مرشح للحصول على جائزة أفضل فيلم وثائقي من أكاديمية السينما الإسرائيلية، حسب الموقع المتخصص في السينما، ومن بين المواقع الأكثر موثوقية (IMDB)، وهي، حسب موقعها الرسمي في موقع (Linkedin)، مؤسسة غير ربحية تعمل في مجالات السينما والتلفزيون في إسرائيل، تأسست في العام ١٩٩٠ واعتباراً من العام ٢٠١٢ باتت تضم ٧٥٠ عضواً، فمجلس إدارتها ممثلون عن صانعي المحتوى وصناعة السينما والتلفزيون، وممثلون عن السلطات المحلية والشخصيات العامة، وتمنح كل عام جوائز أكاديمية السينما الإسرائيلية (جائزة أوفير) للأفلام الإسرائيلية البارزة وجوائز أكاديمية التلفزيون الإسرائيلي عن الإنتاج التلفزيوني الإسرائيلي المتميز.

وفاز الفيلم بجائزة المهرجان الإسرائيلي (Docaviv International Documentary Film Festival) للعام ٢٠٢٢، وهو حسب موقع (Festagent)، يعرف باسم "مهرجان تل أبيب الدولي للأفلام الوثائقية"، وهو مهرجان "الأفلام الوثائقية الرئيسي في إسرائيل. ويعرض فقط العروض الأولى للأفلام الدولية والإسرائيلية، ويحظى باهتمام حتى بات مرجعية لصناعة السينما الوطنية في إسرائيل.

كما حصل الفيلم على جائزة أفضل فيلم وثائقي في مهرجان هونغ كونغ السينمائي الدولي ٢٠٢٢، وجائزة الجمهور لأفضل فيلم وثائقي دراما (ديكو دراما) في مهرجان فيلادلفيا للأفلام، وكان مرشحاً لجائزة الجمهور (World Cinema) في مهرجان "صندانس" (Sundance) السينمائي الدولي الشهير للعام ٢٠٢٢.

ورغم ترشحه للمنافسة من بين القائمة الأولية التي ضمت أكثر من ١٤٠ فيلماً عن فئة الفيلم الوثائقي لجائزة «الأوسكار»، إلا أن الفيلم لم يصل إلى المنافسات النهائية، بحيث لم يتم اختياره من بين الأفلام المتنافسة في القائمة القصيرة عن هذه الفئة، والتي أعلنت في ٢٢ كانون الثاني (ديسمبر) ٢٠٢٢.

تدعيم الصهيونية عبر بوابة السينما

وحسب مجلة (POV) الكندية المتخصصة في الأفلام الوثائقية، وفي مقال كتبه جاسون غوربر في ٢٤ كانون الثاني (يناير) ٢٠٢٢، فإن مخرج فيلم «الطنطورة»، الإسرائيلي ألون شفارتس، حسب الاستخدام العربي للاسم، أو ألون شوارتز، «مثل معظم الإسرائيليين، قضى وقتاً في الجيش، وخدم كضابط مخابرات كانت وظيفته فهم مجموعة من الحقائق المتباينة وشظايا المعلومات، ثم دخل عالم الشركات الناشئة في مجال التكنولوجيا، وكسب عيشاً لائقاً في تلك البيئة، ثم ترك ذلك الجزء من حياته وراءه، وانجذب إلى الفيلم الوثائقي، فخرج بفيلم (Aida's Secrets)، فيما اعتمد فيلمه الأخير، طنطورة (Tantura)، بشكل استفزازي على تجربته في فهم الحقائق المتباينة، خاصة في تلك الفترة الغامضة من التاريخ الإسرائيلي، حيث ولدت الدولة الحديثة تحت نيران الرشاشات من الخارج والداخل.

وجاء مقال نشرته صحيفة «هآرتس» الإسرائيلية في ١٢ آب (أغسطس) ٢٠٢٢، بعنوان «كيفية

التستر على مجزرة»: كتب مخرج الفيلم الوثائقي "طنطورة" أن الصهيونية يجب أن تتطور من أجل البقاء.. يجب أن يكون الإسرائيليون أقوياء بما يكفي للاعتراف بمعاناة الطرف الآخر.. الاعتراف بالنكبة خطوة أولى نحو مستقبل سلام.

والحديث عن تطوير الصهيونية عبر بوابة الصهيونية، يعيدني إلى تصريحات المخرجة الإسرائيلية نيطع شوشاني، صاحبة الفيلم الوثائقي المثير للجدل، ولكن مرّ مرور الكرام على الفلسطينيين، وقتها، وأعني "وُلد في دير ياسين" (Born In Deir Yassin)، وأنتج في العام ٢٠١٧.

وفي إطار إعدادي لكتاب عن دار نشر إيطالية حول ما أطلق عليهم «المخرجون الجدد في إسرائيل»، قالت شوشاني حينها، عبر رد رسمي لأسئلة أرسلت كما أجوبتها عبر البريد الإلكتروني: أعتقد أن علينا أن نعرف تاريخنا، حتى البقع الداكنة فيه إذا أردنا أن نحظى بمستقبل صحي وأفضل.

والفيلم من إنتاج إسرائيلي فرنسي مشترك، وهو حسب موقع «مهرجان القدس السينمائي» الإسرائيلي، يتناول كيف تم تسييج أول قرية عربية تم احتلت في العام ١٩٤٨، أي دير ياسين، عندما تم إنشاء مستشفى «كفار شاؤول» للأمراض العقلية التابع للحكومة فيها في العام ١٩٥١ على أنقاضها.

ويروي هذا الفيلم الوثائقي قصة تحول تلك القطعة من الأرض، عبر شخصية «درور»، الذي يتوجه إلى «كفر شاؤول» لاستلام سجلات والدته، أثناء محاولته الكشف عن أسرار ماضيه، تحاول مخرجة الفيلم ومساعدوها الكشف عن أسرار «آبائهم المؤسسين»، فلأول مرة يتحدث مقاتلو «ليحي» و«الأرغون» الذين احتلوا القرية، وجواسيس «الهاغانا»، الذين تم إرسالهم من بعدهم، وشباب «جادنا» (Gadna) الذين دفنوا الجثث.. من خلال ذكرياتهم، تنكشف الرواية الإسرائيلية الكاملة عن «غزو» دير ياسين.

وبناء على مشاهداتي المتكررة للفيلم، فإنني أعتبره أكثر أهمية بالنسبة للفلسطينيين من «الطنطورة» (Tantora)، بحيث نجحت شوشاني في انتزاع اعترافات من مرتبكي المجزرة في دير ياسين، وخاصة من قبل الشبيبة الصهيونية ممن قاموا بدفن الجثث، فيما لم تنجح، رغم محاولاتها ومحاميها المتكررة، بالحصول على موافقة قانونية بالكشف عن وثائق المجزرة، رغم مرور الوقت القانوني الذي يسمح بذلك، حتى أنها وصلت إلى المحكمة العليا الإسرائيلية، ولكن دون طائل، وهو ما يعرّي النظام بأكمله في دولة الاحتلال.

وقالت شوشاني في الحوار الإلكتروني غير المنشور، وقتذاك: كأمة، يجب أن نتعامل بجدية مع ما حدث في العام ١٩٤٨، أنا على قناعة أننا لا نستطيع ولا يجب أن نتجاهل النكبة الفلسطينية.. لا يمكننا إخفاء ماضينا.. سيظهر في النهاية على أي حال، ويؤثر على حياتنا هنا بطريقة خطيرة كل يوم.

وأضافت: أنا لست ساذجة، لكن بهذه الطريقة، أنا صهيونية، وأعيش صهيونيتي.. أنا أعيش في إسرائيل، وأربي أطفال هنا، وليس لدي أي مكان آخر أذهب إليه، تماماً مثل والدي وجدي من قبل.. أعتقد أن إسرائيل اليوم هي مكان مريض وسيئ بسبب الاحتلال، وهذا حسب تعريفي بدأ في العام ١٩٤٨ وليس في العام ١٩٦٧ كما يعتقد معظم الناس هنا الذين يعتبرون أنفسهم في الجانب "الأيسر" من الخريطة السياسية.

واعترفت شوشاني: هذه الوثيقة السينمائية عن دير ياسين لم تكن من منطلق التضامن مع الشعب الفلسطيني.. الفيلم صُنع أولاً للجمهور الإسرائيلي.. إنه يتعامل مع الثقافة الإسرائيلية وأساطيرها التي ترتكز على أساسنا، وحول إمكانية كسرها.. لا شيء يمكن أن يغيّر ماضينا أو يمحوه، لكنني أعتقد أن الدخول في عملية قبوله كمجتمع أمر ضروري لتغيير مستقبلنا هنا في إسرائيل.

وعليه فالقضية لا تخرج في غالبية الحالات، باستثناء الندر اليسير من الحالات، عن كونها معركة داخل إطار "البيت الصهيوني"، بعيداً عن الانتصار للقضية الفلسطينية، والاعتراف بحقوق الشعب الفلسطيني، وغير ذلك في ذات الإطار.

وأشار الباحث في العلوم الاجتماعية مارسيليو سفيرسكي، في كتابه "ما بعد إسرائيل.. نحو تحوّل ثقافي"، الصادر عن منشورات المتوسط في إيطاليا العام ٢٠١٦، إلى أنه "منذ أيام هجرة الصهاينة الأوروبيّين المبكرة إلى فلسطين في بداية القرن العشرين حتى الوقت الحالي، تطوّرت الصهيونية باستمرار بهندسة العزل ونشر كل أنواع أجهزته، وعلى نحو أبرز، رسمت هذه الأجهزة خطوط تقسيم عِرقي قومي بين اليهود والفلسطينيين، وخطوطاً عنصرية طبيقية بين الأشكناز والمزراحيم.. نتيجة لهذا، أزيل الطموح بحياة يشترك فيها اليهود والعرب، وأزيلت معه إمكانية وجود مجتمع مجرّد من العسكرة.. كلّ هذا، وغيره، يجعل إمكانية وجود إسرائيل في المستقبل أمراً صعباً للغاية، نظراً لعدم وجود حيّز للتفكير النقدي، والسعي نحو الديمقراطية الحقيقية والاستعداد للمشاركة".

"يبدو أن المجتمع الإسرائيلي اليهودي، ومن خلال الممارسات على أرض الواقع، وليست التنظيرية فحسب، تمكن من تلقيح نفسه بنجاح ضد التفكير الأخلاقي، فقلة منه فقط تشعر بالقلق إزاء

ذلك.. وكأن هؤلاء لم يكتفوا ببناء جدار الفصل العنصري، بل أقاموا أيضاً جدراناً عقلية وعاطفية لحماية أنفسهم من أن يُحاسبوا على أفعالهم، لذلك فالتوجه الإسرائيلي اليهودي السائد هو توجّه نحو تقليل شديد، لمشاعر تأنيب الضمير، بينما ينشغل آخرون في تبرير أفعالهم".

وزارة الثقافة والجهات الرسمية الإسرائيلية

وأنتج فيلم»الطنطورة» من قبل وزارة الثقافة والرياضة الإسرائيلية، في عهد الوزير عضو الكنيست يحيئيل موشيه طروبير، وهو عضو في الكنيست ما قبل الأخيرة، ولد في القدس العام ١٩٧٨. ودخل الكنيست ممثلا عن حزب «حوسين ليسرائيل» (المجد لإسرائيل) ضمن قائمة "كاحول لافان" برئاسة بيني غانتس.. خدم في جيش الاحتلال الإسرائيلي في وحدة «دوفديفان»، وفي خدمة الاحتياط خدم كقائد التأهيل والتدريب المهني في هذه، وهو يخدم حالياً في وحدة نخبة سريو، وفي السنوات الـ ١٧ الأخيرة، يمارس النشاط التربوي والاجتماعي.

وبالعودة إلى فيلم «مولود في دير ياسين» لنوطع شوشاني، أنقل عنها قولها: لم أتعرض للتهديد قط منذ أن تعاملت مع هذا الموضوع الحساس. لم يكن الأمر سهلاً.. لقد استغرق الأمر بعض الوقت للحصول على تمويل لهذا النوع من الأفلام الوثائقية في إسرائيل، ولكن في النهاية أعطتنا القناة الوثائقية الإسرائيلية ٨ معظم الأموال إلى جانب مفعال هبايس (اليانصيب الوطني الإسرائيلي، كما كان جزءاً من مهرجان القدس السينمائي، وعُرض عدة مرات على القناة الثامنة، وفي وقت لاحق فوجئت جداً بسماع أنه بات جزءاً من برنامج يسمى "الثقافة في المحيط"، التابع لوزارة الثقافة في إسرائيل، ويموّل عروضاً سينمائية في المناطق النائية.

كان ذلك في عهد الوزيرة الليكودية ميري ريغيف، التي شنّت حرباً شعواء على فيلم "فوكستروت" لشموئيل موعاز منذ بدء عروضه الدولية في أيلول ٢٠١٧، مع أن وزارة الثقافة التي تقود دفّتها ساهمت في إنتاجه.

وبعد فوزه بجائزة أفضل ممثّل في مهرجان «أوفير»، صبّ الجمهور الإسرائيلي، عبر وسائل التواصل الاجتماعي، جام غضبه على الممثّل ليئور أشكنازي، وأشبعوه شتائم، بل ودعوات عليه بموته هو وطفلته، التي كانت وقتذاك، تبلغ من العمر خمس سنوات، عبر وسائل التواصل الاجتماعيّ.

وعن الفيلم كتب دافيد هوروفيتس في موقع (The Times Of Israel)، في ١٨ أيلول ٢٠١٧: فيلم "فوكستروت" لشموئيل ماعوز، والمرحب به في الخارج، والذي تشتمه وزيرة الثقافة ميري ريغيف ليس دائماً منصفاً لإسرائيل.. لو قام مخرج غير إسرائيلي بإخراج فيلم يدور مشهده المحوري حول جنود إسرائيليين مذعورين، ويطلقون النار على سيارة مليئة بالمدنيين الفلسطينيين عند نقطة تفتيش، ثم قاموا بدفن الأدلة بشكل حرفي، حيث يكون مسؤول كبير في الجيش الإسرائيلي متواطئاً تماماً في التستر، لكان الكثير منا قد غضب بشدّة.. لأصرّينا أن جيشنا، جيش شعبنا، لا يمكن أبدا أن يفعل أي شيء من هذا القبيل.. لكن ليس من المحتمل أن يقوم غير الإسرائيليين بإنتاج فيلم مثل "فوكستروت".. هذا الفيلم ليس عمل جهات خارجية مناهضة لإسرائيل. إنه إنتاج داخلي، مؤلم، انفعاليّ، وبصير، وبالفعل له صداه القوي لدى الإسرائيليين، إذ تعتبر مشاهدة أجزاء منه محنة حقيقية.

"فوكستروت"، حسب دافيد هوروفيتس، مصوّر بشكل جميل، ومليء بالفكاهة، لكن رؤيته كئيبة.. إنه بالتأكيد ليس ترفيهاً بالمفهوم المعتاد للكلمة.. قد نسميه فيلما منشقاً، يطوّق فنياً ضد فجيعة ومآسي وجودنا هنا، والتي يبدو أن لا نهاية لها، ولكن بدلا من لوم الحكومات الإسرائيلية صراحة أو ضمنيا برقصة الموت التي يعرضها والتي تعود بنا دائماً إلى نقطة انطلاقنا، فإن موعاز، وهو نفسه مدفعي في حرب لبنان العام ١٩٨٢، يبعث اليأس.. "فوكستروت" ليست منصفاً لإسرائيل. مشهد اطلاق النار والدفن المركزي هو أقل سريالية بل وأكثر واقعية مما أكد بعض المدافعين عنه، لكنه يصور سلسلة من الأحداث التي من الصعب جداً تصورها في الجيش الإسرائيلي كما نعرفه، على حد تعبيره، ليضيف: من بين أكثر المشاهد قوة، في بداية الفيلم، المشهد الذي فيه نفس الجنود في نفس الحاجز يجبرون زوجين عربيين، الذين ارتدوا ملابس أنيقة في طريقهم إلى حفل زفاف، للخروج من سيارتهم خلال أمطار غزيرة. المشهد هو لقطة موجزة لإدانة صامتة من قبل المخرج، ففي الوقت الذي غمرت الأمطار أناقتهم، وسال ماكياجها، بقيت الكاميرا طويلاً لتفصيل تعبيرات الزوجين.. خيبة أمل، براءة مجروحة، مرارة، لحظة فكاهة ساخرة، وإذلال تمر عبر معالمها (...) وكفيلم، كفن، فإنه يدل على مهارة وذوق وإبداع إسرائيل، الصفات التي نحبّذها، كما أنه يجسد التساؤل الإسرائيلي والإهانة والألم والتأمل، الصفات التي بدونها لن نزدهر، حسب هوروفيتس الإعلامي والناقد الإسرائيلي، الذي ختم مقاله بالقول: يحتاج المرء إلى استيعاب أن المجتمعات

الهشة فقط، وليس المجتمعات القوية، هي التي لا يمكن أن تتسامح مع المعارضة البناءة.

يذكر أن الوزيرة ريغيف كانت تعهدت بتغيير طريقة توفير تمويل من هذا النوع.. وقالت في تشرين الأول ٢٠١٧: ما كان عليه الحال لن يكون كذلك، حسب القناة الثانية الاسرائيلية، مشيرة إلى أنها ما كانت لتشاهد الفيلم الذي نددت به على أنه "جلد ذاتي وتعاون من الأجندة المعادية لاسرائيل"، وأنها لو كانت قد شاهدته قد تتفاجأ لاكتشاف كيف يعكس الفيلم بشكل فعّال بعض الحقائق الأكثر دنيوية في الخدمة العسكرية الإسرائيلية، والتي هي على دراية تامة بها من منصبها السابق كمتحدثة باسم جيش الاحتلال الإسرائيلي.

ريغيف، التي عادت مؤخراً وزيرة للنقل في الحكومة الإسرائيلية الأحدث، والأكثر تطرفاً من بين الحكومات الإسرائيلية المتطرفة، ويترأسها بنيامين نتنياهو، فإنها استهجنت بداية حصول فيلم «فوكستروت» على جائزة لجنة التحكيم الكبرى في الدورة الرابعة والسبعين من مهرجان البندقية السينمائي ٢٠١٧، وبدرجة أكبر، فوزه بجائزة الأكاديمية الإسرائيلية للأفلام «أوفير»، ما سمح بترشيحه إلى جوائز الأوسكار ممثلاً لإسرائيل في فئة أفضل فيلم أجنبي.

وزيرة الثقافة والرياضة الإسرائيلية، ميري ريغيف، نددت، حينها، بهذا الخيار وهاجمت الفيلم، بالرغم من اعترافها بأنها لم تشاهده، حيث يظهر في أحد المشاهد جنود إسرائيليون يقتلون فلسطينياً بريئاً في لحظة ذعر وارتباك، قبل أن يقوم أحد الضباط، لاحقاً، بطمس الجريمة التي ارتكبوها.

واتهمت ميري ريغيف الفيلم بالترويج لـ «تهمة الدم»، وهي التهمة التي وجهت إلى اليهود في القرون الوسطى بقتل الأطفال المسيحيين لاستخدام دمائهم في طقوس مختلفة، قائلة في شريط فيديو نشرته على صفحتها الخاصة على فيسبوك: «بصفتي وزيرة ووالدة خدمت في الجيش الإسرائيلي، أشعر بالخجل لحصول فيلم كهذا على جائزة مرموقة للغاية»، متهمة الفيلم بالتشهير والكذب فيما يتعلق بالجيش الإسرائيلي.

شخصية وزيرة الثقافة الإسرائيلية ميري ريغيف، وهي عضو في حزب الليكود اليميني الذي يتزعمه بنيامين نتانياهو رئيس الحكومات اليمينية المتعاقبة، وآخرها الحكومة الأكثر تطرفاً وعنصرية، كانت تشغل منصباً في الرقابة العسكرية، وكانت قد أثارت الكثير من الجدل منذ تعيينها وزيرة ثقافة في حكومة نتنياهو في أيار ٢٠١٥، بسبب هجماتها المتكررة على الوسط الفني الإسرائيلي الذي

كان يرتبط تقليدياً باليسار، لدرجة أنه لم توجه لها دعوة لحضور حفل توزيع الجوائز في مهرجان «أوفير» العام ٢٠١٧، هي التي كانت قبلها بعام، وتحديداً في ٢٢ أيلول ٢٠١٦، غادرت قاعة حفل توزيع جوائز «أوفير» للأعمال السينمائية الإسرائيلية في «أسدود»، احتجاجاً على أغنية قدمها ابن «اللد»، الفنان تامر نفّار، وكلماتها مأخوذة من قصيدة «سجّل أنا عربي» للشاعر الفلسطيني الكبيرمحمود درويش، ومن ثم عادت بعد نصف ساعة إلى القاعة لتخطب وتوضح السبب وراء خروجها، بقولها أنها لا تعارض الهوية العربية، ولكنها ترفض أحد أبيات القصيدة لما تراه فيها من تحريض ضد اليهود في إسرائيل.. رغم ذلك لاقت ريجيف ضجة أحدثتها أصوات المعارضين في القاعة منعتها من إلقاء كلمتها بصورة متواصلة، وخلال كلمتها ردّ مؤدي الأغنية تامر نفار بالخروج من القاعة، كما ورفض جزءٌ من الفائزين بالجوائز أن يعتلوا المنصة لتلقّي الجوائز من يدها.

وعلى المستوى الدولي، أثارت ريغيف جدلاً، في العام ٢٠١٧، عندما ارتدت فستاناً، في مهرجان كان السينمائي الدولي في فرنسا، كانت عليه صورة قبة الصخرة في القدس الشرقية المحتلة، أما مخرج الفيلم الإسرائيلي شموئيل ماعوز فقد سبق له أن نال جائزة، في مهرجان البندقية العام ٢٠٠٩، عن فيلم «لبنان» الذي يظهر فظائع الحرب من منظار جهاز تصويب في دبابة إسرائيلية خلال الاجتياح الإسرائيلي للبنان العام ١٩٨٢.

لم تكن ريغيف، التي رحبت بعدم وصول «فوكستروت» الذي ترشح لتمثيل إسرائيل في أوسكار أفضل فيلم أحنبي، إلى القائمة القصيرة، مضطرة لأن تشاهد الفيلم الذي وجدت فيه تشويهاً لجيش الاحتلال الذي خدمت فيه، كما لم يكن على وزارة الثقافة والرياضة الإسرائيلية إنتاج فيلم «الطنطورة»، لإثبات أنهم مجتمع قويّ وديمقراطي، أو ليَدعّم المخرج صهيونيته، أو الصهيونية بمفهومها «السيّال» والقابل للكثير من التأويلات، فكان يكفي أن يتابعوا مشاهد إعدام مجنّد في جيش الاحتلال للشاب الفلسطيني عمّار مفلح (٢٢ عاماً) في بلدة حوارة، قرب نابلس، لتتعرف على لا أخلاقية هذا الجيش الذي يمارس الفظائع، هو والعصابات الصهيونية من قبله، وعصابات المستوطنين رفقته، وبات من يمثلهم من إرهابيّين، وزراء في حكومة بنيامين نتنياهو، أي سموتريتش، وبن غفير، ودرعي.

ولتفسير قيام وزارة الثقافة والرياضة الإسرائيلية، والمؤسسات والصناديق الرسمية الإسرائيلية،

بإنتاج أو المشاركة في إنتاج أفلام تنتقدها حكومة الاحتلال أو وزراء فيها، كما في حال «الطنطورة»، و»فوكستروت»، و»مولود في دير ياسين»، وغيرها الكثير، يمكن ملاحظة ارتباط العديد من المؤسسات الثقافية الإسرائيلية، بما فيها لجان وزارة الثقافة والرياضة الإسرائيلية، وإدارات المهرجانات واللجان الثقافية الإسرائيلية الرسمية، بالجهات «الأقل تطرفاً» في إسرائيل، بالعادة، وهو ما يمكن استنتاجه من خلال عدم دعوة إدارة «أوفير» لميري ريغيف وزيرة الثقافة والرياضة الإسرائيلية في العام ٢٠١٧، إثر الجدل الذي أحدثته بمغادرتها ثم عودتها ورد الفعل على ذلك في العام الذي سبقه.

وأشار الكاتب علاء حليحل، في تصريحات خاصة، نهاية كانون الأول ٢٠٢٢، إلى أنه يمكن تفسير ذلك، بأن ثمة لجاناً في صناديق السينما الإسرائيلية الداعمة للأفلام والإنتاجات السينمائية لا تزال خارج إطار الخضوع للتيار السياسي الجديد الذي يسيطر على الساحة، وأحياناً قد تخرج بعض هذه اللجان بقرارات مفاجئة لا تتسق وسياسات وزير ثقافة ورياضة إسرائيلي جديد أو من مقرر بأن يتسلم مهامه خلال أيام أو أسابيع، بمعنى أنها لجان قديمة تمرر مشاريع وتقرها بغض النظر عن نتائج أي انتخابات جديدة، مشدداً: هناك فرق ما بين التصريحات السياسية العامة وما بين اللجان.. ما يهمّ اليمين الاستيطاني في إسرائيل اليوم التأثير على اللجان، وبالتالي السيطرة على الاختيارات.

"المخرجون الجدد" في إسرائيل

و»المخرجون الجدد» في إسرائيل سبّاقون لما عُرف لاحقاً بـ»المؤرخين الجدد»، وإن كان المصطلح نُحت من قبل كاتب المقال في بحث سابق نشره على أجزاء في العام ٢٠١٦ بفصلية «قضايا إسرائيلية» الصادرة عن المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية (مدار).

ويمكن اعتبار فيلم «اسمي أحمد» (١٩٦٦) للمخرج أفشالوم كاتس وإنتاج رام ليفي، ليس فقط أول فيلم في إطار هذه الموجة الجديدة من الأفلام الإسرائيلية، بل أول فيلم يشهد ظهوراً فلسطينياً، وتناولاً لقضية فلسطينية في السينما الإسرائيلية، وهو من بطولة أحمد يوسف إغبارية، الذي شارك في كتابته، فعلى امتداد ٤٥ دقيقة يعالج الفيلم الوثائقي الدرامي العنصرية ضد العرب الفلسطينيين، عبر شخصية جامعي فلسطيني لا يجد فرصة عمل كما أترابه من اليهود داخل «دولة إسرائيل»، فيعمل في ورشة للبناء، وفي ظروف غاية في الصعوبة، ووسط اضطهادات متعددة، وقد

منعته الرقابة الإسرائيلية بدعوى أنه «يشوه الواقع».

وتحوّل رام ليفي من منتج إلى مخرج في التجربة السينمائية الأولى التي تناولت قضية النكبة والتهجير في السينما الإسرائيلية، وأعني فيلم «خربة خزعة» (١٩٧٨)، والمأخوذ عن رواية تحمل الاسم ذاته، وكانت أول رواية قصيرة لكاتب إسرائيلي يهودي، وهو يزهار سميلانسكي وكتبها في العام ١٩٤٩، وتتحدث عن النكبة الفلسطينية وتصف التهجير وتدمير القرى، مع أن يزهار، كان ضابطاً في «الهاغاناه»، ويصف في روايته تفاصيل التهجير والطرد الذي كان شريكاً فيه.

كان لهذه الرواية تأثير كبير في الأوساط الإسرائيلية والعالمية، وأعدت حولها مقالات ودراسات كثيرة، كان معظمها مضادا لهاً، فمنهم من اتهم الكاتب بأنه يشوه صورة المحارب الإسرائيلي وضميره، ومنهم من ادعى أنه لم يبرز أبداً حقيقة الفلسطينيين.

وأشارت الباحثة الأميركية اليهودية عراقية الأصل إيلا شوحط، ولها عدة دراسات في السينما الإسرائيلية، إلى أن فيلم «خربة خزعة»، من إخراج رام ليفي، هو بمثابة أول محاولة نقدية لرؤية الصراع العربي الإسرائيلي، لنجد بعض الإسرائيليين، حتى ممن يصفون أنفسهم بالليبراليين، اعتبر هذا الفيلم بمثابة دعاية لمنظمة التحرير الفلسطينية.

والفيلم الذي تم تصويره في قرية المدية قرب رام الله، أثار ضجة وقتها كونه كان ممولاً من التلفزيون الإسرائيلي الرسمي، بحيث أصدر وزير المعارف الإسرائيلي، آنذاك، زوفولون هامر، قراراً بمنع بث الفيلم، إلا أنه بث في نهاية المطاف، بعد حالة من الشد والجذب، وبعد تدخل ما يعرف باسم "سلطة البث الإسرائيلية"، حسب ما ورد عن "خربة خزعة" الرواية والفيلم في النسخة الإنكليزية من موقع "Goodreads" الإلكتروني.

وكان لموطي كيرشنباوم، الذي قدم وأخرج وأنتج العديد من البرامج للتلفزيون الإسرائيلي، ورحل نهاية أيلول من العام ٢٠١٥ ، دور مهم في أن يرى هذا الفيلم النور على التلفزيون الإسرائيلي الوحيد، آنذاك .. "لقد كان من الأعمدة الفقارية لسلطة البث، حيث قاتل فيها في سبيل تقدم حرية التعبير والإبداع، ومن أجل الاستقلالية عن إملاءات المؤسسة الرسمية، حيث إنه كمدير دائرة البرامج في القناة، كان في العام ١٩٧٨ وراء بث فيلم "خربة خزعة" من إخراج رام ليفي، رغم طلب المسؤولين في التلفزيون، وعدد من الساسة، منع بثه، كونه تجرّأ على أن يجلب، لأول وآخر مرة، رواية النكبة، ورفعها إلى ساعة الذروة في البث التلفزيوني، وعبر القناة الخامسة التلفزيونية

الإسرائيلية الوحيدة في حينه، حسب ما أوردته أسرة تحرير صحيفة «هآرتس» الإسرائيلية في افتتاحية بعنوان «التلفزيون الذي كان ولم يعد»، وتحديداً في عدد ٢٧ أيلول ٢٠١٥.

واللافت في الفيلم أنه يعتبر «أول محاولة سينمائية نقدية لرؤية الصراع العربي ـ الإسرائيلي، لتبرز هنا عملية قلب الأدوار، فيؤدى ممثلون فلسطينيون ادواراً إسرائيلية، وممثلون إسرائيليون أدوارا فلسطينية، وفق ما جاء في مقال نشر في جريدة البيان الإماراتية، بعنوان «السينما الفلسطينية في القرن العشرين»، بتاريخ ٢٦ كانون الثاني ٢٠٠٢.

وكان ليفي اقترح الفيلم للمرة الأولى العام ١٩٧٢، لكنه رفض من قبل هيئة الإنتاج الإسرائيلية الرسمية، لكنه لم ييأس، وعاود الكرّة بعد خمس سنوات من المرة الأولى، أي في العام ١٩٧٧ عن نص لدانييال كرمي، على أمل أن يعرض في الذكرى الثلاثين لـ»استقلال إسرائيل"، وقيل بأن المشروع تم إقراره هذه المرة، وتم منح موازنة له قدرها ٧٠٠ ألف شيكل إسرائيلي، وهي موازنة ضخمة لفيلم، وفق مقال لنوح عفرون في صحيفة «هآرتس» الإسرائيلية بعنوان «أمير العودة»، نشر في ٦ كانون الأول ٢٠٠٨.

في ذلك الوقت، وحسب المقال ذاته، نقل عن ليفي قوله إنه تمّ إنجاز الفيلم في آب من العام ١٩٧٧، وأن التصوير كان في الضفة الغربية.. وفي العام ١٩٧٧، وعقب إنتاج الفيلم، انتخبت حكومة إسرائيلية جديدة برئاسة مناحيم بيغن، وزار الرئيس المصري الراحل أنور السادات إسرائيل، وبدأت شخصيات من مختلف الأطياف السياسية الإسرائيلية تتساءل عن جدوى عرض مثل هذا الفيلم في ذلك الوقت، حيث كان من المفترض أن يبث الفيلم في السادس عشر من كانون الثاني العام ١٩٧٨، ولكن في ذلك اليوم، اجتمعت اللجنة السياسية الإسرائيلية المصرية المشتركة الأولى في القدس، واعتبر أنه من غير المناسب عرض الفيلم ... إلا أنه، وبعد انهيار المحادثات في شباط من العام ذاته، تقرر عرض الفيلم في برنامج حواري سياسي، لتمكين العامة في إسرائيل من نقاشه، وعقب ذلك اجتمع مجلس هيئة الإنتاج الإسرائيلية الرسمية، وعارض قرار البث عضوان بارزان في الهيئة، قبل أن يخرج وزير التربية والتعليم (المعارف) الإسرائيلي، آنذاك، زوفولون هامر، ليقرر حظر الفيلم، ومنع بثه على الإطلاق، حسب مقال عفرون في «هآرتس» الإسرائيلية.

وأثار قرار المنع هذا، جدالاً عاصفاً في «الكنيست»، من خلال يوسي ساريد، الذي قال إن "ساري حرية التعبير في إسرائيل كسر في إسرائيل»، حسب ما أورده عاموس كارمل، في مقاله «خربة

خزعة.. فيلم الديماغوجية»، ونشر في صحيفة «دافار» الإسرائيلة، يوم ١٠ شباط ١٩٧٨، في حين أشارت مصادر أخرى أن تعبير ساريد كان «ساري حرية التعبير في إسرائيل الذي كسر من النصف».

بيغن نفسه أعرب عن اندهاشه من قرار المنع، وفق مقال «دهشة إزاء قرار مجلس الوزراء بتأجيل عرض خربة خزعة» لجدعون ألون، في «هآرتس»، يوم ٨ شباط ١٩٧٨.

ومن الجدير ذكره أن موظفي هيئة الإنتاج الإسرائيلية، قاموا بـ"تسويد" الشاشة لثمانية وأربعين دقيقة، في اليوم الذي كان من المقرر عرض فيلم "خربة خزعة" فيه، وبالتحديد السادس من شباط ١٩٧٨، حسب أنيتا شبيرا في مقالها «حول خربة خزعة» بمجلة «إسرائيل» الأدبية، العدد ٢١ في العام ٢٠٠٠.

وحسب شبيرا، جاء قرار «التسويد» من النقابة احتجاجاً على قرار الهيئة ممثلة بإدارتها بالسماح للحكومة الإسرائيلية بالتدخل في البث التلفزيوني، إلا أن الفيلم، الذي كما في الرواية المقتبس عنها يروي حكاية تهجير الفلسطينيين في قرية افتراضية أطلق عليها اسم "خربة خزعة"، عرض في الثالث عشر من الشهر نفسه، واشتهر ليفي كواحد ممن استطاعوا مقاومة نظام مسيّس بأكلمه، فكان عرض الفيلم بمثابة تحول في مسيرته السينمائية، حيث صبت أفلامه اللاحقة في اتجاه الطعن والتشكيك بالأساطير المؤسسة لإسرائيل.

ما قبل وما بعد «خربة خزعة»، أو بالتزامن معه كان هناك العديد من الأفلام التي يمكن إدراجها تحت مسمى «السينما الإسرائيلية الجديدة»، في وقت إنتاجها، ولكنها لم تكن «جديدة» تماماً، حيث عمدت إلى تقديم مواضيع لم يسبق التطرق إليها، ولكن دون التعارض مع مفاصل أساسية في الرواية الصهيونية، وإن حاولت، في بعضها، الحديث عن ذلك، ولو عن بعد، أو بالتلميح.

واستعرضت مجلة أمواج الثقافية، وصدرت في الإسكندرية، وتحديداً في عددها الأول، في تشرين الأول من العام ١٩٩٩، أبرز هذه المحاولات ومن بينها فيلم «من أجل الفلسطينيين: إسرائيلية تشهد" (١٩٧٤) إخراج أدنا بوليتى، والذي يتضح من عنوانه محاولة المقاربة التي تحدثنا عنها، والتي تسعى لإظهار إسرائيل دولياً بصورة الدولة الديمقراطية، خاصة ما بعد حرب العام ١٩٧٣، وهو يقدم بجرأة كبيرة، في ذلك الوقت، واقع حياة الفلسطينيين تحت الاحتلال، ومظاهر رفضهم لهذا الاحتلال الذى يتصرف بعنصرية واضحة، حيث يمارس أبشع أنواع القمع السياسي والجسدي، ويستولي على الأراضي بالقوة ويستغل الأيدي العاملة الفلسطينية.. وفي العام ١٩٧٧، خرج إلى

العلن فيلم "عملية رجال الصاعقة"، من إخراج مناحم جولان، وتدور الأحداث حول العملية التى نفذتها "القوات الخاصة الإسرائيلية" على مطار عنتيبي بأوغندا، لإطلاق سراح ركاب طائرة "العال" الإسرائيلية التي اختطفتها مجموعة فدائية فلسطينية، وحولت مسارها إلى أوغندا.

فيما وجدت الباحثة الإسرائيلية إيلا شوحط، وتعرف بنفسها بـ»العربية اليهودية»، وفي كتابها «السينما الإسرائيلية: تاريخ وإيديولوجيا»، أن هذه موجة في السينما الإسرائيلية، انعكست في أفلام تهتم بوضع الفلسطيني، بعد «خربة خزعة» لرام ليفي، ومنها: «الطبق الفضي" لجاد نئيمان، و"وراء القضبان" لأوروي باراباش، و"ابتسامة الجدي" لمشعون دوتان، و"جسر ضيّق جداً" لنسيم دايان، و"إستير" لعاموس غيتاي، و"إصبعان من صيدا" لإيلي كوهين، وبطبيعة الحال الفيلم الريادي في هذا الاتجاه، أي "خماسين" لدنيئيل فاكسمان.

وفي العام نفسه، أنتج فيلم «فلسطيني في إسرائيل»، أو «الكفاح من أجل الأرض»، لماريو أوفنبيرغ، ويتناول الفيلم مشكلة الأرض، من خلال تسليط الضوء على ثلاث حالات: قرية صفورية في الجليل، وقرية عرعرة في المثلث، ومدينة تل أبيب، داخل الأراضي المحتلة العام ١٩٤٨، حيث استخدم المخرج وثائق تاريخية، وتسلح بشهادات مصورة لستة متحدثين من الفلسطينيين والعرب واليهود المعادين للصهيونية، وهم: مصطفى سليم، وعبد المجيد الرشيد من الفلسطينيين الذين طردوا من أرضهم عنوة، وعلي الأزهري وأحمد مصاورة من العرب السوريين، وإسرائيليين من «يهود عين جيل وأودد بلوفسكي»، والذي عبروا عن رفضهم للصهيونية، لما حدث من احتلال قرية صفورية التي دمرتها قوات العصابات الصهيونية العام ١٩٤٨، وطردت كل سكانها، ومنعتهم من العودة إليها، في حين أشار الفيلم إلى أن العصابات ذاتها استولت على ٣٦ ألف هكتار من أصل ٤٠ ألفاً من قرية عرعرة، وأشار إلى أن تل أبيب أقيمت على أنقاض قرية «كروم جبالي العربية"، وأنها طردت سكانها أيضا، حسب مقال السينما الإسرائيلية المرحلة الرابعة (١٩٧٣- ١٩٨١)، ونشر في مجلة أمواج الثقافية، العدد الأول، في تشرين الأول ١٩٩٩.

وتأتى أهمية هذا الفيلم بتأكيده على ألسنة المتحدثين سواء من اليهود أو من العرب أنه لا حل للقضية دون الاعتراف بالحقوق المشروعة للشعب العربى الفلسطيني، وفق مقال مجلة أمواج الثقافة، آنف الذكر.

خماسين

وقبل إنتاج فيلم "خماسيين» الشهير لدنيئيل (داني) فاكسمان في العام ١٩٨١، أنتج في العام ١٩٧٨ لماريو أوفنبيرغ فيلم «الطريق الصعب إلى فلسطين»، وهو فيلم يعبّر عن إمكانية أن يتعايش الشعب اليهودى مع الشعب العربى الفلسطينى على أرض فلسطين، من خلال تأكيده فى البداية بأن العرب واليهود كانوا يعيشون معاً في سلام على هذه الأرض قبل إنشاء "إسرائيل".

ونرى فى الفيلم الكثير من الأحاديث واللقاءات مع عرب فلسطين ومع اليهود المعادين للصهيونية، وشهادتهم الحيّة عن التحول الذى جرى فى فلسطين بعد حرب ١٩٧٣.

وفي العام التالي، أخرج رودلف فان دنبيرغ، فيلم "سكان الغريب"، حيث جال بكاميراته في شوارع القدس ومدن الضفة الغربية وغزة والجولان، ملقياً الضوء على السيارات العسكرية وجنود الاحتلال المنتشرين فى كل مكان، وكأن البلاد فى حالة حرب حقيقية دائرة فى زمن إنتاج الفيلم، ويصور مظاهر التناقض والتفرقة بني عرب فلسطين واليهود، ويدخل إلى داخل المخيمات الفلسطينية، ويجري حديثاً مع امرأتين من سكان المخيمات ويسأل: إذا ما كانت المرأتان لا تزالان ترغبان فى العيش فى هذا البلد؟ .. فترد إحداهما بدهشة وعفوية: وهل هناك وطن آخر لنا؟.. إنها أرضنا وبلدنا وسوف نبقى، وكلنا أمل فى أن يحقق الله لنا العدل.

أما فيلم "خماسين" المثير للجدل على أكثر من مستوى، فتدور أحداثه فى قرية في الجليل بين شاب إسرائيلى يملك مزرعة وبيتاً يقيم فيها مع أمه وشقيقته، وخالد الشاب الفلسطينى الذى يعمل لديه في المزرعة التي كانت بالأساس فلسطينية... تتصاعد الأحداث فيمارس خالد الجنس مع شقيقة الإسرائيلي صاحب المزرعة الذي يعلم بذلك ويقوم بقتله فى مشهد وحشي، قبل أن ينتهي الفيلم بسقوط الأمطار على القرية، لتغسل ما سقط من دماء، ايذانا بنهاية موسم "الخماسين"، والرياح التي تعصف بكل شيء، وكأن الفيلم يدين العنف "من الطرفين».

ومع ذلك فإن المساواة في فيلم إسرائيلي، في ذلك الوقت، ما بين الضحية والجلاد، لم تكن مقبولة حتى لدى غالبية متلقي الفيلم عند عرضه في أكثر من مكان في إسرائيل، إلا أن البعض تحدث عن ترحيب من العرب واليهود بهذا الفيلم عند عرضه، كونه وازن بعض الشيء ما بين الفلسطيني صاحب الأرض، والصهيوني المحتل، وإن انحاز للصهيوني، كما أكد د. محمد مرسي في دراسة مهمة له بعنوان "التشويه المتعمد في السينما الصهيونية»، نشرت في مجلة «الرافد» الثقافية الإماراتية، أيلول ٢٠١٢.

ويرى مرسي، إلى أن عنوان الفيلم يشير إلى الرياح الصحراوية الحارة التي تهب على منطقة الشرق الأوسط في فصل الصيف حيث تضطرب المشاعر وتتعكر الأجواء.

ويروي فيلم "خماسين" قصة العلاقة بين جيداليا اليهودي الذي يملك مزرعة في إحدى قرى الجليل، وخالد العامل الفلسطيني الذي يقوم بكل "الأعمال القذرة" في المزرعة، في حين يتعامل جيداليا مع خالد معاملة ودية للغاية، فهو يدافع عنه إزاء هجوم بعض الشباب اليهودي المتطرف في القرية، ويشاركه القيام بالعمل بنفسه أحياناً في رعاية الماشية، بل ويشترك الاثنان أيضاً في الاستحمام، حسب ما ذكره مرسي.

يرغب جيداليا في شراء قطعة الأرض المجاورة التي تملكها أسرة فلسطينية عاشت دائماً على وئام مع أسرة جيداليا، لعل ينجح في استعادة أيام "الروّاد" الصهاينة، وتحقيق حلم والده الراحل.. يندفع جيداليا في رغبته على الرغم من تحذيرات أمه العجوز، لكن عائل الأسرة العربية الفلسطينية يتراجع عن بيع الأرض تحت ضغوط ابنه الشاب، ومجموعة من الشباب الفلسطيني، الذي يصفونهم اليهود بالعرب «المتطرفين» في القرية، أو كما يظهرهم الفيلم، فيلوح جيداليا إلى صاحب الأرض بما تعتزمه الحكومة الإسرائيلية من مصادرة قطعة الأرض، وأنّ من الأفضل له أن يبيعها بدلاً من أن يفقدها دون مقابل، لكن الرجل يتمسك بموقفه.

ثم يحدث التحول الدرامي والدراماتيكي في الفيلم، الذي يحوي كل عناصر الجذب السينمائي، إذا ما أخذنا بعين الاعتبار التقنيات السينمائية المتوفرة مطلع ثمانينات القرن الماضي، عندما تقيم "خافا" شقيقة جيداليا علاقة غرامية مع خالد، حيث يتردد الأخير على حجرتها كل ليلة.. يتسرب الخبر إلى جيداليا، فيخطط الانتقام من خالد، ويقوم بقتله في النهاية في مشهد وحشي عندما يطلق عليه ثوراً هائجاً في الحظيرة، فيما قد يراه البعض استعارة للتطرف الصهيوني أيضاً، وهو ما أثار حنق العديد من الإسرائيليين عند مشاهدة الفيلم.

ونموذج "خالد" في الفيلم يصبح "موضة" لأفلام لاحقة حول العلاقة "بين الشعبين» المُحتل والواقع تحت الاحتلال، فهو ضحية ظروف أقوى منه يضطر أمامها للرضوخ وقبول العمل في مهنة شاقة، واللافت أن الفيلم أظهره بمظهر الشاب الوسيم بدرجة تكفي لكي تجعل منه هدفاً حسيّاً لليهودية الشابة، التي درست الموسيقى في مجتمع تل أبيب العصري، وعادت بمفاهيم ليبرالية إلى القرية.

ويظهر خالد وكأنه واقع في تناقض، يسعى القائمون على الفيلم إلى إبرازه وكأنه سمة فلسطينية،

فهو من ناحية يقابل باللوم والتقريع العنيف من جانب أقرانه من الشباب الفلسطينيين في القرية، الذين ينظرون إليه بازدراء بسبب قبوله العمل في مزرعة جيداليا اليهودي، ومن ناحية أخرى يعاني من الإحساس بالذنب بسبب متعته بحماية جيداليا له، على عكس زملائه الذين يتعرضون لاعتداءات اليهود المتطرفين، ومن ناحية ثالثة يشعر خالد بضآلة وضعه بالنسبة للفتاة التي أرادته أداة للمتعة الحسية، ويخشى في الوقت نفسه من عواقب علاقته بها، إلا أن أخطر ما يميز شخصية خالد، هو تقديمه كنموذج خال من الهوية، كل ما يشغله هو أن يعيش ويعمل في ظل الوضع السائد، وبالتالي استخدامه كنموذج للفلسطيني "المعتدل"، إن جاز التعبير، أما جيداليا فهو يمثل اليهودي "المعتدل" الذي لا يستطيع أن يظل على اعتداله أمام خرق الآخر الأدنى للتقاليد التي حكمت العلاقة بين السيد والتابع، كما استخلصت من الفيلم عقب مشاهدته أكثر من مرة مترجماً للإنكليزية،

وأرى أن خطورة الفيلم، وأهميته في ذلك الوقت، وفي ذات الإطار، تكمن في إلقاء اللوم على عاتق من يراهم القائمون عليه «متطرفين» من كلا طرفي الصراع، في استمرار ذلك الحاجز من سوء التفاهم وانعدام الثقة المتبادلة، ورغم تحامله على الفلسطيني الواقع تحت الاحتلال، إلا أن «خماسين» قدّم موقفاً غير مألوف في السينما الإسرائيلية، مطلع ثمانينات القرن الماضي.

وفي هذا الإطار ليس هناك ما يمنع من الإشارة في مشاهد عابرة إلى "التطرف" اليهودي، كما في مشهد اعتداء الشباب اليهودي بالضرب على مجموعة من الفلسطينيين "المسالمين»، الذين يبيعون البطيخ في خيمة على قارعة الطريق، أو قيام المشرفين على دار السينما في القرية بمنع الشباب الفلسطيني من ارتيادها، ومن ناحية أخرى، يدين الفيلم ما يدعيه من مظاهر التطرف من الجانب الفلسطيني، والتي هي مواقف وطنية أساسية بالنسبة لنا، فالتطرف الفلسطيني حسب الفيلم قد نراه يتمثل في رفض التعاون والعمل مع الصهاينة، أو التمسك بالأرض وعدم التفريط فيها بالبيع تحت إغراء المال أو التهديد بالمصادرة.

والفيلم مفعم بالمقارنات حول ظروف الحياة "داخل إسرائيل"، فيظهر العرب الفلسطينيون في صورة مختلفة بدائية في حياتهم اليومية، في حين تبدو الحياة داخل المزرعة الإسرائيلية في صورة نموذجية، كما يشير إلى ما يراه فارقاً حضارياً، نراه نحن مزعوماً، وفي كثير من الأحيان مقحماً

وخارج السياق العام للفيلم.

وقد يبدو ذلك نتيجة في اللاوعي للاحتلال الذي يفرضه طرف على آخر، ففي خلفية سيكولوجية، ينطلق الصراع كما يصوره الفيلم أساساً من التعصب الفردي والخضوع للقيم القديمة من جانب جيداليا، ولذا فإن الطرفين يدفعان الثمن بالقدر نفسه، خاصة ونحن نشاهد ما يحدث طوال الفيلم من وجهة نظر جيداليا وطبقاً لمنطقه، بما في ذلك المشهد الأخير، مشهد القتل، فالفيلم لا يدين سلوك جيداليا بقدر ما يبحث عن تقديم مبررات لها (سيكولوجية في معظمها(، كما لا يدعو المشاهدين إلى كراهيته بقدر ما يجعلهم يتعاطفون مع كلا الطرفين (جيداليا وخالد) بالدرجة نفسها، فالأول ليبرالي فشل في قهر أحاسيسه الذاتية، والثاني ضحية لظروف أكبر من إرادته المنعدمة على أي حال، لكنه أيضاً يدفع ثمن خطيئته.

وفي هذا السياق، يمكن فهم الإقبال الكبير من جانب الجمهور اليهودي والفلسطيني داخل إسرائيل على مشاهدة الفيلم، والرفض ومن ثم الترحيب الذي لقيه من كلا الطرفين: من الطرف اليهودي لأنه يختزل الصراع في منظور أخلاقي ونفسي محدود القيمة والأثر، ومن الطرف الفلسطيني العربي لأن التفوق الجنسي الذكوري العربي على الضعف الأنثوي اليهودي، يخلق لدى المشاهدين من جمهور الشباب في الأرض المحتلة إحساساً وهمياً زائفاً بالتفوق، تعويضاً عن القهر المادي المباشر الواقع عليهم!

ومع أن هذه الأفلام تقترح صوراً متقدمة في تاريخ العرض الإسرائيلي للصراع، فإنها تعمل ضمن إطار المقولات العامة للصهيونية، وفق ما رأيت، ووفق ما رأى موسى في الدراسة المشار إليها أعلاه، وهو ما لم تخرج عن إطاره الأفلام الإسرائيلية، التي رغم أن عديد الفلسطينيين والعرب ومن يصنفون أنفسهم باليساريين أو الليبراليين أو التقدميين الإسرائيليين، يرونها أفلاماً شجاعة وجريئة صادمة، وتخدش الشعور الجمعي الصهيوني، إلا أنها لا تغادر عباءة الصهيونية، وتبقى، وإن أثارت الجدل بشكل ما، تحت سقف البيت الصهيوني.

وهذا ينطبق على غالبية الأفلام التي ظهرت ما بعد «خماسين» في إطار ما يمكن وصفه بـ»الموجة الجديدة» في السينما الإسرائيلية، والتي كانت رافعة لظهور «المخرجين الجدد»، وإن كان أغلبهم يقرون بصهيونيتهم، وبالتالي ليسوا «جدداً تماماً».

..والقائمة تطول

ومن بين هذه الأفلام «وراء القضبان» للمخرج الإسرائيلي أوري باراباش، ومن بطولة النجم الفلسطيني محمد بكري وآخرين، وحظي على شهرة كبيرة في الأوساط العالمية، بل وجد ترحيباً من جانب بعض النقاد العرب، الذين وجدوا فيها ما يحوي تعاطفاً كبيراً مع الفلسطينيين، وكذلك فيلم «نهائي الكأس» للمخرج الإسرائيلي عيران ريكلس، في مطلع تسعينات القرن الماضي، واستخدم فيه العربية بكثافة غير مسبوقة في السينما الإسرائيلية، بل أتاح المساحة برحابة أكثر من غيرها، وإن لم يغادر البيت الصهيوني، لإظهار الجانب الإنساني لدى الفلسطيني، ولكن دون إظهار جوانب سلبية عديدة ظلت ترافقه في غالبية الأفلام الإسرائيلية، التي هي بالأساس صهيونية، روائية بالأساس، ووثائقية أيضاً، حيث لا إدانة واضحة لليهودي، ولو كان قاتلاً، ولا اعترافاً كاملاً بالحق الفلسطيني، إلا في الندر اليسير من الأفلام التي في غالبيتها ذات إنتاج أوروبي أو مشترك لمخرجين إسرائيليين، ومن بينها أفلام تناقش قضايا إسرائيلية داخلية كفيلم «ما وراء الخوف» للمخرجين هيزر فرانك وماريا كرافشنكو، ويتحدث عن بيغال عمير، اليميني المتطرف الذي اغتال رئيس الوزراء الإسرائيلي الأسبق إسحق رابين، والتساهل في موضوع زواجه من امرأة روسية بالتدريج بينما يقضي سنوات عمره في السجن، وهو الفيلم الذي هددت على إثره وزيرة الثقافة الإسرائيلية، وقتذاك، ميري ريغيف، بوقف تمويل مهرجان القدس السينمائي الدولي الإسرائيلي، حال اشتراكه في المسابقة الرسمية، في تموز من العام ٢٠١٥، ما دفع إدارة المهرجان إلى عرضه، ولكن خارج المسابقة الرسمية، وهو ما أثار حفيظة الكثير من «المخرجين الجدد» أو مخرجي «الموجة الجديدة في إسرائيل»، وغالبيتهم العظمى من الصهاينة، كناداف لابيد، وياديد كدايا، وشلومو الكابتز، ورعنان ألكسندروفيتش.

والقائمة في إطار ما أسميته «المخرجون الجدد في إسرائيل» تطول، وصولاً إلى ألون شفارتس مخرج «الطنطورة» الوثائقي، الذي احتفى به الفلسطينيون كثيراً، رسمياً وبعض الشيء شعبياً أو لدى بعض «النخب»، حد عرضه في دور السينما الفلسطينية بتنظيم من الهيئة العامة للإذاعة والتلفزيون الفلسطينية، وبحضور وترحيب قيادات سياسية عدّة، بفيلم تعرّض لمنع وانتقادات إسرائيلية رسمية كثيرة، لكن مخرجه، الذي خدم سابقاً في جيش الاحتلال الإسرائيلي ومخابرات دولة الاحتلال، بقي مصرّاً في جل لقاءاته على صهيونيته، وتمسكه بها! .

البحث عن إسرائيل القديمة!

أحمد الدبش

يتفق معظم علماء الآثار التوراتيين، ويساندهم في ذلك السادة حراس وأصحاب الفكر الآسن في جامعاتنا ومراكز أبحاثنا، على أن نشوء إسرائيل القديمة في بلادنا فلسطين تم نحو ١٢٠٠ ق.م، وهي الفترة الانتقالية الواقعة بين أواخر العصر البرونزي وأوائل العصر الحديدي، وتلك هي الفترة التي يطلق عليها عادة فترة«النشوء»، أو«أصول» إسرائيل. وهي الفترة التي يفترض أن تكون إسرائيل (المزعومة) تلك قد سيطرت فيها على فلسطين، لكنهم يختلفون اختلافاً حاداً حول الكيفية التي تمت بها السيطرة على تلك البلاد. فالجدل المتعلق بجذور ونشوء إسرائيل القديمة يصور عموماً كأنه نقاش حول ثلاثة نماذج أو فرضيات.

نموذج الغزو

لعل تقاليد إسرائيل، التي حفظتها لنا أسفار «العدد» و«يشوع» و«القضاة»، ذاتها هي أكثر التقاليد التي تحظى بألفة واسعة نظراً لتقديسها داخل نطاق الثقافة اليهودية ــ المسيحية، وتطرح علينا صورة غزو عسكري شامل. ومن المفترض أن ذلك حدث خلال فترة زمنية قصيرة نسبياً لا تتجاوز سبع سنوات، فقد جاء في سفر يشوع (١٤: ٧- ١٠): «كُنْتُ ابْنَ أَرْبَعِينَ سَنَةً حِينَ أَرْسَلَنِي مُوسَى عَبْدُ الرَّبِّ مِنْ قَادَشِ بَرْنِيعَ لأَتَجَسَّسَ الأَرْضَ. فَرَجَعْتُ إِلَيْهِ بِكَلاَمٍ عَمَّا فِي قَلْبِي. وَأَمَّا إِخْوَتِيَ الَّذِينَ صَعِدُوا مَعِي فَأَذَابُوا قَلْبَ الشَّعْبِ. وَأَمَّا أَنَا فَاتَّبَعْتُ تَمَامًا الرَّبَّ إِلهِي. فَحَلَفَ مُوسَى فِي ذلِكَ الْيَوْمِ قَائِلاً: إِنَّ الأَرْضَ الَّتِي وَطِئَتْهَا رِجْلُكَ لَكَ تَكُونُ نَصِيبًا وَلأَوْلاَدِكَ إِلَى الأَبَدِ، لأَنَّكَ

اتَّبَعْتَ الرَّبَّ إِلهِي تَمَامًا. وَالآنَ فَهَا قَدِ اسْتَحْيَانِيَ الرَّبُّ كَمَا تَكَلَّمَ هذِهِ الْخَمْسَ وَالأَرْبَعِينَ سَنَةً، مِنْ حِينَ كَلَّمَ الرَّبُّ مُوسَى بِهذَا الْكَلاَمِ حِينَ سَارَ إِسْرَائِيلُ فِي الْقَفْرِ. وَالآنَ فَهَا أَنَا الْيَوْمَ ابْنُ خَمْسٍ وَثَمَانِينَ سَنَةً».ونستطيع أن نرصد اتجاهين بارزين. الاتجاه الأول (الذي ورد ذكره ما لا يقل عن ثلاث مرات) ويشتمل على هجوم من «قادش» باتجاه الشمال إلى داخل وادي «النقب» عند «حرمة» (سفر العدد ١٤: ٤٥) و«أرد» (سفر العدد ١٢: ١- ٣)، وهذه خطوة حاق بها الفشل في سفر «العدد» ولكن سفرى «يشوع» و«القضاة» يعلنان أنها كانت ناجحة. والقسم الثاني فيأتى بالإسرائيليين خلال «إيدوم» و«مؤاب» إلى السهل الواقع شرقي الأردن، إلى الشمال مباشرة من البحر الميت (سفر العدد ٢١: ١٠- ٢١) حيث انقسم الهجوم إلى شعبتين. فمضى طابور باتجاه الشمال إلى «جلعاد» (سفر العدد ٣٢: ٣٩) و«باشان» (سفر العدد٢١: ٣٣- ٣٥) كما دحر أيضاً «مديان» (سفر العدد ٣١). أما الشعبة الأخرى فعبرت نهر الأردن وتوغلت حتى المرتفعات الواقعة شمالى «أورشليم» عند «جبعون» (سفر يشوع ٢- ٩) ومن «جبعون» انطلقت حملة باتجاه الجنوب كى تؤمن مرتفعات «يهودا» وسفوح التلال (سفر يشوع ١٠: ٢٨- ٣٩) في حين قهرت حملة أخرى سارت باتجاه الشمال، الساحل و«الجليل» وشمال وادى الأردن (سفر يشوع ١١: ١- ١١) وذهبت الروايات إلى أن العديد من المدن والمناطق قد عُمِّرت بالسكان: «حرمة» (سفر العدد ١٤: ٤٥) و«أرد» (سفر العدد ٢١: ١- ٣) و«مديان» (سفر العدد ٣١) و«جبعون» (سفر يشوع ٩) و«يرموت» (سفر يشوع ١٠: ٣ ، ٢٣) أو جرى الاستيلاء عليها وخضعت للتدمير «حشبون» (العدد ٢١: ٢١- ٣٠) و«أدرعى»(العدد ٢١: ٣٣- ٣٥) و«أريحا» (سفر يشوع ٧: ٢، ٨: ٢٩) و«حازور» (سفر يشوع ١١: ١١).

حتى القراءة العابرة لهذه الرواية كفيلة بإثارة الشكوك. فالمدن التي تتمتع بتحصينات هائلة تسقط أمام بدو يسطاء، خرجوا للتو من الصحراء («لاخيش» الجبارة لا تأخذ أكثر من يومين وفقاً لسفر يشوع ١٠: ٣١)، وهو عمل بطولى وجدت جيوش فرعون ذاتها صعوبة كبيرة في إنجازه. وبعض تلك المدن سقط مرتين في ذلك السجل (قارن «بيتيل» يشوع ١٢: ١٦، سفر القضاة ١: ٢٣) وبعضها الآخر سقط ثلاث مرات (قارن «حبرون» يشوع ١٠: ٣٦ وما بعده، ١٥: ١٣، يهوديت ١: ١٠، «دبير» يشوع ١٠: ٣٨، ١٥: ١٥- ١٧، القضاة ١: ١١، و«حرمة» العدد ٢١: ٣، يشوع ١٢: ١٤، القضاة ١: ١٧).

زد على ذلك أن المقارنة التفصيلية لهذه الرواية العبرانية للاستيلاء على فلسطين مع الأدلة المستقاة من مصادر خارج نطاق «التوراة»، تكذب هذه الرواية جملة وتفصيلاً.(٢٨)

لقد كان النقد قاسياً: قبل كل شيء، إن موجة الغزو، عندما تصل إلى التدمر وإعادة الاستيطان، تكون على نحو ما واضحة كما تصورها المؤيدون لهذه النظرية. لكن الآثار تظهر أن أريحا لم تكن موجودة أيام يشوع (من المحتمل أنها قد دمرت قبلئذ في منتصف القرن السادس عشر قبل التأريخ الشائع). ولأن يشوع لم ينهب ولم يحرق مدينة باسم عاي، فقد كانت هذه المدينة خراباً منذ عام (٢٣٠٠ ق.م) عندما هُجرت في نهاية العصر البرونزي المبكر. ولم يُعدْ بناؤها أبداً؛ الاسم يقول هكذا، إذ يعني (تل). لذلك فإن يشوع قد غزا تلاً مهجوراً كان موجوداً في الجوار لمدة ألف سنة! أخيراً سيكون قد عانى المشكلات للتوصل إلى ميثاق مع سكان مدينة جبعون، نظراً لأن هذه المدينة لم يجر تأسيسها، ولم تكن سوى قرية، في القرن الثاني عشر قبل التأريخ الشائع، أي وفقاً لتقدير الأثريين الذين نقبوا عن جبعون في الستينيات.في الختام، من دون أن تكون بحاجة لأية حجة أخرى، فمن السهل أن نثبت أن غزواً مثل الغزو الموصوف في سفر يشوع لم يحدث أبداً. (٢٩)

***نموذج الهجرة**

أدت دراسة ألبرخت آلت Albrecht Alt التمهيدية بعنوان»حيازة الإسرائيلي للأرض في فلسطين Dia Landnahme der Israeliten Palastina) «)، والتي نشرت عام(١٩٢٥) إلى تطورما أصبح يعرف بنموذج التسللInfiltration أوالهجرة Immigration لفهم جذور إسرائيل، وهو ما تم وصفه عموماً بأنه تسلل/ هجرة الإسرائيليين »السلمية «إلى فلسطين، هذه الفرضية المرتهنة بمناهج البحث الألمانية، وبالأخص آلت Alt ، ونوث Noth، وويبرتM. Weippert ، كانت ذات تأثير بالغ في خطاب الدراسات التوراتية، بعدما يقرب من ثلاثة أرباع القرن منذ صيغتها الكلاسيكية التي وضعها من قبل آلت، ليس فقط فيما يتعلق بإعادة صياغة تلك الفرضية من قبل باحثين جدد، ولكن من خلال سلسلة من الأفكارالتي أخذت على علاّتها وكأنها حقيقة ثابتة في خطاب الدراسات التوراتية، ومن ثم لم تتم مناقشتها بما تستحقه من الاهتمام. ولاتزال هذه الفرضية تتمتع بقبول كبير وبالأخص في الأعمال الحديثة لعالم الآثارالإسرائيلي إسرائيل

فينكلشتاين Israel Finkelstien.(٣٠)

اقترح آلت، بأن الإسرائيليين كانوا رُعاة (مُرَبِّي ماشية) يتجوَّلون بقطعانهم في هجرات مَوْسميَّة ثابتة بَيْن حافَّة الصّحراء والأراضي المُستقرَّة، في وقت ما قُرْب نهاية العصر البرونزي المُتأخِّر ــ ولأسباب لم تتَّضح له بشَكْل كاملٍ ــ بدأوا بالاستقرار في مُرتفعات كَنْعَان المُستقرَّة المُتناثرة.

طبقاً لـ آلت، تَّمت العَمَليَّة ــ في الواقع، بنَحو تدريجيّ وسلميٍّ جدَّاً ــ في البداية. قام الإسرائيليون الرُّعاة بتنظيف الغابات، وبدأوا بمُزاولة زراعة مَوْسميَّة ضيِّقة النّطاق، إلى جانب رعي القطعان. ومع الوقت؛ تبنّوا أُسلُوب معيشةٍ أكثر استقراراً، مُنشئين قُرَى دائمةً، ومُركِّزين جَهْدَهُم على الزّراعة. ولم تبدأ مُشكلتهم مع الكَنْعَانيين إلاَّ في الأوقات اللاَّحقة، وذلك عندما ــ بحسب هذه النظرية ــ تكاثر المُتوطِّنُون الجدد، وازدادت أعدادهم، وبالتَّالي؛ ازدادت حاجتهم ــ بشَكْل مُتصاعد ــ للأرض والماء. أدت النزاعات على حُقُوق الماء والأرض إلى حُدُوث اشتباكات، أو مُناوشات محلية، كانت ــ في النهاية ــ الخلفيَّة الحقيقيَّة للصّراع بَيْن الإسرائيليِّيْن وجيرانهم، الذي ينقله لنا سفْر القُضَاة بشَكْل واضح وحَيَوي. (٣١)

رغم أنَّ فَرَضيَّة التَّسرُّب السِّلْميَّة كانت فرضية نظرية جداً، كانت اقتراحاً مُغرياً. إنها كانت منطقية، وتُلائم الخلفيَّة السُّكَّانيَّة والاقتصادية للبلاد، وتُلائم القَصَص في سفْر القُضَاة، التي ــ على أيِّ حال ــ عُدَّتْ أكثر تاريخيَّة من روايات المعارك الملحميَّة لكتاب يشوع. كانت تمتلك نقطة إيجابية أُخرى؛ وهي أنها بدتْ مدعومة ومُؤيَّدة بالنُّصُوص المصريَّة القديمة. وصفَتْ ورقة بردى مصرية من أيام رمسيس الثاني في القرن الثالث عشر ق.م، الذي كانت تُسجِّل مُسابقة بين كاتبين على جَغرافيَّة كَنْعَان، وصفت مناطق التلال كمنطقة مُشجرة وعرة، وفارغة تقريباً، مُستوطنة من قبل البدو «الشُّوصيِّيْن». لذا؛ اعتقد آلت أن الإسرائيليين يُمْكنُهم أنْ يَكُونُوا ــ في الحقيقة ــ نفس أُولئك «الشُّوصيِّيْن». مراحلهم الأوَّليَّة من الإقامة وترك التّرحال في المُرتفعات لَمْ تَجْذبْ عداوة المصريِّيْن؛ لأن مصر كانت مُهتمَّة ــ بشكل رئيسي ــ بالمناطق الخصبة على طُول السّاحل وفي الوديان الشّماليَّة، القريبة من الطُّرُق الإستراتيجيَّة البرية للتّجارة الدّوليَّة.(٣٢)

والواقع أن المؤيدين الرئيسيين الآخرين لهذا النموذج، وهما نوث Noth، وويبرتM.Weippert ، لم يدخلا أي تغييرات ذات شأن على آراء آلت Alt، تبنيا الافتراضات المهيمنة نفسها وروجا لها، يفترض نوث أيضا أن «من الطبيعي أن يكون تراث العهد القديم، مصيبا دون أدنى شك في

اعتبار أن القبائل لم تكن أصلية في فلسطين، بل إنها دخلتها واتخذت لها موطئ قدم في تلك البراري والسهول المقفرة في وقت محدد من الزمان». وأصبحت إسرائيل «حقيقة نهائية ودائمة في فلسطين»، كما يعتقد نوث أن هذه القبائل قد جلبت معها تراثا مهما من خارج فلسطين مما أسهم في تشكيل الوعي الذاتي والعقيدة بالنسبة لإسرائيل أثناء تطورها في فلسطين. كما أن وصفه الخاص للمستوطنات الإسرائيلية في المناطق القليلة السكان في المرتفعات لايعدو كونه تكرارا لما قاله آلت. وكما فعل آلت، فإن نوث أيضا استنتج أن هذه القبائل كانت نصف ــ بدوية تمر بعملية تحضر طويلة الأمد، وأن «العملية كلها تحدث، في بداية الأمر، بطرق سلمية ودون اللجوء إلى القوة».(٣٣)

إن نموذج الهجرة، مع ذلك يأخذ في الحسبان قومية «إسرائيلية» محددة: كان الإسرائيليون بدواً يرعون الماشية يهاجرون في الأراضي الواقعة شرق وجنوبي فلسطين. هكذا كانوا مختلفين إثنياً عن الكنعانيين، والصراع بين الإسرائيليين والكنعانيين أصبح القضية الأساس لإسرائيل الأولى. إن هذا التفسير، مع عدم كونه منسجماً كلياً مع الأدلة، تعرض للهجوم أيضاً من منطلق أثري. كما قيل، فإن النموذج يترك الانطباع أن الإسرائيليين دخلوا حيث اعتاد الكنعانيون أن يعيشوا، واستولوا على بلادهم بالطريقة نفسها عندما ندخل إلى شقة، مجهزة مسبقاً بالأثاث، من دون الحاجة إلى تغيير أي شيء. إن هذا يبدو مثل مجادلة ليست جدية جداً لكنها ذات دلالة على اتجاهات أكثر حداثة ضمن أثريات فلسطين التي غيرت الشروط لأجل فرضية الغزو الإسرائيلي لفلسطين في نهاية العصر البرونزي المتأخر، أي في حوالي ١٢٠٠ ق.م. إن الثقافة المادية للعصر الحديدي المبكر لم تتغير، سوى أنها أصبحت أفقر لأن العلاقات الدولية تفككت واختزل سكان فلسطين إلى أناس يعيشون حصراً على موارد الريف الخاصة الفقيرة إلى درجة ما. ولا توجد في الثقافة المادية أي إشارة إلى أمة جديدة وصلت حديثاً، ولم يتم العثور على دليل واحد على وجود بني إسرائيل.(٣٤)

نموذج الثورة

تعرضت نظرية «التَّسرب السِّلمي» [الهجرة] التي طرحها آلت لهُجُوم عنيف في سبعينات القرن العشرين؛ بسبب توفُّر مُعطيات إثنوغرافيَّة (علم أعراقيَّة) وأنثروبُولُوجية (علم إنسانيَّة) جديدة، وأكثر تفصيلاً بكثير عن العلاقة بَيْن البدو الرّعويِّيْن والمجتمعات المُقيمة المُستقرَّة في الشّرق

الأوسط. تمثل النَّقْدُ الرّئيسي للأفكار السّابقة حول الصّراع بَيْن الصّحراء والمناطق الزّراعيَّة، في بيان أنَّ المُزارعين ومُربِّي الماشية كانوا ــ في الواقع ــ مُتكاملين أكثر بكثير وأقلّ عُزلةً عن بعضهم البعض، بل كانوا ــ جوهرياً ــ مُكونات لُمجتمع واحد، ولذا؛ ظهرت ــ أثناء الستينات والسّبعينات ــ نَظَريَّة فريدة أُخرى حول أُصُول الإسرائيليين.

اقترحت هذه النَّظرية ــ التي طَرَحَهَا ــ لأول مرة ــ العالم بالكتاب المقدس الأميركي جُورج ميندينهال George Mendenhall، ثم وَسَّعَهَا، وفصلها ــ لاحقاً ــ المُؤرخ المُختص بتاريخ الكتاب المقدس وعالم الاجتماع الأميركي نُورمان غُوتوالد Norman Gottwald ــ بأن الإسرائيليين الأوائل لم يكونوا لا غُزاةً مُهاجمين، ولا بدواً مُتسلِّلين، بل كانوا فلاَّحين ثائرين فَرُّوا من مُدُن كنعان نحو التلال والهضاب الخالية. (٣٥)

عام ١٩٦٢، قال ميندينهال، بالاستناد مبدئياً على مراجعة أي. ف. كامبل E. F. Campbell لرسائل تل العمارنة في مجلة «بابيلكال أركيولوجست»Biblical Archaeologist عام ١٩٦٠ بأن نظام الدولة المدينية الكنعاني كان في العصر البرونزي المتأخر قاسياً وقمعياً وفاشلاً إلى حد كبير رغم أنه كان سائداً في فلسطين وسورية. وهذه الأقوال لم تكن مبالغة فريدة من نوعها، فقد تحدث كامبل عن مناطق واسعة في فلسطين لم تكن خاضعة لأي دولة مدينية. وأبعد من ذلك، حدد كامبل تاريخ رسائل العمارنة، التي تشكل المصدر التاريخي الوحيد لآراء ميندينهال، بأنه ١٣٧٦ إلى ١٣٥٠ قبل الميلاد وليس أواخر العصر البرونزي الذي يحدد بأواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الثاني عشر قبل الميلاد. فإذا كانت الدول المدينية التي تحدث عنها ميندينهال قد استمرت لمدة قرنين، فعلى المرء أن يتردد في قبول حكم ميندينهال على نظامها بالفشل. وهو بالإضافة لما تقدم، قبل مساواة كامبل بين تعبير «عابيرو» وتعبير «عبرانيين» واعتبراضطرابات العابيرو المذكورة في رسائل تل العمارنة، نشاطاً ثورياً. والعابيرو، بهذا المفهوم، ليسوا مجرد ناقمين لا موطن ولا دولة لهم،بل مجموعة تتميز بمعارضتها للنظام السياسي القمعي. أي، لكي تكون عبرانياً بنظر ميندينهال، يجب أن تكون مقاوماً لسلطة الدولة المدينية أو منعزلاً عنها. أما باقي نظرية ميندينهال القائمة على تفسير الـ«عابيرو» فترى أصل إسرائيل في ثورة داخلية قام بها العبرانيون ضد نظام الدولة المدينية القمعى، مما يشابه ويشكل إلى حد ما توسعاً في تفسير ما ورد في رسائل تل العمارنة عن اضطرابات «العابيرو». لذلك، وللتأييد القوي الذي تقدمه فرضية «الخروج اليهوهي» الذي

افترض حصوله خلال القرن الثالث عشر والثاني عشر، ارتأى أن ثورة العابيرو ــ العبرانيين (بخلاف الاضطرابات المذكورة في رسائل تل العمارنة) كانت ناجحة، وقد وصفها ميندينهال بتعابير دينية وسلمية، لأنها كانت بالنسبة له ثورة داخلية ونفسية، ولا يعكس هذا بالضرورة عواطف كامبل. كرر ميندينهال الحديث عن هذه النظرية عن الروح الإسرائيلية الثورية الاستقلالية في نقده اللاذع (عام ١٩٨٣) لما اعتبره إساءة من غوتولد لنظرية ثورة اجتماعية تنشر المساواة، أحدثت تحولاً جذرياً في السلطة. بالنسبة لميندينهال، وهو لاهوتي بروتستانتي أكثر منه مؤرخاً، كانت الحرية المنشودة دينية وروح الحرية ــ اليهوهية الثورية ــ تشكل بالنسبة له العنصر الأساسي في وجود إسرائيل، وتاريخية تعاليم موسى وعهد يهوه إسرائيل تشكل لب نظرية ميندينهال. انتفاضة العابيرو المذكورة في رسائل تل العمارنة كانت الفرصة الأولى للتعبير عن تلك الروح وسابقة تاريخية لتحرر إسرائيل باليهوهية من البعليم الكنعاني القمعي. كما ارتأى ميندينهال أن القرى الكنعانية أصبحت عبرية باعتناق الديانة لا النظام السياسي. (٣٦)

في عام ١٩٧٩، تبنَّى نورمان ك.غُوتْوَالد Norman K. Gottwald، عالم توراتي أميركي آخر، نظريات ميندينهال، ووسَّعَها في كتابه، »قبائل يهوه«،لكنه ذهب خُطوة للأمام أيضاً؛ وهاجم الدليل الآثاري مُباشرة. بينما رفض ميندينهال كل كلامٍ حول توطُّن واستقرار أنصاف البدو في منطقة التّلال والمُرتفعات وعلى حافَّات الصّحراء، اعتقد غُوتْوَالدأن هذه المواقع كانت ــ في الحقيقة ــ إسرائيليَّة، لكنَّه أتى بهذا التّعريف لأسباب مُختلفةٍ جداً. لقد فسَّر الحالة بأن الحُدُود البعيدة ومناطق الغابات كانت مكان جَذْبٍ طبيعي لأعضاء حركة الاستقلال الذين هربوا من السُّهُول والوُديان المأهولة بشكل كثيف بالسُّكَّان، (والمُسَيْطَر عليها بشَكْل مُباشر أكثر)، ليُؤسسوا لأنفسهم طريقة حياة جديدة. اقترح غُوتْوَالد أن استيطانهم في هذه المناطق الصخريَّة والفقيرة بالماء كان مُمكناً ــ بشكل رئيسي ــ بسبب التَّطوُّر التّكنُولُوجي: الأدوات الحديديَّة لحفر الصهاريج في قلب الصّخر، واللُّصاق ضد الماء لسَدِّ جُدران الصهاريج وإنشاء مصاطب وشُرفات مُسطَّحة على مُنحدرات المُرتفعات.

وعلى الصّعيد الاجتماعي؛ أضاف غُوتْوَالد أن الإسرائيليين أسَّسوافي مواطنهم الجديدة، مُجتمعاً أكثر مُساواةً؛ حيث وسائل الإنتاج متاحة للكل. وعلى المستوى الفكري؛ اقترح بأن الأفكار الجديدة للمساواة استوردت إلى كنعان بواسطة مجموعة صغيرة من النّاس جاؤوا من مصر، واستقرُّوا في

المُرتفعات. قد تكون هذه المجموعات تأثرت بالأفكار المصرية غير التقليدية عن الدِّين، كتلك التي حفَّزَت ثورة أخناتون التي طرحت أفكار القرن الرّابع عشر، التي كَانت أقرب إلى المفهوم الذي ظهر بعد زمن طويل للتوحيد. لذا؛ كانت هذه المجموعة الجديدة النُّواة التي تبلورر حولها المُستوطنُون الجُدُد في المُرتفعات.(٣٧)

يقول دونالد ريدفورد، عن هذه النظرية، هناك ثلاثة مباحث تتصل بصفة أساسية بمناقشاتنا هذه: «إسرائيل» لم تنشأ من عنصر عرقى متميز في البداية خارج «كنعان» لا مكانياً ولا ثقافياً، بل كانت منذ البدء جزءاً من نفس الأرومة الكنعانية بشكل أساسى، و«الإسرائيليون» ليسوا رعاة متسللين، بل جزءاً زراعياً مستقراً من المجتمع الكنعاني القائم على مدينة ــ دولة، بآلياتها من سن الضرائب والتجنيد والسخرة. وهناك نتيجة تفسر وجود التقاليد المذكورة بالإشارة ضمناً إلى أصل لـ«إسرائيل» خارج نطاق «كنعان» بصفتها قابلة، وحسب، للانطباق على «المجموعات الفرعية» التي انضمت في وقت لاحق إلى «الفيدرالية» القبيلية. وهناك نتيجة فرعية ثانية تستطيع أن تنظر إلى عبادة «يهوه» كـ«أسمنت» شعائرى أسس لوحدة «الفيدرالية» وأعطاها بؤرة تقليدية.(٣٨)

ينتقد طمسن، هذه النظرية بالقول: وانطلاقاً من الطبيعة الثنائية لاختيار غُوتْوَالدلكلمات «ثورة» و«ثورة اشتراكية» لوصف الحوادث التي أدت إلى نشوء «إسرائيل»، يتوجب على المرء أن يستنتج، من دون أن يكون ساخراً، أن نظرية «إسرائيل الأصلية» كمجتمع عدالة ثوري، الاستفزازية إلى حد بعيد، تتهاوى كبيت من الورق، عندما تلاحظ أنها لم تقدم أية أبحاث تفصيلية عن مجتمع الدولة المدينية السابق لها، والذي يزعم أنها قلبته.وبرأيي، يعتمد كتاب غُوتْوَالد »قبائل يهوه«، المنشور عام ١٩٧٩، بصورة مهلكة على مغالطات حول المجتمع الكنعاني استعارها من ميندينهال وآخرين. عن مجتمع العصر البرونزي في فلسطين، ليست مزورة فحسب، بل ولا تتوافق أبداً مع ما قاله غُوتْوَالد نفسه عام ١٩٧٦ و١٩٨٣ لتعريف المجتمع وفق المفهوم الماركسي عن »نمط الإنتاج الآسيوي«. وبالنظر للافتقار إلى مصطلحات مناسبة لوصف الحقائق الاجتماعية في فلسطين العصر البرونزي، يتوجب الحرص البالغ لتجنب الدلالات غير المرغوب بها والتي يؤدي إليها اختيار اللغة، في المسائل التاريخية. (٣٩)

في هذا الصدد يقول فنكلشتاين وسيلبرمان، لسوء الحظِّ، لا تمتلك هذه النظرية أيَّ أدلَّة تدعمها، بل ــ في الحقيقة ــ مُعظم الأدلة الآثارية تُناقضها بشكل قاطع. فكما رأينا كانت الثقافة المادية

للقُرى الجديدة متميزة جداً عن ثقافة السهول الكنعانية؛ فإذا كان المستوطنون الجدد لاجئين قدموا من السهول، فلا بد أن نتوقع ــ على الأقل ــ أن نرى تشابهاً أكثر، في الهندسة المعمارية، والأساليب الفخارية. والأكثر أهمية؛ أنه أصبح من الواضح ــ في الدراسات الآثارية الأخيرة لمدن العصر البرونزي المتأخر ــ أن القطاع الريفي للمجتمع الكنعاني بدأ يُصبح فقيراً منذ بدايات القرن السادس عشر ق.م. في الحقيقة؛ ربما لعب ذلك الريف ــ الذي أصبح أضعف وأقل سكاناً، وما تبع ذلك من هبوط في الإنتاج الزراعي ــ دوراً في انهيار الثقافة الحضرية، لكنه ــ بالتأكيد ــ لم يكن لهذا التحول القدرة على تزويد تلك الطاقة الكامنة وراء الموجة الجديدة والنشيطة من الاستيطان في المرتفعات. وأخيراً؛ وحتى بعد نهاية العصر البرونزي المتأخر، ودمار المراكز الحضرية الكنعانية، استطاعت أغلب القرى السهلية ــ التي كانت قليلة جداً ــ أن تؤمن بقاءها، وتُواصل وجودها كما كانت من قبل، وهذا واضح في قلب الثقافة الكنعانية «يزرعيل»، ووديان الأردن، والسهل الساحلي الجنوبي لفلسطين.

لذلك؛ لا نرى حشود أولئك الناس الذين شردوا من أوطانهم، يتركون قُراهم في السهول؛ بحثاً عن حياة جديدة على حدود المرتفعات.(٤٠)

وعلاوة على افتقار هذه النظرية إلى تأييد الأدلة، فقد ركز كثيرون بشكل مبالغ فيه على دور الـ «عابيرو»، بالاستناد مبدئياً على مراجعة أي. ف. كامبل E. F. Campbell لرسائل تل العمارنة، الذي ذهب، إلى أنَّ كلمة «عابيرو» تطابق كلمة «العبريين»، فيخرج بالنتيجة المتسرعة والفجة إي أن «العابيرو» هم «العبريون».(٤١)

فـ«العابيرو» لم يكونوا طائفة عرقية، بل طبقة من طبقات المجتمع الكنعاني، كانوا شعباً تحول إلى طائفة منبوذة في المجتمع الكنعاني، وطرد من المدن ـ الدول لأسباب اقتصادية وسياسية، وقد أصبحوا ـ أحياناً ـ لصوصاً وقطاع طرق، وأحياناً أخرى جنوداً مرتزقة.(٤٢)

فمراجعة م. ليفيراتي، الحديثة لتفسير رسائل تل العمارنة، أكدت أن «العابيرو» طبقة دنيا ناقمة ولاجئون، هربوا من القمع الإمبريالي المصري إلى المناطق الجبلية، ليعيشوا لصوصاً وقطاع طرق ضد رواد التجارة البرية، ويظهر أنهم استقروا أخيراً في المناطق الجبلية بعد حقبة تل العمارنة. (٤٣)

ومن الجدير بالذكر أن استعمال اسم «العابيرو»، في رسائل تل العمارنة، مع صيغة الفعل الأكدي

الذي يعني (يعمل / To - Do) أو (يستعمل) وفي الجملة يمكن أن يعني شيئاً يشبه الفعل [عبروا] أو ببساطة ليصبحوا «عابيرو»إلى أن يصبح المعنى«هرع وأخذ جانب العابيرو»، وبدلاً من مصطلح «العابيرو» السطحي الذي يعني خروجاً عن القانون فإن المعنى الأدق والأكثر احتمالاً أن يكونـوا ثـواراً، ذلك أنه ليصبح عابيرو فليقـاوم سلـطة الملك، وهذا ما يفسر محاولة تقليل أهمية العابيرو في رسائل العمارنة بينما نشاط العابيرو كبيراً جداً. فالمدن ثارت وأصبحت «عابيرو»وقد أعطى«رب ـ عدي» أحد ملوك المدن في فلسطين هذا المصطلح معنى واسعاً، داعياً كل الذين يثورون في وجه مصر بـ «العابيرو»ووضعهم ضمن هذا الإطار. فـ«العابيرو» ليسوا إذن عناصر أجنبية أتوا من الخارج كما يرى البعض بل هم من نبات الأرض والصحراء. إن ظاهرة «العابيرو»تؤكد حالة السخط والكره الشديدين لاحتلال الفراعنة بلاد الشام. ونتيجة الاضطهاد والقهر الواقع على عاتق الناس من جهة، واحتقار الحكام الذين نصبهم الفرعون للعامة من جهة ثانية قامت حالات تمرد كبيرة، هذه الحالات رسمها الحكام الذين ظلوا على ولائهم للفرعون من خلال نصوص رسائل تل العمارنة.

ينتقد لوريتز (Loretz) بحدة جهود المؤرخين الرامية إلى الربط بين الـ «العابيرو»والـ «عبرانيين»، ويبين الخطأ الفادح الذي تنطوي عليه هذه المحاولات لشرح أصول إسرائيل على أساس هذا الربط. نقده مدمر بسيط ومستقيم: لا توجد بينات تاريخية تربط بين رسائل تل العمارنة في القرن الرابع عشر والـ«عابيرو»المذكورين فيها، مع أصول إسرائيل. ومهما كانت الروابط اللغوية بين هذه التعابير المختلفة جذرياً، لا سبب يدعونا لأن نرى هذا الموضوع اللغوي مرتبطاً بأي شكل كان بتاريخ أصول إسرائيل.(٤٤)

وإذا كان مؤرخونا الأفاضل لم يشككوا لحظة في ما تلقنوه، بل رددوه كببغاء في صالون المتحف، فإن أحد المفكرين الغربيين بير روسي، لم يسعه السكوت على الكذب التاريخي، فيخصص الفصل الأول من كتابه الرائع«مدينة إيزيس، التاريخ الحقيقي للعرب»، لدحض هذه الفرية مقدماً إيضاحاً موجزاً حول قضية العبرية، التي ليست إلا وهماً معقداً ومستمراً لشعوذة اشتقاقية لغوية، قد استطاع أن يجر كثيراً من الناس ليروا «العبرانيين»، وفي «ثقافتهم» الأجداد الساميين لتاريخ الشرق، ولتاريخنا نحن (في أوروبا) أيضاً. إن علينا أن نعرف قبل كل شيء أن التاريخ المصنوع «للعبرانيين» خارج النصوص التوراتية هو الصمت الكلي المطبق . فلا العمارة ولا الكتابات المنقوشة على الآثار

، ولا القوانين والدساتير تكشف أثراً قليلاً «للعبرانيين». فعلى آلاف النصوص المسمارية أو المصرية التي تؤلف المكتبة المصرية ، أو مكتبة رأس شمرا أو نينوى، وحتى في الروايات الآرامية، في ذلك كله لا تذكر كلمة «عبرية». وأشهر ملوك التوراة داود وسليمان لم يصبحا قط موضوع وقائع تاريخية، وليس هناك أبداً ذكر للملحمة المعزوة لعبور «العبرانيين» وليس هناك أي انقطاع حضاري ثبت بالحفريات التي تمت في فلسطين منذ عام ١٨٨٠) ـ ١٩٢٥) فالعدم كامل مثلما هو قطعي وجازم.(٤٥)

تنطوى نظرية «هبة الفلاحين» [نموذج الثورة] على خلل خطير سواء في الطبيعة المفترضة والوظيفة المنوطة بالـ «المدينة ــ الدولة». حقاً يتوسل أنصار هذه النظرية بما يسمونه «مدينة ــ دولة كنعانية»، وهم يحتفظون لها بصورة واضحة فيما يتعلق بالمجتمع والاقتصاد والأهمية النسبية، وهذه الصورة ألهمتهم إياها، إلى حد كبير، مثل تلك الدول المعروفة جيداً مثل «أوجاريت» و«ألالاخ»، وربما يكونوا أيضاً قد استقوا جزءاً من تلك الصورة من «المدينة»polis اليونانية. وبصرف النظر عما إذا كانت المدن السورية رهن الحديث، ينطبق عليها وصف «مدن ــ دول» حسب النموذج اليوناني، فإن هذه المدن لا تشترك إلاّ في أقل القليل مع التجمعات الموجودة في فلسطين. وكانت حملات الغزو التي قام بها المصريون داخل خط نهر «الكبير» ــ «قطنة» قد أزالت من الوجود «ممالك كبرى» ترجع إلى العصر البرونزي الوسيط، وخفضت، وبصورة حادة، عدد سكان تلك المناطق التي كانت ترتدي الخيلاء والغرور، حتى جاء القرنان الرابع عشر والثالث عشر ق.م. كي يشهدا زوال كل شئ هنا، فيما عدا حفنة من المستوطنات ــ مما يصعب علينا أن نطلق عليها اسم «مدن» ــ يحكمها عمد خاضعون تمام الخضوع لمصر. ولم تكن تلك القرى التي نجت من الفناء كي تظل على قيد البقاء أكثر من «تركات» محلية يتغاضى عن وجودها المصريون لكنها واقعة فريسة للتناحر العشائري، والنهب والسلب والابتزاز. وكانت تلك «التركات» صغيرة ــ فكان يكفيها خمسون رجلاً كي يوفروا لمعظمها الحماية. وكان بوسعهم أن يحافظوا على قطعان الأغنام في الداخل أثناء الليل. وكان عمد مثل هذه المستوطنات وهم أبعد من أن يكونوا «ملوكاً» أو «أرستقراطية» كما تقضي بذلك النظرية رهن الحديث، معدمين في أغلب الأوقات كأفراد مستقلين ويفتقرون إلى أساسيات لا غني عنها مثل المواصلات ويهددهم باستمرار خطر مصادرة المصريين لممتلكاتهم ولم يكن في وسع مدن مشهورة «أورشليم» و«أكشو»Accho

و«أكساف»Achsaph أن تحشد فيما بينها إذا ما أحدق بها جميعاً الخطر أكثر من خمسين عجلة حربية. ولعلها مبالغة زاعقة أن نصف هؤلاء العمد والرؤساء (= خزنوتي hazanuti) الكنعانيين الذين يحاصرهم العوز بأنهم «صفوة زراعية». ويغدو منافٍ تماماً لطبيعة الأمور أن نتصور فلاحين فقراء يهبون ضد أرستقراطية زراعية قوية.(٤٦) لخص عالم الآثار الألماني فرتز فُلكمار هذه النظريات على النحو التالي:

وليم أُلبرايت، وج. إرنست رَايت، وجُون برايت، ومول لب:يتمسكون بنظرية الغزو (أي رواية العهد القديم). لكن هذه النظرية لا تأخذ بعين الاعتبار التحليلات النقدية لأسفار التوراة منذ عصر التنوير. ومن الجدير بالذكر أن تومس طمسن، وزملاء آخرين له، يتفقون على رفض فرضية الغزو ويضيفون القول: إن معاينات فنكلشتاين(الآثارية) توضح بشكل كامل أن نظرية الغزو ميتة.. وللأسباب التالية: العديد من المواقع لم تكن مأهولة في فترة نهاية العصر البرونزي المتأخر؛ العديد من المواقع هجرت في نهاية تلك الفترة الزمنية لكنها لم تتعرض للتدمير. العديد من المواقع العائدة للعصر البرونزي استمرت قائمة في العصر الحديدي الأول، وتلك المواقع العائدة للعصر البرونزي المتأخر التي لم تظهر فيها آثار تدمير، كانت مهجورة لفترة طويلة بعد الدمار الذي لحق بها سكنها الناس مجدداً.

ألبرشت، وألت، ومارتن نوث، ومانفرد فايبرت: يرون أن ذلك كان نتيجة عملية تسلل إلى فلسطين، لكن هذه النظرية لا تشرح كيفية سقوط المدن الكنعانية.

جورج مندنهول، ونورمان غوتفالد، وكورنليس دي غويس: يرون أن ذلك تم عبر إعادة تنظيم اجتماعي، أي غزو وتسلل وتمرد. لكن هذه النظرية غير قادرة على تقديم شروح كافية لسبب حدوث مثل هذه التطورات.

وفي الوقت نفسه أخفقت كل هذه النظريات في أن تأخذ بعين الاعتبار المكتشفات الآثارية الأخيرة. هنا نرى أن العالم يتقدم بنظرية رابعة أطلق عليها اسم [افتراضية التعيش المتكافل]، والتي تشبه إلى حد كبير نظرية التسلل.(٤٧)

يعلق العلاَّمة كيث وايتلام، من جانبه على الفرضيات الثلاث السائدة بالقول: «لقد برهنت أنَّ تغيّرَ منظور قراءة الكتاب العبري، الذي أثار عدة تساؤلات حول الفرضيات التاريخية النقدية السائدة واستخدام الموروث الكتابي من أجل إعادة البناء التاريخي، بالإضافة إلى تراكم المعطيات

الآثارية من حفريات موقع واحد، وعمليات المسح الإقليمية لفلسطين، قد بينت كلها أن هذه الأنماط والنظريات المتنوعة ليست أكثر من اختلاقات لماض متخيل. والعجز المتزايد للتركيبات الأساسية الثلاث للأصول الإسرائيلية عن التعامل مع الكم المتزايد من الأدلة، بالإضافة إلى التقليل من مغزى ما تعتبره نصاً يلقي المزيد من الضوء على المدى الذي تم فيه اختراع إسرائيل».(٤٨)

وهكذا، وبعد هذا الفشل الذريع في العثور على أقل دليل يثبت هذه النظريات، وأمام إنهيار الرواية التاريخية التوراتية، أراد عالم الآثار إسرائيل فنكلشتاين، إنقاذ ما تبقي من سمعة الرواية التاريخية التوراتية، فذهب إلى أن«الإسرائيليين لم يأتوا إلى فلسطين في صورة محتلين من الخارج، وإنما انبثقوا ونبتوا من داخل هذه البلاد، فهم السكان الاصليون وليسوا وافدين ولا مهاجرين، فيزعم أن علم آثار السنوات الأخيرة يكشف سلسلة أحداث مغايرة لقضية الاستيطان ـ الهجرة من الخارج ـ والنظريات العلمية التي سيطرت منذ نهاية القرن الماضي انهارت واحدة تلو الأخرى، والصورة التي تظهر اليوم من المكتشفات الأثرية! تفيد بأن الكيان الإسرائيلي ظهر من خلال سكان محليين وليس نتيجة لحدث واحد ـ الهجرة ـ وقد كان مرحلة في سلسلة أحداث دورية متكررة طويلة المدى في تاريخ البلاد، ولم يتغذ [الوجود الإسرائيلي] من السكان الذين جاؤوا من خارج البلاد؟!».(٤٩)

يؤكد فنكلشتاين، في كتابه «أركيولوجيا الاستيطان الإسرائيلي»، المنشور عام ١٩٨٦، أن المواقع الجديدة في الهضاب المركزية هي بالفعل مواقع إسرائيلية، ولكن من شكلوها لم يأتوا من خارج فلسطين بل من داخلها. فقد أدى الجفاف، الذي حل بالمنطقة خلال العصر البرونزي الأخير إلى اقتلاع شامل للسكان في منطقة الهضاب المركزية، وحولهم إلى رعاة متنقلين. وعندما عاد المناخ المطيري سيرته الأولى عادت هذه الجماعات المقتلعة إلى مواطنها السابقة واستقرت فيها. وبذلك يعمل فنكلشتاين على تجذير القبائل الإسرائيلية في المنطقة، ويؤكد على الطابع الإثني المستمر والمتميز لهذه الجماعات، التي شكلت إسرائيل فيما بعد.(٥٠)

في هذا الصدد يقول طمسن، يؤكد فنكلشتاين من دون دليل، وعلى أساس ظاهر مرويات توراتية لاحقة غير مدققة، أن أصول إسرائيل توجد في مجموعات محددة من المستوطنات الجديدة في المرتفعات الوسطى والجليل. مؤكداً أن نماذج الاستيطان التي يفحصها ذات أهمية كبيرة، ولكن لا سبب يدعونا للزعم بأن سكان المناطق الجبلية، أو المستوطنين الجدد في تلك المنطقة

مرتبطون بشكل متميز بإسرائيل الناشئة. في تقييم دراسة فنكلشتاين، تصبح مسألة تحديد ما يجب إدراجه ضمن مفهوم إسرائيل، في أي مدى زمني محدد، صعبة لأن معيار فنكلشتاين نفسه يبدو تعسفياً تماماً، حتى أن المرء يقاد إلى الشك بصحة عنوان كتاب فنكلشتاين «أركيولوجيا الاستيطان الإسرائيلي» وثقته به. أليس الأولى والأفضل أنه يتعامل مع أركيولوجيا مستوطنات العصر الحديدي الأولى في فلسطين الوسطى، تاركاً للآخرين مسألة أصول إسرائيل؟.(٥١)

فقد احتوى بناء فنكلشتاين التاريخي لبدايات «إسرائيل»، على أخطاء قليلة هائلة، والناتجة عن تأثره البالغ بالتوراة. هكذا فسَّر فنكلشتاين وسيلبرمان، هذه النظرية في كتابهما «التوراة اليهودية مكشوفة على حقيقتها»، بأن بروز إسرائيل المُبكِّرة كان نتيجة لانهيار الثقافة الكنعانية، وليس سبباً له. وأغلب الإسرائيليين لم يأتوا من خارج كنعان ــ بل ظهروا من داخلها ــ ولم يكن هناك خُروج جماعي من مصر، بل لم يكن هناك غزو وفتح عنيف لكنعان. وأغلب الذين شكَّلوا الإسرائيليين الأوائل كانوا أناساً محليين ــ نفس الناس الذين نراهم في المرتفعات طُول فترة العصرَيْن البرونزي والحديدي ــ كان الإسرائيليون الأوائل ــ من سُخرية السُّخريات ــ أنفسهم ــ أصلاً ــ كَنْعَانِّيين.(٥٢)

في وطننا العربي باحثون، يعجبهم أن يأخذوا اجتهادات أصحاب الخطاب التوراتي هذه وكأنها الحقيقة، فها هو ذا الباحث فراس سواح، يأتي بنظرية مثيرة للاستغراب، وهي [نظرية التطور الديني المحلي]، والتي تتفق إلى حد بعيد مع نظرية جورج مندنهول، ونورمان غوتفالد، من حيث تركزها على التمايز الديني لسكان المناطق الهضبية عن الوسط الكنعاني، ولكنها تختلف معها بإسقاطها لعنصر الانتفاضة الداخلية. ولعل المقطع التالي، يعبر عن جوهر هذه النظرية: «لقد أوصلتنا دراسة المخلفات المادية للثقافة الإسرائيلية!!، إلى القول بأن أرض فلسطين لم تعرف شعباً متميزاً اسمه الشعب الإسرائيلي، ولا ثقافة خاصة يمكن وصفها بالثقافة الإسرائيلية. ذلك أن كل ما كشف عنه علم الآثار يدل على ثقافة سورية كنعانية في تطورها الذاتي الطبيعي. ثم جاءت دراستنا للتراث اللغوي والأدبي والديني لما يدعى بالثقافة الإسرائيلية، لتدعم نتائجنا المبدئية. فاللغة التي نطق بها الإسرائيليون كانت كنعانية، والخط الذي كتبوا به كان كنعانياً، وآدابهم تجد جذورها في الأدب الكنعاني على ما تدل عليه المقارنة مع الأدب الأوغاريتي، ومعتقدهم التوراتي الذي وجدوا فيه مصدر تميزهم قد نشأ وتطور نتيجة لجدليات المؤسسة الدينية الكنعانية. ولا

ينجم عن ذلك كله إلا القول بأن الشعب الذي أنتج ما يدعى بالثقافة الإسرائيلية، هو فئة كنعانية لم تغادر فلسطين قط، مع بقاء الاحتمال قائماً في أنها ربما استقبلت فئة قليلة من النازحين من مصر. وعندما بدأ كهنة يهوذا في المنفى بتحرير أسفار التوراة، كتبوا تاريخ بني إسرائيل من وجهة نظرهم، فجعلوا منهم فئة متميزة منذ البداية، سعياً وراء ترسيخ الصيغة الأخيرة للدين اليهودي الذي صار مصدر تماسكهم وأملهم في الوقوف في وجه الفناء. لقد ميز كهنة يهوه أنفسهم وبقية سبي يهوذا عن كنعان تمييزاً مطلقاً، وجعلوا من الفارق الديني الذي يفصلهم عن بقية الكنعانيين، فارقاً في كل شيء».(٥٣)

قلنا إن النظريات السائدة حول الكيفية المفترضة لنشوء «إسرائيل القديمة» ؟! في بلادنا فلسطين انهارت بمجرد عرضها على المكتشفات الآثارية التي أوضحت بأن سكان المرتفعات، لم يختلفوا عن باقي سكان بلادنا فلسطين. أي أن سكان هذه المستوطنات كانوا شعوباً محلية. فـ «الأبحاث الأثرية التي جرت في بلادنا فلسطين لا تشير على وجود مخلفات، كما هي العادة في المراحل المبكرة من مراحل الاستيطان بفلسطين، خاصة في فترة القضاة [المزعومة] فقد اختفي الفخار والأشياء الأخرى التي تميز العصر البرونزي الحديث تدريجياً. ولكن يصعب جداً أن نقول في أي موقع من المواقع إن هذه الطبقة كنعانية والثانية إسرائيلية».(٥٤)

إذن لقد صارت كلمة «إسرائيلي»(*)، حين تطلق على تلك الأماكن بلا معنى، ويفترض طمسن،أنه صار من المضلل التحدث عن «إسرائيلي»ضمن سياق آثاري حول فلسطين العصر الحديدي الأول وتقدم المعطيات الآثارية التي تغطي فترة الانتقال بين أواخر العصر البرونزي المتأخر والعصر الحديدي، ومطالع العصر الحديدي معلومات قيمة حول الوضع السكاني والتوطن، والاقتصاد والتنظيم الاجتماعي في المجتمع الفلسطيني. ولكنها لا تقول أي شيء مباشر عن كيان كان اسمه إسرائيل.(٥٥)

بناءً على كل ما سقناه آنفاً نتوصل إلى نتيجة واحدة، وهي أن الفترة الانتقالية وعصر الحديد الأول، لم يشهد وصول جماعات معروفة بالإسرائيلية إلى المناطق الهضبية في بلادنا فلسطين. وإن مسألة الإثنية، برمتها، في السجلات الإركيولوجية، لا مبرر لها.

قائمة المراجع:

*إسرائيل فنكلشتاين ونيل أشر سيلبرمان، التوراة اليهودية مكشوفة على حقيقتها، ط١، دمشق، الأوائل للنشر والتوزيع، ٢٠٠٥، ص (١٤٢- ١٤٣).
*بير روسي، مدينة إيزيس ــ التاريخ الحقيقي للعرب، ترجمة: فريد جحا، دمشق، منشورات وزارة التعليم العالي، ١٩٨٠، ص ٢٥.
*جودت السعد، أوهام التاريخ اليهودي، ط١، عمان،منشورات الأهلية، ١٩٩٨، ص ٦٥.
*جريدة القدس العربي (لندن)، ١٩٩٨/٤/١٥ ــ ٠٦/٠٦/ ١٩٩٨.
*دونالد ريدفورد، مصر وكنعان وإسرائيل في العصور القديمة، ترجمة: بيومى قنديل، القاهرة، مكتبة الأسرة، بدون تاريخ، ص (٣٩٩- ٤٠١).
*توماس طمسن، التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي، ترجمة: صالح علي سوداح، ط١، بيروت، دار بيسان للنشر والتوزيع، ١٩٩٥،، ص ٣٨.
* زياد منى، مقدمة في تاريخ فلسطين القديم، ط ١، بيروت، بيسان للنشر والتوزيع والإعلام، ٢٠٠٠، ص (٣٥- ٣٦).
*كاثلين كينون، الكتاب المقدس والمكتشفات الأثرية الحديثة، ترجمة: د. شوقي شعث وسليم زيد، دمشق، دارالجليل للطباعة والنشر، ١٩٩٠، ص (٥٧- ٥٨).
*كارين أرمسترونج، القدس مدينة واحدة ثلاث عقائد، ترجمة: د.فاطمة نصر ود. محمد عناني، القاهرة، سطور، "كتاب سطور الرابع"، ١٩٩٨، ص ٥٥.
*كيث وايتلام وآخرون، الجديد في تاريخ فلسطين القديمة، ترجمة: عدنان حسن وزياد منى، ط١ ، دمشق، قدمس للنشر والتوزيع، ٢٠٠٤. (انظر الفصل الرابع، نيلزلمكة، يشوع والعنف الغربي، ص ١٠٩).
*كيث وايتلام، تلفيق إسرائيل التوراتية طمس التاريخ الفلسطيني، ترجمة: ممدوح عدوان، ط٢، دمشق، قدمس للنشر والتوزيع، ٢٠٠٢، ص (١٦٩- ١٧٠).
*كيث وايتلام، اختلاق إسرائيل القديمة إسكات التاريخ الفلسطيني، ترجمة: د. سحر الهنيدي، الكويت، سلسلة «عالم المعرفة»،١٩٩٩،، ص ١١٧.
*فراس السواح، آرام دمشق وإسرائيل في التاريخ والتاريخ التوراتي، ط١، دمشق، دار علاء الدين، ١٩٩٥، ص ١٧٥.
*فراس السواح، تاريخ أورشليم والبحث عن مملكة اليهود، ط٣، دمشق، دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة،٢٠٠٣، ص ٢٥.
*فنكلشتاين وسيلبرمان، مرجع سبق ذكره، ص ٣٩٦.

الهوامش

(١) دونالد ريدفورد، مصر وكنعان وإسرائيل في العصور القديمة، ترجمة: بيومى قنديل، القاهرة، مكتبة الأسرة، بدون تاريخ، ص (٣٩٩- ٤٠١).

(٢) كيث وايتلام وآخرون،الجديد في تاريخ فلسطين القديمة، ترجمة: عدنان حسن وزياد منى، ط١ ، دمشق، قدمس للنشر والتوزيع، ٢٠٠٤. (انظر الفصل الرابع، نيلزلمكة، يشوع والعنف الغربي، ص ١٠٩).

(٣) كيث وايتلام، اختلاق إسرائيل القديمة إسكات التاريخ الفلسطيني، ترجمة: د. سحر الهنيدي، الكويت، سلسلة "عالم المعرفة"،١٩٩٩،، ص ١١٧.

(٤) إسرائيل فنكلشتاين ونيل أشر سيلبرمان، التوراة اليهودية مكشوفة على حقيقتها، ط١، دمشق، الأوائل للنشر والتوزيع، ٢٠٠٥، ص (١٤٢- ١٤٣).

(٥) فنكلشتاين وسيلبرمان، مرجع سبق ذكره، ص ٣٩١.

(٦) وايتلام، اختلاق إسرائيل...، مرجع سبق ذكره، ص (١٢١- ١٢٢).

(٧) لمكة، مرجع سبق ذكره، ص ١٠٩).

(٨) فنكلشتاين وسيلبرمان، مرجع سبق ذكره، ص (١٤٤- ١٤٥).

(٩) تومس طمسن، التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي، ترجمة: صالح علي سوداح، ط١، بيروت، دار بيسان للنشر والتوزيع، ١٩٩٥،، ص ٣٨.

(١٠) فنكلشتاين وسيلبرمان، مرجع سبق ذكره، ص ٣٩٦.

(١١)ريدفورد، مرجع سبق ذكره، ص ٤٠٢.

(١٢) طمسن،مرجع سبق ذكره، ص ٤٠.

(١٣) فنكلشتاين وسيلبرمان، مرجع سبق ذكره، ص ١٤٦.

(١٤) جودت السعد، أوهام التاريخ اليهودي، ط١، عمان، منشورات الأهلية، ١٩٩٨، ص ٦٥.

(١٥) كارين أرمسترونج، القدس مدينة واحدة ثلاث عقائد، ترجمة: د. فاطمة نصر ود. محمد عناني، القاهرة، سطور، "كتاب

سطور الرابع"،١٩٩٨، ص٥٥

(١٦) طمسن، مرجع سبق ذكره، ص ٩٥

(١٧) طمسن، مرجع سبق ذكره، ص ٩٦

(١٨) بير روسي، مدينة إيزيس ــ التاريخ الحقيقي للعرب، ترجمة: فريد جحا، دمشق، منشورات وزارة التعليم العالي، ١٩٨٠، ص ٢٥.

(١٩) ريدفورد، مرجع سبق ذكره، ص (٤٠٤- ٤٠٥).

(٢٠) د. زياد منى، مقدمة في تاريخ فلسطين القديم، ط ١، بيروت، بيسان للنشر والتوزيع والإعلام، ٢٠٠٠، ص (٣٥- ٣٦).

(٢١) كيث وايتلام، تلفيق إسرائيل التوراتية طمس التاريخ الفلسطيني، ترجمة: ممدوح عدوان، ط٢، دمشق،قدمس للنشر والتوزيع، ٢٠٠٢، ص (١٦٩- ١٧٠).

(٢٢) جريدة القدس العربي (لندن)، ١٩٩٨/٤/١٥ ــ ٠٦/٠٦/ ١٩٩٨.

(٢٣) فراس السواح، آرام دمشق وإسرائيل في التاريخ والتاريخ التوراتي، ط١، دمشق، دار علاء الدين، ١٩٩٥، ص ١٧٥.

(٢٤) طمسن، مرجع سبق ذكره، ص ١١٣.

(٢٥) فنكلشتاين وسيلبرمان، مرجع سبق ذكره، ص ١٦٢.

(٢٦) فراس السواح، تاريخ أورشليم والبحث عن مملكة اليهود، ط٣، دمشق، دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة،٢٠٠٣، ص ٢٥

(٢٧) كاثلين كينون، الكتاب المقدس والمكتشفات الأثرية الحديثة، ترجمة: د.شوقي شعث وسليم زيد، دمشق، دار الجليل للطباعة والنشر، ١٩٩٠، ص (٥٧- ٥٨).

(*) يزعم بعض المؤرخون الغربيين، ويساندهم في ذلك الكثير من حراس وأصحاب الفكر الآسن من الأكاديميين العرب، إلى وجود ذكر لـ«إسرائيل» على نصب وُجد في طيبة يعود إلى مرنبتاح (١٢٣٠ ق.م).ولكن هذا الرأي لم يجد أي سند في التاريخ، وظلت الآثاريات على صمتها تجاه هذا الأمر.

(٢٨) وايتلام، تلفيق ...، مرجع سبق ذكره، ص ٣٠٩.

فاروق وادي.. استعادات من الأرشيف!

بديعة زيدان

قبل سنوات سألني الروائي والقاص والكاتب الفلسطيني الراحل فاروق وادي، خلال جلسة جمعتنا في العاصمة الأردنية عمّان: هل أنا معروف في فلسطين؟، فأجبته: معروف ونحبك.

كان خبر رحيله صادماً، رغم ما تواتر إلينا من أنباء من تدهور في حالته الصحية، بينما كنّا في جناح منشورات المتوسط، في مقر المكتبة الوطنية بسردا قرب رام الله، ضمن فعاليات معرض فلسطين الدولي للكتاب ٢٠٢٢، وهي الدار التي أصدرت له روايته الأخيرة «سوداد: هاوية الغزالة»، قبل أربعة أيام من رحيله، وشهدت توقيعاً لعدد من كتاب وشعراء فلسطينيين كان مقرراً قبل رحيله لهذه الرواية، وهو ما أسعده، وعبر عن ذلك صراحة في منشور عبر «فيسبوك»، لكنه رحل قبل التوقيع الذي تم تكريماً لروحه، كما تلك الوقفة التي نظمتها وزارة الثقافة، على مدخل المعرض، بمشاركة نخبة من المبدعين الفلسطينيين والعرب.

حين تقاسم المنزل مع عرفات

وكان ممّا كشفه لي فاروق وادي، في حوار نشرته فصلية «أوراق فلسطينية»، صيف العام ٢٠٢٠، وتحديداً في عددها الرابع والعشرين، حول مسقط رأسه ومنزله الذي «تقاسمه» مع عرفات، قوله: يبدو لي أنني ولدت على الخط الوهمي الفاصل بين مدينتي البيرة ورام الله.،وقد جرى قيد الولادة في مبنى «الصحيّة القريب من مدرسة الفرندز، فكنت بذلك من

مواليد البرية. لكن البطاقة الشخصية التي تسلمتها بعد اتفاقيات أوسلو، وغدوتُ بموجبها «مواطناً» فلسطينياً، تشير إلى أنني من مواليد رام الله!

"حين رحل ياسر عرفات، كتبتُ عن المفارقة التي صاغتها الوقائع الموضوعية، ولم تصنعها بلاغة اللغة، تلك المفارقة التي جعلت من ترابي الأول الذي شهد مسقط رأسي، هو نفسه تراب ياسر عرفات الأخير.. في الوقت الذي كان فيه بيتي الإسمنتي الأول، الذي انتقلت إليه عائلتي بعد ولادتي، هو بيت عرفات الأخير، الذي تشبّث به بشراسة إلى أن غادره «شهيداً.. شهيداً.. شهيداً» إلى بيته الأخير.

وواصل وادي سرد الحكاية: ولدتُ في خيمة كانت قد مُنحت لوالدي الشرطي، الذي كان من قبل مُقاتلاً في مجموعات «الشيخ حسن سلامة»، وتحوّل إلى شرطي في البوليس الإنجليزي بعد أن أصاب الثورة ما أصابها، ليصبح بالتالي شرطياً أردنياً ما بعد النكبة.. وضمن «الامتياز» الممنوح للشرطة، ضربت الخيمة أوتادها في تراب «المقاطعة»، التي بُنيت في عهد الانتداب البريطاني وكان يطلق عليه اسم «المركز»، وهو التراب الذي ترددتْ فيه صرختي الأولى، ثم حوى جثمان عرفات بعد سنوات طويلة، ليقام ضريحه بعد ذلك فوقه، أما المقاطعة نفسها، بيته الأخير، فقد كان المكان الذي مُنحت فيه عائلتنا غرفة بجدرانٍ دافئة، حفاظاً على صحة وحياة الطفل الوليد، الذي هو أنا، وهي جدران بيت عرفات الأخير، الذي حوصر فيه وتشبّث به بعناد أسطوري حتى اللحظة الأخيرة.

درويش و«منازل القلب»

وعن حكاية أن الشاعر الكبير محمود درويش، هو من طلب منه كتابة «منازل القلب»، أجاب وادي في ذات حوار «أوراق فلسطينية»: لم يطلب مني محمود درويش كتابة «منازل القلب – كتاب رام الله» بشكل مباشر، كل ما هنالك، هو أنني، وفي إحدى زياراتي إلى رام الله، ربما في العام ١٩٩٦، دعاني أستاذي وصديقي محمود شقير إلى الغذاء في مطعم

جميل يقع في مبنى عتيق يحتل مكانه في قلب مدينة رام الله.. هناك، شاءت المصادفة أن يأتي محمود درويش ويجلس مع ثلة من أصدقائه من القياديين الفلسطينيين على طاولة مجاورة.. عندما رآنا، جاء بنفسه وسلّم علينا، قال لنا إنه يبحث عنّا كلينا، ويريد الحديث معنا كل على انفراد لأمرٍ يتعلق بالكتابة لمجلة «الكرمل» التي كان يستعد لإصدارها من أرض الوطن.

"صبيحة اليوم التالي، كنت ألتقي درويش في مكتبة الأنيق بمركز خليل السكاكيني الثقافي في رام الله، وكان يشرح لي فكرته قائلاً إنه يعد زاوية ستحمل عنوان (مكان الذاكرة.. ذاكرة المكان)، يتناوب عليها كتّاب مختلفون للكتابة عن مدينته أو مكانه الأثير، وإنه بحكم معرفته بما أكتب وبما تعنيه رام الله بالنسبة لي، في الوعي والذاكرة ومشروع الكتابة، يرشحني لكتابة نص طويل نسبياً عن رام الله.. علمتُ لاحقاً أنه اختار محمود شقير لكتابة نص آخر عن القدس.. اتفقنا على ذلك، وحددنا مواعيد التسليم والنشر وأسلوب التواصل.. بعد شهور التقيت محمود درويش في إحدى المناسبات الثقافية التي كانت تقيمها (دارة الفنون) في عمّان، وعندما سألني كيف تجري أمور كتابة نصّ رام الله معي، قلت له إن مشكلتي تتلخص في أنني لم أستطع كبح جماح نفسي، فاستجبتُ لإلحاح الكتابة، ولم أستطع وقفها، فقال وهو يضحك: كنتُ أتوقع ذلك، ورّطتكَ في نصّ لمجلة، فيبدو أنك سوف تخرج علينا بكتاب، وقد أعلمني في حينه أن الأمر نفسه قد حدث مع محمود شقير أيضاً، الذي يبدو أنه سيمنحنا هو الآخر كتاباً حول القدس.

هكذا ولد «منازل القلب»، وفق وادي، الذي لم يتأخر نشره عن نشر المادة في «الكرمل»، ومعه ولد كتاب شقير «ظل آخر للمدينة»، والغريب هو اكتشافنا لاحقاً، شقير وأنا، أن كل واحد منّا تحدث عن الآخر في كتابه، ودون علمٍ مسبق أو تنسيق، فقد أشار شقير إلى أنني كنتُ أنظر من نافذة غرفته في وزارة الثقافة، وأتطلع نحو ساحة «المقاطعة»، عندما قلت له: في تلك الساحة الممتدة أمامنا.. كانت ولادتي!

العودة إلى الرواية بعد غياب

في الرابع عشر من شباط (فبراير) ٢٠٢٠، نشر لي حوار مع فاروق وادي، في موقع مجلة رمّان الثقافية، تطرق إلى العديد من المحاور، وكان لمناسبة صدور روايته «سرير المشتاق» عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر، وقتذاك.

سألته عما قاله بأنه كان كتب تلك الرواية قبل سنوات طويلة ثم نحاها جانباً، قبل أن يعود إليها من جديد، ويتحفز لإكمالها ونشرها، فأجاب: عندما يصل الكاتب في عمله الكتابي، ولنقل هنا في روايته، إلى طريقٍ مسدودة، فإن عليه أن يتوقّف، ولو إلى حينٍ، خاصّة بعد أن تفشل كلّ محاولاته للعودة إلى مقارعة النّص المعاند. ولو كنت أرغب بأن ألخّص بكلمات قليلة مسألة تنحية العمل جانبًا، لزمن قد يطول أو يقصر، لاكتفيت بالقول: إن ذلك يحدث بعد تراجع، أو غياب، ما يمكن أن نسمّيه «شغف الكتابة».

فالشّغف هو مُحرّك الإبداع. ثمّة أسرار وديناميّات تكمن وراء اشتعال ذلك الوهج أو انطفائه، ليس من بينها الإرادة الحرّة الواعية. وإذا أردنا أن نستبدل المفردة بأخرى، قد نستخدم كلمة «الحرارة» التي لا تتولد بالرّغبة الذاتيّة.

لقد نحيت ما كتبته من الرواية قبل سنوات، لغياب أو خفوت شغفي تجاه ما كتبت، وانتفاء الحرارة التي تحثّ على مواصلة الكتابة، وكنتُ أقول في نفسي، مخطئاً أو مصيباً، إن العالم لن ينهار إذا ما توقفت لالتقاط الأنفاس، فثمّة من يكتبون أفضل مني وينتجون نصوصًا أكثر جمالاً. ثمّ إن متعة التلقي، بالنسبة لي، لا تعادلها متعة أخرى، حتّى الكتابة، التي تظل تنطوي على شيء من اللذّة وقدر من الألم.

أما كيف أو لماذا عدت إلى الرواية بعد سنوات وواصلت العمل فيها، فقد حدث الأمر عندما عثرت على خيوط كانت غائبة عن النّص المكتوب غير المكتمل، فحثّني ذلك على العودة إلى المشروع والكتابة بشغف هائل أخذني معه. تغيّرت عاداتي في النوم والكتابة. كنت أكتب في كلّ الأوقات.. في الظهيرة مثلاً، أو بعد منتصف الليل، أو أثناء السّفر. ولا أريد الاستفاضة في أسباب أو مبررات العودة للعمل على مشروع قديم، لأن الأمر الطبيعي للكاتب، هو أن

يكتب، من دون الاضطرار لسؤاله: لماذا عدت تكتب؟!

وعن أسباب غيابه أربعة عشر عاماً عن الكتابة الروائية منذ ٢٠٠٦ وحتى ٢٠٢٠، أجاب: هناك اعتقاد ساد في الأوساط الثقافيّة خلال السنوات الأخيرة، فحواه أن الكتابة، والكتابة السّرديّة على وجه الخصوص، هي الكتابة الروائيّة، وحدها لا شريك لها، فأصبحت الأجناس الكتابيّة الأخرى تتراجع بعد أن غدت كلامًا لا يعوّل عليه ولا يُعتدّ به!

"ربما أسهمت الجوائز التي باتت تقليداً دوريًا يُمنح للرواية دون غيرها، في تكريس هذا الاعتقاد، وربما أسهم الناشرون أنفسهم في تأجيج الحماسة لهذا الجنس الأدبي على وجه التحديد لأسبابٍ تجاريّة بحتة وليس عشقًا للرواية في حدّ ذاتها، فتراجع الإقبال على الشّعر والقصّة القصيرة وكتب السّيرة والمقالة، وربما غيرها، وهي أجناس أقصيت عن دائرة النشر.. إلا بحدود".

حتّى السؤال المطروح لم يبتعد عن ذلك، والحديث لوادي، الذي أضاف: لم يأبه لكتابتي في جنس آخر غير الرواية. كتابي «ديك بيروت يؤذن في الظهيرة» (٢٠١٥) الذي يجمع بين جنسيّ القصّة القصيرة والرواية، اعتبر ناقصاً لأنه ليس رواية خالصة من غير سوء، ونصوصي شبه السيرة في «سيرة الظل» (٢٠٠٨) شطبت من دائرة الفن والإبداع، لأنها مثّلت شكلاً هجينًا من الكتابة التي هي ليست رواية. وما كتبته خلال السنوات المذكورة ولم أقدم على نشره، ظلّ قابعًا في الزوايا الخبيئة لكمبيوتري ولم أتشجّع على نشره لأنه ليس رواية، ومنها مجموعة قصصيّة قد تكون قابلةٌ للنشر.

"لم أتوقف عن الكتابة خلال تلك السنوات، وإن توقفت عن النشر لأسبابٍ لا تعود إليّ بالدّرجة الأولى، مع إعادة التأكيد على أن الكتابة لا تُختزل بكتابة الرواية وحدها، رغم أهميتها الكبيرة. ولا أريد إعادة التذكير بكتّاب كبار أبدعوا في فنّهم القصصي دون أن يقتربوا يومًا من الرواية.. أما عن رواياتي القادمة فأمرها عند شغفي. توقفت قبل شهور عن مواصلة الكتابة في مشروع روائي بدأته فور انتهائي من "السّرير"، ولا أدري كيف ومتى سأعود إليه".

ما بين الأدب والسيرة

وحول الأدب والسيرة، في كتاباته عامة، وفي «سرير المشتاق» خاصة، قال وادي في حوار «رمّان» ذاته: في «سرير المشتاق» كنتُ أكتب رواية لا سيرة ذاتيّة، بمعنى أن مبنى العمل السّردي هنا كان تخييليًا تمامًا، فالخيال هو حقّ أساسيّ من حقوق الكاتب الروائي. ولأن الكاتب يستقي مادة كتابته وعناصرها من الواقع، أو إنه ينطلق منه في تأسيس وقائع روايته وأحداثها ورسم ملامح شخصياته، فإنه قد يضطر إلى التمويه حتى لا يُحاسب بأنه قد شذّ عن الحدود المستقيمة الصّارمة. ناهيك عن أن الخيال، في كثير من الأحيان، لا يكون خيالاً صافيًا، فهو ينطوي على حقيقة أو شيء من الحقيقة.

"قد تستفيد العديد من أحداث الرواية من أحداثٍ عشتها ووقائع حقيقيّة وقعت، لكنها ليست مُجبرة لان تلتزم بحقيقتها حتّى يتطابق السّرد على الورق بحقيقة ما سردته الحياة نفسها، وإن كان يسعدني كثيرًا أن أعثر على من يصدّق أكاذيبي البيضاء التي تصنعها الكتابة، ويقتنع، من دون لبسٍ، بأن الخيال في الرواية لم يكن خيالاً، وأن شطحي لم يكن شطحاً».

أحياناً أتصوّر، أضاف وادي، أن أحد الأصدقاء سيسألني: ألم نعش هذه التجربة المكتوبة معاً؟ لماذا حذفتني من السّرد؟ فهل أصدمه بالحقيقة عندما أقول له: لأن وجودك لم يكن يلزمني في سرديتي، بعد أن غادرت الواقعة واقعيتها وأصبحت خيالاً. ثمّ أعده أنني، إذا ما كتبت الواقعة نفسها يومًا كسيرة، فسوف تجد نفسك فيها بملامحك كاملة، من دون حذفٍ ولا إضافة ولا أيّة رتوش.

"في الرواية نكذب حتى نبلغ أقصى درجات الصّدق الفني، أما في السيرة فإن علينا أن نظلّ ملتزمين بصدقيّة السّرد حتى يكون النّص واضحًاً كالحقيقة. ولا أذكر من الذي شبّه كتابة السيرة بالكتابة على ورقٍ مسطّر، فيما شبه الرواية بالكتابة على ورق بلا سطور، حيث لا تلتزم الكتابة بمسارٍ محدّد أو أيّ خطوط".

واعترف وادي: لا أخشى المواجهة مع سيرتي الذاتيّة، لأنها أولاً سيرتي، ولأنني كتبتها وأكتبها وأنهل منها معظمّ حقائقي وأكاذيبي، أما التنصّل من مواجهة أشخاصٍ بعينهم، فلا مواجهة الأشخاص تدخل في مشاريعي، ولا التنصّل منها يدخل في همومي، وأفضّل دائمًا أن أقول للأعور إنه أعور بعينه، دون الاضطرار لأن أدخله في نصوصي. حتى لو رأى أحد أن هناك ملامح تتقاطع بين شخص في الواقع وشخصيّة في الرواية، فإن همّي ينحصر في الحديث عن مظهر سلوكيّ وليس عن شخصٍ بعينه، فالخائن الذي وشى برفاقه وخان مبادئه، ورأى نفسه في إحدى الشخصيّات الروائيّة، أرجوه أن لا يحملني مسؤوليّة خيانته.

وختم الحوار كله بالقول: (...) أمّا كتابة السيرة، فقد جرت عندي بشكلٍ مجزأ. كتبت جزءًا منها مع كثير من التخييل، في رواية «رائحة الصيف»، التي اعتبرتها سلمى الخضراء الجيوسي نوعًا من «السيرة»، ونشرت جزءًا منها في الطّبعة العربية لـ «أنطولوجيا الأدب الفلسطيني»، وتحديدًا في باب السيرة، كما كتبتُ جزءًا آخر من سيرتي في «منازل القلب ـ كتاب رام الله»، وشذرات أخرى في «سيرة الظّل»، ثمّ استثمرت سيرة بيروت وتجارب الحرب فيها، في «ديك بيروت». وهناك مشاريع منجزة أو شارفت على الإنجاز تستثمر تلك السيرة، منها كتاب بعنوان «٥٩ شارع صفيّة زغلول ـ كتاب الاسكندريّة» وكتاب آخر حول تجارب السّفر، والقسم الثاني من «سيرة الظّل» الذي حطّ أخيرًا بين يديّ ناشر صديق. وعليه، فإنه لن يكون ضمن مشاريعي أن أجلس يومًا لكتابة ما يمكن أن نطلق عليه، كما جرت العادة، تعبير «سيرتي الذّاتية».

الكاتب في المنفى

سألته: شدّدت في مطلع الرواية على كونك لاجئ فلسطيني هل هذا المدخل يأتي للمقاربة مع حكاية منافيك المتعددة؟.. وأجاب: كون السّارد في الرواية لاجئاً فلسطينياً، فلأن وجوده الفني اقتضى ذلك في الرواية، ووجود الكاتب كذلك في الحياة فرض نفسه على تجربته التي لم يخرج عنها إلا ليعبث في صناعة الخيال.

عندما أكتب فإنني لا أحبّ أن أضع إلى جواري مسطرة أو ميزان أزِن فيه الكلمات قبل أن تأخذّ مكانها في النّص. وقد كنتُ أستجيب لما كان يقترحه عليّ «السّرير» من وقائع حدثت وأحداث لم تحدث وتخييلات قد تُصدّق أو لا تصدّق. أما الدّلالات فأتركها للقارئ، لأن الرواية إن عجزت عن أن توحي بدلالاتها أو تومئ إليها همسًا لتخلق فرصًا للتأويل، تكون قد فشلت في الوصول، وأنا لا أحب أن أشرح روايتي أو أن أتطرّق لدلالات عنصرٍ من عناصرها، ويسعدني أن يضيء لي قارئ أو ناقد زاوية معتمة في الرواية.. زاوية لم أكن قد بلغتها أو قادراً على بلوغها وحيدًا. فأنا أحتاج في كثير من الأحيان إلى قارئ يمسك بيدي ليدلني ويضيء لي زواياي المعتمة.

عن «سرير المشتاق"

حينما يكون السرير وطناً فإنه بلا شك يصبح مصدراً للعشق، ويبيت غيابه مساحة لاجتياح الاشتياق للذوات العاشقة، وهو في ذات الوقت يمسي مطاطي المساحة، ينكمش وينكمش، بعد أن كان متعملقاً، خاصة في الحالة الفلسطينية، بحيث ينتهي الوطن "السرير"، أو السرير "الوطن"، في سيريلانكا، متأرجحاً ما بين غرق محتمل وأكثر احتمالاً.

في "سرير المشتاق" رواية فاروق وادي الصادرة عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر، تبدو حكايات السرير بدلالاته المتعددة كمضجع ونعش وتعبير عن وفاء وطمأنينة بل وحبس أيضاً، وإن تعددت التأويلات، حكاية فلسطين ما بين أكثر من شتات، وأكثر من حرب وثورة كانت مستمرة، ترحل فيرحل سريرها معها، وما بين انكماش ما بعد "أوسلو"، الذي أحال السرير "الوطن"، بكل الفنتازيات والروايات الأسطورية والحقيقية حوله، إلى مصير أقرب إلى التهالك في سيريلانكا، وكأنه كما البلاد، دخل في مرحلة موت سريري أو يكاد، فلم يعد السرير بزهوه، ونشوته، مشتهى للمشتاقين، حيث بهت لونه، وانكمش فعلاً، وبات وطناً مُستلباً.

صاحب الرواية السيرية، أو شخصيته المحورية "غسان"، اكتشف السرير للمرة الأولى في غرفة "عطا" الشاب الفلسطيني المقيم في بيروت، الذي تهجره مخطوبته بعد أن تكتشف تحوّل

عشقه إلى السرير إلى حالة جسدية "مرضية" و"مهينة" بالنسبة لها، قبل أن يترك هو سريره في المكان فارّاً، إثر اكتشاف زوج معشوقته الجديدة لعلاقتهما، وقد يكون في ذلك إحالة ما إلى النكبة، حيث اضطر آلاف الفلسطينيين إلى الهجرة من الوطن، حفاظاً على حيواتهم، بعد جرائم العصابات الصهيونية في العام ١٩٤٨.

"لمحتُ السرير خطفاً، للمرة الأولى، من الباب الموارب لغرفة عطا، الذي لم ألتقِ به طوال حياتي إلا مرّة واحدة، وبسرعة خاطفة، لم تتكرر، فلم يتح لي لقاءه ثانية، من دون أن يبدر من جهتي حرص على ذلك، ولا من جهته أيضاً.. داهمني ذلك السحر الخشبي الأبيض الناصع وأنا أقطع المسافة القصيرة في بيت صديقي آدم، في بيروت، بين الصالة والحمام. زعزعني المشهد عندما تجلّى لي السرير بأبّهته الملكية التي تشهر وقارها الصارخ، وبياضها الأكثر نصوعا من الحليب. تجلّى بطوله وعرضه غير العاديّين».

وبالعودة إلى ما حيك حول السرير من حكايات تتأرجح ما بين واقع ومخيال روائي، فإن مالكه الأول متري سابا، وهنا إشارة إلى العائلة التي تتوزع في بلاد الشام، ومن بينها فلسطين، والذي كلّما باع السرير عاد إليه لسبب أو لآخر، ليبيعه مجدداً بأضعاف ثمنه، هو الذي حطّ في قصر سابا، الذي اشتراه جدّه من أحد السياسيين البارزين في بيروت، آنذاك، بينما بات الحفيد في وضع مالي صعب، لدرجة عرض السرير المتكرر للبيع.

في حقبة سابا الجد، وما قبل شرائه للقصر من ذاك السياسي، كان السرير مضجعاً لزعماء عرب عدةٌ، وهو السرير الذي فيه "سرّ كبير مغلق"، و"إذا ما تمكنت من بناء علاقة حميمة معه، فإنك تستطيع تطويعه".. "لا تجزع من حجمه، ولا تفكر كثيراً في ضخامته، فأنت إن ملكت مفاتيح قلبه يمنحك جسده بلا تمنّع، مثل امرأة عاشقة منجذبة لذكرها بلا رادع أو كابح. وربما يستطيع إنسان أن يطويه في حقيبته، ويسافر به إلى أبعد بقاع الأرض!".

وفي الحديث عن مآلات السرير وحكاياته، يذكر الراوي أو الروائي في هذه الحالة، أن سرّ انجذاب الكلّ إليه لا يزال غامضاً، فهو يبدو من الخارج عادياً، فلا مسامير فيه ولا براغٍ، ولا حفرٌ يزيّنه، لكن رائحة ما تنبعث منه تجعل منه مساحة للعشق، ومصدراً لإثارة الشهوة،

كما هو شاهد على تاريخ فدائيين، أو هكذا أراده الكاتب، "بكل أحلامه وأوهامه، بإنجازاته وإحباطاته، فاستقى السرير وقائعه من تجارب تستنطق السنوات الأولى لزمن المقاومة، بما رافقها بالمقابل من تنام لآليّات القمع ومصادرة الحريات والتضييق الأسطوري، وصولاً إلى معايشة الحرب الأهلية اللبنانية"، متأرجحاً ما بين حرب وحبّ وحنين المشتاق، إلى الوطن ربّما، إلى زمن المقاومة ربّما، وإلى ذاته ورفاقه كما كانوا في ماضٍ لن يعود ربّما.

ويبدو أن التباس حالة السرير انعكست في شكل التباسات متعددة ومعقدة على الصعيد النفسي للمحيطين به، وخاصة بدر وزوجته نهاية، ملاّك السرير لمرحلة ما، وكذلك الخليّة التي شكلوها، وكانوا خمسة غيرهما، سجنوا فتفرقوا، و"تخلخلت حياتهم واهتزت علاقاتهم بالآخرين، فالسجن باعثٌ على الارتياب"، و"القطيعة تقطع، والاحتجاب عن العين وراء جدار السجن، يجعل الحبيب محتجباً عن القلب. وتلك كلّها أوضاع كفيلة بتبديد كلّ شيء.. كل شيء، وبعثرته في فضاء مجهول».. وهنا تظهر التباسات تأويلات المعاني الكبيرة كـ"الوطنية"، و"الخيانة"، و"التحرير"، وغيرها.

ويبقى "غسان" الراوي المحوري في "سرير المشتاق"، يبحث عن السرير وسرّه طوال الوقت، على اختلاف الأزمنة والأمكنة .. "(...) غير أن الشيء الذي لفتني متأخراً، فصرت أتأمله عبر العدسات المكبّرة أكثر مما أتأمل جسد الصبيّة الحسناء، هو السرير .. السرير الأبيض الذي كانت تستلقي عليه الفتاة. فقد كنت أوقن، بلا شك، أنه كان هو السرير. السرير نفسه .. ولا سرير آخر غيره. وظلّ السؤال يلحّ عليّ: ما الذي جاء بالسرير إلى هنا؟ وأي مصادفة هي التي ألقتْه على بعد خطوات من مرمى البصر؟ فقررتُ بيني وبين نفسي أن أطرق بيت الجيران: أبناء العم .. أجتاز كل العقبات .. أعمل المستحيل، من أجل الوصول إلى السرير، علّه يفضي إلى ما هو أبعد من ذلك .. إلى ما يتوق له القلب، فإن تأكدت من ذلك، فسوف أخوض معاركي المصيرية من أجل استعادة السرير، وبكل الوسائل .. المشروعة وغير المشروعة".

وهنا، وكان الحديث عن سرير الفتاة اليهودية اللبنانية جارتهم في بيروت، يبدو وكأن الصراع على السرير صراع مصيري، مع عدم غوصه في صراع الهويات الدينية، وإن كان يمكن استقراء

إشارة أو أكثر إلى تجيير الصهيونية، ومن بعدها دولة الاحتلال، لهذه الهويات، لصالح تبرير إقامة دولتها على أنقاض حيوات الفلسطينيين ومنازلهم وأراضيهم وذكرياتهم.

وفي خضم حديثه عن النضالات، والانشقاقات، والخيانات المتعددة واقعياً وتأويلاً، وعن معاناة الفدائي الفلسطيني حيثما استقر به المقام، يبدو فاروق وادي وكأنه يبكي الوطن "السرير" بلغة شاعرية رقراقة وعميقة، وبسرد مشوق ومغناطيسي كالعادة، وهو يقول: كان السرير نفسه، الذي تحسسته ذات نهار بات ينأى كثيراً عن أيامنا، وهو السرير الذي جذبتني إليه رائحة الغابات الكامنة فيه، ذات يوم بعيد .. هو الذي حطّ المقام به في "بير حسن"" فـ"شاتيلا"، ليعرج عبره في الحديث، ولو باقتضاب عن "تل الزعتر"، و"الدامور" الذي حطّ به السرير أيضاً، قبل أن ينتقل إلى غرفة الخادمة السيريلانكية كاستوري، ومنها إلى بلادها بعد صفقة مع "سيّدها" بشحنه رفقتها مقابل التنازل عن مستحقاتها المالية.

إنه السرير الذي كان يرعب سيّدتها وترى بياضه سواداً، ولعلها تبعات الحرب الأهلية هنا، في تحول النظرة إلى الفدائي الفلسطيني الذي كان ولا يزال يبحث عن حلمه بالوطن، رغم كل الظروف الصعبة .. "أقسم مرّة أخرى، أنني قد رأيت السرير نفسه، وهو يركب الأمواج الهائلة، يصارع اليمّ، يتحدى الأنواء والأعاصير، يقاوم الزلازل والبراكين المتفجّرة في أعماق المحيط الشاسع (...) لم يكن غارقاً إذا، بل كان يواجه التيّار العاتي الذي يحمله إلى حيث شاء الشوق وشاء الحنين (...) كان يعرف طريقه إلى أرض وطنه».

شيء عن «ديك بيروت» وحكاياته

"بالأمس، انفجرت سيارة في الشارع المكتظ بالباعة المتجولين ومحلات العصير والشاورما والملابس التي تعلن عن تخفيضاتها.. أصابت شظايا العبوة المتفجرة وقطع الحديد الممزق، الناس الذاهبين إلى أعمالهم، ما أودى بحياة الكثيرين منهم، وكان من بينهم جارنا المقاتل وزوجته، التي ظلت تتمنى ملاقاة الموت قبله، حتى لا تحمل حسرته.. ولم يدر أحد من معارفهما وأصدقائهما الذين كانوا على علم بتلك الأمنية، أي من الزوجين لفظ أنفاسه الأخيرة

قبل الآخر.. بعد صلاة الظهر، سرنا وسار الناس باكين في الجنازة، التي انطلقت من الجامع القريب إلى مقبرة الشهداء.. لم تكن الطفلة الشقراء الباكية، التي رأيناها تسير خلف النعشين المحمولين على موج الأكف والحناجر المهللة، المكبّرة، تعرف الحقيقة.. لم تكن تعرف أن نعشي والديها لا يحملان سوى مزقاً قليلة من ملابس رجل وامرأة جمعهما رجال الدفاع المدني من زوايا الشارع الذي شهد الانفجار.. وكانت مزق النسيج تلك، هي كل ما تبقى من أم.. وأب !".

هذه الحكاية التي حملت اسم "الجنازة"، هي واحدة من ثلاثة وعشرين حكاية، جمعها الكاتب الفلسطيني فاروق وادي في مجموعته السردية "ديك بيروت يؤذن في الظهيرة" (كتاب الحرب)، التي تناولت مصائر من كانوا أحياء قبل أن تلدغهم أفعى الحرب الأهلية السامة في العاصمة اللبنانية، فينتهون على حين فاجعة، هو الذي برصده تلك الحكايات كأنما يستعيد شريطاً سينمائياً يتواصل منذ عقود، وبات يتنقل ما بين جغرافيات متعددة، خاصة في المنطقة العربية.

نهايات الشخوص فرادى وجماعات تتراوح ما بين اختفاء أو موت، أي ما بين موت مشكوك فيه، واختفاء حسم أمره، وهذا ليس غريباً في الحروب، فالجميع موتى مع وقف التنفيذ، أو مشاريع شهادة، لكن الغريب والمميز في آن، هو ذلك النبش الملتبس ما بين واقع ولا واقع لشخصيات رسمها خيال وادي أو ذاكرته، أو كلاهما معاً.

فرادة الحكايات وآليات سردها، وما رافقها من لغة اتسمت بالفخامة والأناقة، تجعل القارئ للنص السردي هذا، "يكمشها" بـ"يديه وأسنانه" حتى ينتهي من آخر حرف في الحكاية الأخيرة من "ديك بيروت"، وتحمل اسم "شرفة على شجرة الأرز"، فالشخصيات هنا تقتحم حيوات القارئ، الذي بدوره يتماهى مع حيواتها، بل ويرسم لها أشكالاً ومضامين دون عناء، تتقاطع ربما مع ما رسمه فاروق وادي بالكلمات، أو تختلف قليلاً مع انحراف بوصلة الذائقة ذات شمال أو جنوب.

وباستعراض النهايات نكتشف حجم المأساة، نحن من كنا أطفالاً بينما كان من يعايشونها يكتوون برصاصها وقذائفها ومذابحها، وتفاصيلها الإنسانية، فـ"سلفيا" الممرضة في إحدى

العيادات التابعة لتنظيم فلسطيني يساري في مخيم تل الزعتر، الذي كان، ينتهي بها الأمر واحدة من ضحايا الحافلة التي كانت في طريق العودة من جامعة بيروت إلى المخيم، والتي اشتهرب بـ "حادثة عين رمانة».

ولكل حكاية دلالاتها على أكثر من مستوى، حتى بعيداً عن فنيات وتقنيات النص السردي، فوادي يؤنسن أبطاله الموتى، أو أبطال الحرب منتهيي الصلاحية، فجميلة كانت تبيع جسدها تحت وطأة العوز، لكنها كانت ترفض تسليم شفتيها إلا لمن سيخفق له قلبها، وهو ما كان مع "رجل الشاطئ"، الذي ظفر بالشفتين بعد أن سلب منها الفؤاد، قبل أن يختفي وتختفي من بعد، في وقت استفحال القصف وسعار القذائف.

وفي حكاية أخرى، تفرّ "لولو" المسلمة، من أهلها والكويت حيث هم، إلى حيث حبيبها الماروني في لبنان، قبل أن يلحق بها والدها باحثاً عنها، مستعيناً بابن صديقه وزوجته، ليقرر بعد حين العودة إلى الكويت مجدداً بعد أن تملكه اليأس من فكرة العثور على ابنته.. ولاستحالة العودة في طائرة بعد قصف مدرجات المطار، وانتشار أشباح الموت بكثافة في الطرق البرية، يقرر الأب العودة بحراً إلى الإسكندرية ومنها إلى الكويت، لكنه يختفي فلا هو يصل إلى مصر، ولا هو يعود إلى بيروت!

أما حكاية الفرقة الموسيقية التي كانت تعزف في كل المناسبات، فمع كل سطر منها، كانت ألحان الفرح المقتنص من بين جنبات حزن مطبق سيدة الموقف، وبأسلوب ساخر يندرج في إطار ما يعرف بـ"الكوميديا السوداء" كما في العديد من مقطوعات وادي أو حكايات "ديك بيروت"، فهذه الفرقة التي عزفت الموسيقى الجنائزية في لحظات الفجيعة المرتبطة بالموت، كانت تعزف الفرح في الانتصارات، لكن لحنهم الأخير بقي مخنوقاً أسفل جدران الغرفة البائسة التي كانوا يمارسون فيها تدريباتهم على الموسيقى والحياة، في زمن شح الحياة.. اختنق لحنهم، وكان صوت القذائف المنهمرة على السقف فوق رؤوسهم عالياً كرائحة الموت التي كانت طاغية، ولا تزال.

وفي معزوفة وادي السردية "مكعبات ثلج من أجل فيوليت"، يلعب الكاتب على المتناقضات

كما في غيرها من الحكايات، فتطفو السخرية على السطح من فرط وجع الحرب، حيث ترتفع حرارة الشابة، فيتجمّع معارفها وأصدقاؤها، ويجمعون على معالجتها بكميّات كبيرة من الثلج لعلهم ينقذوها من افتراس وشيك تمارسه حرارة جسدها بحقها، إلا أن الصباح حمل لهم نبأ موتها من شدة البرد!

ومع تقليب صفحات أو صيحات "ديك بيروت"، اصطدمت بمسلحين أوقفوا حاملاً تبين فيما بعد أنها مصرية، وبالتحديد "اسكندرانية"، جاءت للبحث عن زوجها المحارب، والمختفي منذ شهرين.. جاءها المخاض في المكان الغائب عن الخريطة، والخالي من البشر.. ماتت المصرية، وحين همّ لصوص بسرقة المنزل الذي كانت تقيم فيه بشكل مؤقت، تفاجأوا برضيعتها، فقرر أحدهم "سرقتها" وتربيتها مع أطفاله، لينتهي بها المطاف فدائية فجرت نفسها في "جيب" عسكري إسرائيلي، حين باتت في العشرين من عمرها.

عن «سوداد» أو «هاوية الغزالة»

كأنها "أنين الياسمين"، أو "جُرف الدم"، أو لعلها "تحوّلات الفتى العاشق" بحثاً عن "مرآة ومشط وقصائد عشق"، صاعداً نحو "الشمس" و"النجوم" تارة، وهابطاً لينبش تحت "التراب"، بحثاً عن معانٍ جديدة لعنوان روايته الأخيرة "سوداد"، الصادرة عن منشورات المتوسط في إيطاليا.

و"سوداد"، التي صدرت قبل أربعة أيام على رحيل الروائي الفلسطيني فاروق وادي، لم تكن آخر أعماله الإبداعية فحسب، أو آخر ما يطبع له من روايات، بل كانت محور منشوره الأخير على صفحته في موقع التواصل الاجتماعي "فيسبوك"، محتفلاً بصدورها.

وبعيداً عمّا أورده وادي في مطلع روايته وحواشيها حول المعاني المحتملة لكلمة "سوداد" البرتغالية التي لا رديف لها في اللغات الأخرى، فإن ما فعله هنا، كان أن نقل كل هذا الالتباس في معاني العنوان ما بين عواطف متشابكة، وسوداوية، وحنين، والألم الممتع، أو

المتعة المؤلمة، والنعيم الذي يتضمن العذاب، إلى شخوص الرواية ومضامينها، مقدماً مقترحاً إبداعياً جديداً، وضمنياً، لجهة معنى يجعل من "فلسطين" المُعادل الموضوعي لـ"سوداد"، بل ومؤطرا لكل المعاني المقترحة جزافاً من قبل، وكأنه ينحت قاموسه الخاص من البرتغالية إلى لكنة شخصية الشرطي "منصور منصور"، أو "الست زهور" التي حضرت بكنية ابنتها، هما القادمان من روايته "رائحة الصيف"، قفزاً بآلة زمن سردية نقلتهما، تبعاً لتاريخ تعميم النص، من العام ١٩٩٣ إلى العام ٢٠٢٢، أو بلكنة "مصطفى"" القادم من بين صفحات روايته "سرير المشتاق"، على بعد ثلاثة أعوام من "هاوية الغزالة" هذه.

عبر حكاية "ياسمين"، أو "الياسمينات"، يروي وادي شيئاً من فلسطين التي بقي حتى نَفَسِه الأخير مهجوساً بها، ففي البدء، وبينما الأب كان أو بات، حسب قراءتنا للسرد، ما بين ذهاب وإياب، صحافياً في الكويت ارتبط ببرتغالية، فكانت هي، التي أصبحت أكثر من مجرد "خبر من تولوز"، فسيرتها ومُستنسخاتها بذات الاسم شكلت على مدار صفحات "سوداد" حكاية وطنٍ بأكمله، وليست مجرد اسم لمجلة. حين "كللوها بالورد"، تظهر "ياسمين" أخرى، تقع تحت وطأة الذبح، هي ابنة "قائد مقاطعة رام الله"، وكانت تعيش في "قصر الحمراء"، منزل العائلة لفترة من الزمن، وتدرس في "الفرندز"، هي الملقبة بـ"ملكة جمال صيف رام الله".. يُلقى القبض عليها، في "بلاد الرمل والصحراء"، وهي على ذمة "الأمير" الذي كان قد تزوجها منذ سنوات خلت، وذلك بصدد إعدامها برفقة مصفف الشعر "وسيم" القادم من لبنان، وهو من أصول فلسطينية وكان والده كذلك مصفف شعر في حيفا قبل النكبة.. يمسكانهما بالجرم المشهود، والذي قد يكون مجرد "تسريحة شعر" من ذكر لأنثى، ويتهيؤون لتنفيذ الحكم، فينفذه السيّاف بحق "وسيم"، في حين يقوم "الأمير" بقطع رأسها في الساحة العامة بسيفه.

وفي هذه الحكاية الياسمينية تأويلات سياسية عدّة، لا تنفك عن حكاية احتلال فلسطين في العام ١٩٤٨، والمسؤولين عن لجوء سكانها الأصليين وتشتتهم في أنحاء العالم، بما في ذلك دول الجوار، أو داخل فلسطين نفسها كما في حال رام الله بالضفة الغربية لنهر الأردن.

وفي حكاية لـ"ياسمين" ثالثة، يظهر الشاعر "ياسين" الذي يقع في غرام الياسمينة ابنة الرجل المتنفذ في الدولة، الذي يهدده إذا لم يكف عن حبّه لابنته بأن يزّج به في سجن "الجفر" الشهير في صحراء الأردن، وكان افتتح في العام ١٩٥٣، أي في الفترة التي كانت فيها الضفة الغربية بمدنها جزءاً من المملكة، وأغلق في العام ٢٠٠٦، وكأنه يتحدث بشكل رمزي عن "الحب الممنوع" في تلك الحقبة الزمنية، التي كان "الجفر"، كما أوحى وادي، من بين عناوينها الأساسية، كما حال العديد من جغرافيّات الجانب الغربي من النهر، وتحديداً رام الله، التي تناول الشاعر، بعد خروجه من السجن قصائد كتبها في حبّ ابنة القائد العسكري السابق، "شطيرة شاورما من مطعم أبو إسكندر"، قبل أن يتجه لشراء "زجاجتي بيرة وزجاجة عرق رام الله من بقالة زبانة".

يغادر "ياسين" الذي يشارك "الياسمينات" بطولة "سوداد" على امتداد ما تبقى من فصول الرواية، فلسطين إلى الكويت بعد أن يمتهن الصحافة، خاصة على إثر تلك التجربة المريرة التي لم يغب عن سردها ذكر بعض الأسماء التي لدلالات ذكرها الكثير كعبد الله الريماوي، قائد حزب البعث في الأردن في خمسينات القرن الماضي. يكتب "ياسين" مقالاته باسمه الأول دون الثاني، وكأنه يُمحى في المنفى من شهادة ميلاده تدريجياً، وخاصة بعد عدم تمكنه من إجراء حواره "الحلم" مع جمال عبد الناصر ليسأله عن تفاصيل ما حصل في "حصار الفالوجة"، رغم نجاحه في إجراء حوار مع مطرب عبد الناصر المفضل، عبد الحليم حافظ، ما يساهم، وفق السرد المتخيّل، في ترتيب زيارة وسلسلة حفلات للعندليب الأسمر إلى الكويت، حيث غنى أولى أغنياته الخليجية "يا هلي يا هلي".. وكأن "ياسين" هنا، تعبير عن رموز فلسطينية معروفة، وإن اختلفت التفاصيل، كحال الشهيد غسان كنفاني، وربما بعض شخصيات رواياته، أو الشهيد ناجي العلي، أوغيرهم.

ويشتهر "ياسين" كصحافي لامع، ومن بين حكايته رحلة بحثه عن الممثل الفلسطيني "نعيم اليافاوي"، وكان كما في "سوداد"، سمع حكايته من "الست زهور" شقيقة "اليافاوي" التي التقاها في رام الله، وفي هذا تدليل من وادي على كون الحواضر الفلسطينية ما قبل النكبة،

وخاصة يافا والقدس وحيفا، كانت مراكز ثقافية فنية بامتياز ليس على مستوى المنطقة فحسب، بل على مستوى الإقليم، وهي حكاية يتضح لمن يقرأ الحواشي، أنها تخييل فني لواقع الممثل الفلسطيني صلاح بركات، وكان أول من كتب عنه الصحافي المصري صلاح عيسى في منتصف ثمانينات القرن الماضي، في حين كان وادي قد بدأ في تحويل حكايته هذه إلى سيناريو فيلم لم يكتمل، وهو ما كتب عنه في مقال له بجريدة "الأيام" صيف العام ٢٠٠٩.

"من القاهرة، أثار ياسين قضيّة ممثل فلسطيني مغمور عبر تحقيق نشر بعنوان: ماذا جرى للممثل الفلسطيني نعيم اليافاوي؟!.. علاقات ياسين التي امتدت إلى بعض المتنفذين في السلطة المصرية للثورة، أفادته في طرح السؤال حول مصير ذلك الممثل، الذي كان شقيقاً للست زهور، جارتهم التي رحلت من رام الله إلى مصر للبحث عنه.. لم يجد بين نجوم التمثيل، أو من له علاقة بالسينما والمسرح، وكل من لهم علاقة بالفنون ممّن عرفهم في مصر، من قال له، إنه التقى به".. وفي مرحلة لاحقة، "وجد ياسين شذرات توصّل من خلالها إلى معلومات غامضة، مبهمة ومبتورة، قد تُغني بحثه واستقصاءاته الصحافية، ثم نشر بالاستفادة منها، قصة ممثل فلسطيني مغمور، اتّهم نفسه بقتل الزعيم الإخواني المغدور حسن البنا!"، مبرراً هذا اليائس أوهامه تلك بأن "حسن البنا أقام علاقات مشبوهة مع الإنكليز، وقبض أولاً من هيئة السويس التي يديرها الإنكليز.. والإنكليز هم الذين أعطوا وعداً لليهود بامتلاك فلسطين، وسهّلوا لهم الهجرة عندما كانوا ينتدبون بلادنا".

وبتقنية الأفلام، يعود بنا وادي إلى ما كان بدأه حول "ياسمين" الأولى، التي هي ربما ذاتها كل "الياسمينات" اللاحقات، حتى من قطع "الأمير" رأسها في "بلاد الصحراء"، في لعبة التباسات ذكيّة.

نرى "ياسين" يتعرف إلى الفنانة التشكيلية البرتغالية "جيزيلا" في مدينة إسبانية، هي التي ستكون لاحقاً أم "ياسمين" ابنته التي رفض الاعتراف بها منذ كانت جنينا في رحم أمّها، لتعود ناصية السرد إلى الابنة المُفترضة بعد أن كان تسلمها على مدار عشرات الصفحات الصحافي

الفلسطيني، أو "ياسين" الأب.

"أنا ياسمين، ولدتُ في السجن، وكبرتُ في المنافي، أنا ابنة الجدران المنيعة، ابنة امرأة بلا رجل أو ربما أكون ابنة لخيالات رجل مرّ كسحابة غبار في رؤى امرأة مجروحة، رجل ظلّ بالنسبة إليّ غائباً، ثم أصبح ظلاً معلقاً على حائط غرفتي (...) رضعتُ من خمسين امرأة، لم يترددن في أن يشرعن إليّ صدوراً ناعمة كالحرير، لكن إحداها لم تكن لتدرّ في جوفي قطرة حليب".

وكانت "جيزيلا" الأم قد دخلت السجن في إسبانيا بعد أن أحرقت الشقة التي منحها إياها "ياسين"، وتعود ملكيتها لشقيقه "علاء"، الذي يخرجها منها بقرار محكمة، ولولاها ما عرفت "ياسمين" حكاياتها في السجن ولا أنها ابنة صحافي فلسطيني .. "قررتُ"، والحديث عن لسان ياسمين، "أن أرى فلسطين أولاً.. أعرفها من الكتب التي استعرتها من مكتبة المدرسة ومكتبة البلدية، بحثتُ عنها في كمبيوترات المدرسة على الإنترنت، قرأت عمّا حدث لأهلها من تشريد، وما لاقوه من مجازر قبل أن يُطردوا بالقوّة من مدنهم وقراهم في العام ١٩٤٨، ثم في ١٩٦٧، وما عانوه في الحياة والمخيّمات.. أمّي قالت لي، إن والدي روى لها كيف أخرج من فلسطين مع أهله عنوة، وكان صبيّاً في سنوات عمره المبكرة، خرج ببنطلون قصير، لم يتح له أن يمتلك آخر غيره لأكثر من عامين كاملين، وقد ظلّ يحرص على أن ينام بملابسه وحذائه، ليكون مستعداً متهيئاً للعودة إلى بلده وأرضه من دون تأخير!".

بعد أن يتنقل بين كثير من الدول في رحلة المنافي، ما بين الكويت، وإسبانيا، ولبنان، وسورية، والأردن، وليبيا، وتونس، يعود "ياسين" إلى فلسطين في العام ١٩٩٤، على إثر توقيع اتفاق "أوسلو"، وقد عاث به الزمن شيخوخة وتعباً، ليستقر في رام الله بحثاً عن "ياسمين" معشوقة الطفولة.. ينتظرها أمام باب فندق قصر الحمراء، الذي بات سكناً لطالبات جامعة بيرزيت، إلا أنه يعرف لاحقاً أن ياسمين قتلت على يد زوجها، ومات والداها كمداً عليها، فيما مات هو أيضاً وحيداً في غرفته، مستعيداً حكاية "الأمير الفارس" الذي كان يطارد غزالة بسهامه، لكنها كانت تتلافاها بنجاح، قبل أن تسقط فجأة، ودون سابق إنذار، من مرتفع صخري إلى هاوية سحيقة حيث قاع المحيط، فكانت "هاوية الغزالة" رديفاً لـ"سوداد"، والتي كلها في

القاموس الواديّ، نسبة إلى فاروق وادي، من معاني "فلسطين" وأسمائها، هي التي بقيت رغم مقارعتها الموت "طيبة القلب، وربما ساذجة".

العلامات الثلاث والسؤال المتكرر

وأختم هنا بسؤالي وادي عن كتابه «ثلاث علامات في الرواية الفلسطينية»، وما إذا كان اختياره لكنفاني وجبرا وإميل حبيبي، باعتبارهم مؤسسي ومرجعية الرواية الفلسطينية فيه ظلم لغيرهم، بحيث أجاب: من الغريب ان يتكرر طرح مثل هذا السؤال عليّ مجدداً.. لم أقل في مقدمة الكتاب ولا في المتن أن كنفاني وحبيبي وجبرا هم «مؤسسو الرواية الفلسطينية، ولم أطالب أحداً باعتمادهم «كمرجعية» وحيدة للرواية الفلسطينية.. كلّ ما قلته، حسب الحوار في «أوراق فلسطينية» والمُشار إليه أعلاه، هو أنّ الوقوع على هذه الأسماء الثلاثة، أو العلامات الثلاث، لم يكن ضرباً من المصادفة، أو اختياراً عشوائياً أمْلته نزعة انتقائية، بل إنه جاء بعد دراسة بذلتْ جهدها لتكون شاملة في تقصّي مسار الرواية في فلسطين، منذ محاولاتها الأولى مطلع القرن العشرين، وحتى صدور «ثلاث علامات»، أوائل العقد التاسع من القرن ذاته.

ما كُـنْـتَهُ سَنَكونُهُ يَوْماً

إلى الأسير كريم يونس «حارس الوادي»

عبد الناصر صالح

كانَتْ مُطَهَّمَةً خُيولكَ
إذ تسامى الغَيْطُ في مَلَكوتِها
والحُلْمُ طوْعُ يَدَيْكَ
آياتٌ مُعَظَّمَةُ الرّؤى
ماذا عَساكَ تقولُ في ميراثِ جَدِّكَ
سوفَ تُبْصِرُكَ النّجومُ
وتستَضيءُ بكَ الصَّحاري
- لن تَضِلَّ شِعابَها -
فانْهَضْ بما جادَتْ عليكَ الرّيحُ
قد يَصْبو إليكَ أزيزُها
واخْرُجْ إلينا من مخاضِ السّجنِ حيّاً
في رِداءِ العُمرِ
لا مِن عَوْدَةٍ للخَلفِ
لم يَرْأفْ بنا بَهْو الدُّجى والحائِطُ الصّخْريُّ

هل عُقِدَ اللّسانُ وخَرّتِ الأقلامُ ؟
هل وَصَلَتْ رسائِلُكَ العَميمةُ ؟
لم يَغِبْ في السَّهلِ ظلُّ السَّهلِ
جاءَ مُحَمّلاً بعُصارةِ الثّوّارِ
هل أبْصَرْتَ وجهكَ في عيون رفاقكَ الأسرى ؟
ما جفَّ حِبْرُكَ
- لا تُصدّقَ قوْلَهُمْ -
وامضُغْ غيابكَ علَّ ينْفَكُّ السَّوادُ عن الوِسادةِ
والنّدى يسْتَدْرِجُ الأقفالَ
يَرْتفعُ السّتارُ على حَديثِ الصّبحِ
والمفتاحُ يَشْجُبُ خَوْفَهُ في عُروةِ الأبوابِ
" وادي عارةَ « المفتاحُ
بصْمَتُكَ النّقيّةُ في المرايا ..
مَرَّتْ على قلبي حَكايا الغائبينَ
تَئِنُّ ،
طيْفُ سحابةٍ في الشّارع المَغْدورِ
خلفَ الضّفّةِ الأُخْرى ..
فهل غَسَلَتْ يداكَ الزّرْعَ والأسماءَ ؟
بيني وبينَكَ ألفُ رابطةٍ
على وَقْعِ الرّصاصِ
تشدُّ أَزْرَ صَهيلنا
فاحمِلْ تَراتيلَ الصّلاةِ إلى القلاعِ
يَؤُمّكَ الزّيتونُ /

أشرقَ وجهُكَ المَخضوبُ
أَثْمَرَ في وجوهِ السائرينَ
إلى طريقِ الجُلْجُلَةْ ..
كَبُرَتْ أهازيجُ الطفولةِ
وازدهى نبع الهوى في الحَوْصَلَةْ ..
الجرحُ جرحُكَ أم جِراحُ أعِزَّةٍ
يَسْقونَ حقلَ القمحِ ؟
هل تُصْغي لوقْعِ الأبْجَديّةِ
- سوف أفتَتِحُ الكلامَ
ومُخْرَجاتِ الواقعِ السلبيِّ -
أيُّ سفينةٍ عَبَرَتْ
تعانِقُ - في المساءاتِ اللّذيذةِ –
نَشْوَةَ الإيقاعِ
كي تَرْقى لروحكَ أو تُؤَرِّخَ للحصادِ ؟
الوهنُ يَعْجِنُ جُرْحَنا
فاسرِجْ عُيونكَ
هل ترى ميراثَنا الوطنيَّ طَوْعَ يَديْكَ ؟
هل غطّتْ يدُ الزّنزانةِ البلْهاء وجهَكَ
في مَجاهيلِ الجهاتِ؟
فلستَ موثوقَ الحُجى ..
ما كُنْتَهُ سَنَكونُهُ حَتْماً
فهل تنسى ؟
خُلِقْتَ مُؤَمّلاً بالفَتْحِ

خلفَكَ سائرونَ إلى مواقيتِ النّهارِ
ولن تكونَ الأرضُ عاصِيَةً
فهل فاضَتْ عليكَ منابعُ الأمجادِ ؟
هل بلغَ الهِيامُ نِصابَهُ ؟
لا لم تَزُغْ عيناكَ
صَوْتُكَ لا تغيبُ الشمسُ عنهُ
ولا تُفَرّقُهُ المواجِعُ
فاستعدْ ريشَ القصيدةِ
كي تطيرَ على بِساطِ جَناحِها
واحْكُمْ نوافِذَ من مَضَوْا عكسَ اتّجاهكَ
وارتضَوْا زَيْفَ العبارةِ
سوفَ تلْفُظُهُمْ شوارِعُنا وأطفالُ الحجارةِ
ساقَهُمْ لِجَهنّمَ التنّينُ ،
حينَ تَمَرّغوا بالوَحْلِ
فاحضُرْ مثلَ ذاكرةٍ تُفَكّكُ قيْدَها الوَهْميَّ
تَعْدو في مرايا الرّملِ /
ذاكرةٍ مُعَمّدةٍ كما ميلادِنا الآتي
على نَقْشِ الحماسةِ
- لا مَحالةَ قادمٌ -
رغمَ التَّردّدِ والخيانةِ قادمٌ
فادلُفْ إلينا من ثغورِ ربيعِنا الدّاني
يُصفّقُ في لُحاءِ الرّوحِ
واحمِلْ بِذرَةَ العشقِ المُزَنَّرِ بالنّدى الدَّوّارِ

وانْسَخْ كلَّ طقسٍ في فُصولِ الماوَرائيّاتِ
واقرأْ ما تبقّى من كِتابكَ
في مُصَلّى العِشْقِ ..
قد تنأى الحقيقةُ
والجبالُ تحاوِرُ الذّكرى ،
«ووادي عارةَ « المَجْبولَ بالرّيْحانِ
واخرجْ من بَراثِنِ قَيْدِهِمْ
وابدأ - كما ساعي الأماكن - من حُطام الوَقْتِ
مُؤْتَزِراً بروحِ القُدسِ
تأتي مثلَ عاشقةٍ بَتولٍ
هل يُضاهي الحُلْمُ فَوْضى الجَمْرِ ؟
واسترْسِلْ بكلِّ ضَراوَةٍ ..
فالصّورة اكتملَتْ ..
والمُرْجِفونَ الخائنونَ الغارِقونَ بِغيّهِمْ
لا يُشْبِهونَ قَصيدتي ..
في الليلِ يَسْتَعِرُ اللَّظى
وأغازلُ الكَلِماتِ
أسْرِقُ نبضَها من خانةِ الإبداعِ
والعمر المُبَعْثرِ بالخُطى ..
أجْتاحُ عالمَكَ المُوَشّى بالمَجازِ
أنا أميرُ الشِّعرِ ،
أدْخُلُ للقَوافي من شذى شاماتِها
مَشْفوعةً بأصابعِ الوصلِ القديمِ

أنا مَسيحُ حُروفِها الجَوّالُ
والمنفيُّ في المَعْنى
أبيعُ الحزنَ مَغْروساً بخاصِرَتي
نَزَفْتُ ، وأطفأ الحَنّونُ نُدْبيَ ..
لا هَياكلَ قد تُضيءُ
ولا صَوامِعَ تَشْتهي صُوَراً مُكَدّسةً
على شَدْوِ الكُهولةِ
تَخْتَفي شيئاً
فشيئاً ..
في نَواصي الإنتظارِ
ضَجيجُ أسئلةٍ تَحَلَّقَ في النّدى
حتى نُتوءاتِ الخريفِ
فهل سأبتكِرُ المدى مُدُناً
تسيرُ إلى الذُّرى بِنَمارِقِ الفَيْروزِ
قد تلِدُ البلادُ رَبيعَها ..
كم مرَّ عامٌ في سحابةِ عُمْرِنا
أُسْقِطْتَّ من تَقْويمِهِ
فاصْدَحْ بما عُلِّمْتَ للملأِ /
استعد نَفَحاتِكَ الأولى
كأنّكَ سِندبادُ غنائِنا
في خَلْوةِ المِحْرابِ
يرفعُ سُنّةَ الوقتِ الفريدةَ
هل سَتُمْعِنُ في شرارتِها ؟

بكَ تفتَحُ الرّؤيا على أرجائِها
وتعودُ ريحُ الشّرقِ يَحْدوها الأمَلْ
فَاكتُبْ على صَدْرِ الجَبَلْ
أسماءَ من رحلوا وعادوا
يملأون الأرضَ فاكهةً وقمحاً ..
واحذَرْ صَهاينَةَ الخَليجِ ونَفْطَهُمْ
يَغْتَرفونَ من دمِنا مِدادَ كؤوسِهِمْ ..
البرُّ لكْ
والبحرُ لكْ
والمجدُ يَبْغي مَنْهَلَكْ
فاسْقِ المواسِمَ بُرْدَةً للعمرِ
صوتُكَ - في انشطارِ الرّيحِ -
يَنْمو في أصابعِ كفّها ..
أكْمِلْ صلاتَكَ مثلَ صوفيٍّ
تهيّأَ للقيامةِ
واعتَنَقْ قَبَسَ النُّبوَّةِ
حينَ يَنْتَفِضُ الشعارْ ..
قَصْرُ الخَليفةِ عارِمُ الفَتوى
مَلاذٌ خاسِرٌ للعارِ أُسْقِطَ في المزادِ
كما شياطينِ السّياسَةِ
كلُّ شَيءٍ عالِقٌ مُتَرَنِّحٌ
أو قابِلٌ للانفِجارْ ..
وانْصَبْ عيونُكَ ضِفّتيْنِ لِحُلْمِنا

علَّ القَصائِدَ تَرْتَقي لِبَهائِكَ المَحْجوبِ
في عَتْمِ الجِدارْ ..
واكمل صلاتِكَ مثلَ صوفيٍّ أمينٍ
كي ترى إضبارةَ الشّهداءِ
تلمَعُ كالطّلوعِ /
هنا يقينُكَ في طوافِ السّجنِ
يَكْتَشِفُ الخُطى
فارْجِعْ لِنَصّكَ
جَوْلَة السّردابِ طاغِيةٌ
فلا تَتْرُكْ نُجومَكَ فوقَ صدرِ اللّيلِ عاريةً
سماؤُكَ عِقْدُ أسئلةٍ سَتَجْهَرُ بالخُصوبَةِ ،
مثلَ ذاكِرةٍ مُرَطّبَةٍ
فهل تَصِلُ الصّلاةَ إلى أعالي السّجْنِ
فاصعَدْ
مثلما الصَّبارُ يَعْصُرُ مُهْجَةَ الأَسْفَلْتِ ،
كي يَمْحو الخَرائبَ
علّنا نَصْطادُ في الواحاتِ رائِحَةَ الجُدودْ ..
****

طولكرم / فلسطين

قصص قصيرة

سما حسن

***عصفور**

كان ينظر إلى العصافير التي ترفرف في السماء من نافذة غرفته المتهالكة، ويتمنى أن يطير مثلها، ولم يكن يعرف أن صاروخا سوف يدمر البيت كله ويصبح هو عصفوراً يحلق كيفما شاء في الجنة...

***بذرة**

قالت له: أحبك وأتمنى ألا تفارقني

سقط شهيدا في أرض المعركة وبقيت بذرته في رحمها لا تفارقها....» زوجة شهيد»

***زيارة**

اعتادت أن تذهب إلى مقبرة العائلة، ففي كل مرة يموت فيها أحد أفراد العائلة تصمم على أن تذهب في الصباح التالي لموته إلى المقبرة، وحين تسأل عن سبب هذه الزيارة تقول : يجب أن أذهب لكي أؤنسه في صباح يوم غربته، ورغم أن هذه العادة التي اعتادتها ليس لها أي أساس في قرآن أو سنة إلا أن أحدا لم يفكر في منعها، تقبل الجميع أحزانها، ولذلك فقد توجهت والقصف يدور حولها في صباح اليوم التالي لموت ابن شقيقها الصغير

والذي استشهد أثناء مروره في الشارع من سيارة تعرضت للقصف بصاروخ، وهذه المرة لم تعد من زيارتها، بل كان على أحدهم أن يذهب لكي يؤنسها في صباح اليوم الثاني من غربتها عن الحياة.....

***أرجوحة**

حذرته أمه من الذهاب إلى الأرجوحة القريبة حيث كان القصف يدور في المحيط، ولكن الاغراء كان شديدا، فالأرجوحة ترتفع عن الأرض كثيرا وتعطيه مساحة للحلم، أنه يبتعد عن هذا الخوف والرعب، وأنه في عالم هاديء لا يسمع فيه سوى صوت العصافير، ولذلك فقد انسل من البيت نحو الأرجوحة وركبها بعد أن نقد صاحبها القطعة النقدية الصغيرة التي كانت بحوزته.

ارتفعت به الأرجوحة وأخذته نحو عالم حالم بالفعل، والغريب أنه لم يعد إلى الأرض ، لم يعد أبداً إلى الأرض.....

***شبح في الفرح**

لم يكتشف أحد سر هذه الطفلة الصغيرة، التي تتخذ مجلسها على كرسي بين المدعوين، وجهها ملطخ بالدم، وشعرها منكوش وثيابها مهترئة ومتسخة وحافية القدمين، تأتي فجأة وبلا استئذان وبلا دعوة، والأعجب أنها تأتي وحيدة بلا أم أو صحبة، تجلس وتهز ساقيها في جزل وتصفق مبتهجة، ولا تلمس طعاما يقدم لها على مضض على أساس أنها ليست من المدعوين، فقط تبتسم وتصفق وتطيل النظر في الوجوه.

لا أحد يعلم قصتها، ولا أحد يعرف من أين تأتي أو متى دخلت أو كيف تغادر، البعض قال عنها الطفلة الشبح، وهنك من قال انها تشبه طفلة قتلت في الحرب الأخيرة، ولذلك لم يكن أحد يحاول لمسها، أما هي فلم تتوقف عن محاولاتها لاستراق فرحها المسروق، وحتى اسمها الذي اختاروه لها لم تعترض عليه...

***غرق**

قال لأمه أريد أن أذهب للسباحة في البحر القريب، ولكن امه خافت عليه ان يغرق فهو لا يجيد السباحة... ولكنه ظل مصمما وألقى بجسده في الماء بمجرد أن أصبح قبالته، وهكذا طفت همومه وجمعوها بعد حين، أما جسده فلم يعثر عليه حتى الآن....

***عيدية**

اصرت الطفلة على الحصول على « العيدية»، ولم تكن تملك أمها أي قطعة نقدية تضعها في يد الصغيرة، وتذكرت أن زوجها الشهيد كان من هواة جمع العملات القديمة التي تقص تاريخ فلسطين، وقد احتفظت بها لوقت طويل ولم تفكر ببيعها رغم ضيق الحال، وهكذا تناولت قطعة صغيرة منها ووضعتها في كف صغيرتها التي ابتسمت بسعادة وركضت لتقف أمام البيت.

بعد قليل كانت جثتها ملقاة على الأرض مضرجة بالدماء، وهناك من عثر على قطعة نقدية متدحرجة في المكان قرر أن يبيعها لجامع تحف في الجوار فقد قدر أنها قيمة جدا....

***باقة ورد**

لامته لأنه أهداها في يوم زفافها باقة ورد ثمينة، قالت له : الأجدر لو احتفظت بثمنها لكي نعتاش منه لأيام قادمة...

ضحك ولم يرد وقرب عطرها من أنفه...

اليوم نثرت هذه الورود الزكية فوق قبره بعد أن أدركت أنه قد اختار مكانها بنفسه...

***صديق**

عثوره على ورقة نقدية تحت ركام منزل جيرانه أسعده

سيعود بها لبيتهم المتآكل والخالي من كل شيء

نظر للورقة نظرة ونظر نظرة أخرى لركام البيت

تذكر جاره الصغير الذي يقاسمه اللعب والذي لم يعثر على جثته بعد.....

فمزق الورقة وألقى بها بعيدا ..... ونام ببطن خاوية ودموع كثيرة تدفئ ليله البارد

***دمية**

استيقظت الدمية من بين الركام، بحثت عن صاحبتها التي كانت تنام بين أحضانها في الليلة الماضية، لم تجد من أشلاءها سوى الذراع الصغيرة التي كانت تلفها حولها، فتوسدتها وعاودت النوم....

***ثرثرة**

أصدر الملك أمره بأن يصمت أبناء الشعب ليلاً، وألاّ يثرثروا في أسرَّتهم قبل النوم، لأن حاجب الملك أخبره أنهم يقولون عنه كلاماً سيئاً، لكنّ أحداً لم يستجب لقراراته، فقام بقطع حناجر كل أبناء الشعب، وألقى بها في البحيرة المجاورة لقصره.

لم يشعر الملك بالراحة لأن أصوات الثرثرة كانت تنبعث كل ليلة من البحيرة، وتقضّ مضجعه في قصره الكبير.

***انتظار**

لم يجد حلا يحمي من خلاله عائلته من هذه العاصفة العاتية التي تذيع عنها نشرات الأخبار، فقره لم يترك له متسعا ليجد حلا ، فقام بربط أجساد أطفاله وزوجته إلى جذوع النخل المحيطة بيته الصفيحي وجلس قبالتهم يدخن سيجارته الأخيرة وينتظر.....

***كعكة**

قالت لأطفالها : سأعد لكم هذا المساء كعكة عيد ميلاد أخيكم الأكبر

فرح الجميع باستثناء الصغير ابن الثالثة

لم يفهم معنى كلمة كعكة.....

ولكنه تمشى طويلا بالبستان رغم أصوات القصف حوله في كل مكان، منتظرا حلول المساء.....

مع المساء كان محمولا على الأكتاف في صالة المنزل الصغير ورائحة الكعكة المحترقة تملأ الأنوف....

***قدم واحدة**

لم يتصور أن أحدا سيبلغ مقدار سعادته حين وافقت على الزواج منه وهي تعلم أنه يمتلك قدما صناعية بعد أن فقد قدمه في حادث سير وهو صغير، ولكنه انتظر زيارتها طويلا في المشفى بعد أن بترت قدمه الثانية التي أصيبت بشظايا الحرب الغبية.....

***سؤال**

فيما كان صوت القصف ليلا يدوي في كل مكان ، سأل الطفل أمه: أمي ما هو الموت؟، في الصباح كان قد خبره جيدا....

***ألبوم صور**

عاد من غربته بعد غياب طويل مشتاقا للقاء عائلته، ولكنه لم يجد سوى ألبوم صور العائلة فوق ركام البيت في انتظاره.

حلم

***مفسر الأحلام**

اتصل بمفسر الأحلام يخبره عن حلمه المتكرر كل ليلة بأنه يخرج في مظاهرة نحو قصر الحاكم، فقال له مفسر الأحلام: أبشر ستنال رزقا وخيرا كثيرا.

وضع سماعة الهاتف في فرح، وسرعان ما تبدّد حين سمع طرقا شديدا على باب بيته!.

تقارير وكتب

«احتضار على حافة الذاكرة» رواية لأحمد الحرباوي:

روافع المقترح الجمالي لسردية الخليل-فلسطين قبل قرن عبر رحلة تشويق وتأمل

تحسين يقين

«الى العزيزة ليلى، قبل أن تقرري الذهاب للبحث عن ملامحك الحقيقية، أنت هناك الآن بت مشوهة، وكل الحكايات التي تروى عن الماضي مدنسة وغير حقيقية، لذلك، كي لا تقعي في شرك الكذب والتلفيق والتمجيد لعصور شوهتنا جميعا، عليك قراءة هذه المذكرات كي لا تموتي احتضارا عند حافة الذاكرة». ص١٣١

أما الملامح الحقيقية، فهي القصة: تولد طفلة للزوجين لئيا وإيلي اللذين كانا قد ارتبطا بزواج غير مضيّ عنه بعد قصة حب حين التقيا في موسم النبي موسى بالعيزرية، لئيا تودع ابنتها وترحل في حالة بؤس وفقر، بعد أن تقطع حبل السرة وتعطيه لزوجة المختار، وتلك عادة تعني أنه تهبها لابنها. وتلك عادة لكن ما يجعل الأمر غير عاديّ، هو اختلاف الدين، مما يثير الجدل، وردود الفعل. اما إيلي، فيتخفى خوفا من عيون السلطات، كونه ناشطا ضد التتريك، مع مجموعة من الخليل وفلسطين، يلجأ لدير هناك، لا يعرف مصير زوجته، يتم القبض عليه، لتهيئته للإعدام أسوة برفاقه. تربي ميسون زوجة المختار طفلة لئيا وتسميها ليلى، اسم قاسم على الأديان، في يوم، وهي تفي بنذر إطعام الأسرى، يسقط ابنها عن البيت فيموت، وتلحقه حزنا، في حين يكون زوجها مختبئا في الدير مع إيلي. المفارقة، أن كل منهما يعرف ماذا حدث لأسرة الآخر، ولا يعرف ما حدث مع أسرته هو، فقد أخفيا ذلك رحمة بالآخر.

تنتقل حضانة ليلى الى وجيهة ابنة عم ميسون، ولم يكن ذلك سهلا، بسبب رفض الأسرة، تسهل حماتها سرقة مريم عن طريق الغجر، ليرتبط مصير مريم ولمياء.

ليلى ولمياء، تختصران الكثير هنا، ومعهن أم لمياء وميسون زوجة المختار، (التي يقودها المصير زوجة للمختار بعد أن يخسر أبوها تجارته أيام السفر برلك) ووجيهة ابنة عمها.

لم تنفصل الحياة العادية، وما فيها من معاناة، عن السياق التاريخي والسياسي؛ فعشية الحرب العالمية الأولى، تتعمق التحولات وتتبلور، وتبعا لها، تأخذ حياة الناس ومصائرهم طريقا جديدا.

تلجأ لمياء المسلمة الى تمثيل دور أجنبية، وأن مريم الرضيعة ابنة لئيا وإيلي الهودية ابنتها، حتى تستطيعا الخروج من فلسطين مع الممرضة برجيتا، لتعيشا هناك في روسية، لتنشأ مريم نشأة أرثوذكسية. الخلاص خارج فلسطين: مريم المسيحية الأرثوذكسية، بحكم التنشئة، ولمياء المسلمة الخليلية حقيقة، المسيحية الأرثوذكسية رسميا.

لمياء تعيش في عزلة، وتتعلم اللغة الروسية، وتكتب مذكراتها، وهي التي أصلا لم تكن تعرف العربية قراءة وكتابة، ترحل تاركة مريم في عهدة بريجيتا، التي تنجب طفلة من قنصل روسي اسمها ألما.

وحتى عندما تكتشف ليلى أصولهما هي ولمياء، لا تشعر بالصدمة، وتتردد بالرجوع الى بلدها، وكيف ستعود وهي تحمل جنسية جديدة ودينا جديدا؟

خلال السرد، تظهر مدينة الخليل، وحارتها القزازين والسواكنة شتاء ، من عام١٩١٤ قريبا من عام الجراد، تظهر حداثة العصر، من خلال تكنولوجيا ذلك الزمان: بابور الكاز، السيارة التي تسير بدون خيول، والفونوغراف، وما أثار ذلك من دهشة وخوف. ويظهر المستوى المتقدم من خلال وجود فندق فلسطين شارع الشلالة. تظهر عادات اجتماعية، مثل عادة عصر العنب وطقوسه واختلاف اللون والمذاقات، وما يرتبط بذلك من أغان شعبية:

يا مدعسة قطوفك بكعاب الحنة عين الأفندي ما بترحم تعب

كما تظهر علاقات الأهالي، من طبقية وغنى وفقر، ومن تآلف بين الناس بعيدا عن الاختلافات (علاقات الناس من الأديان ٥٩)، فهذه خيزران المغنية اليهودية تحيي ليلة غنائية في قصر أحد الإقطاعيين. وهذه مساجد المدينة والكنيسة الروسية ومستشفى مار لوقا وكنيس إبراهام أبينو.

لكن ذلك الانسجام بين أهالي المدينة، لا يظل على حاله، حيث تبدأ الاختلافات فجأة بتأثير الصهيونية، وهرتزل وأحلام الدولة اليهودية، حيث يتم الاتصال بالكاهن سلونيم، وإغرائه عن طريق المال، ودفعه لشراء عقارات. والتقرب ليهود الخليل الذي يعاني جزء منهم من الفقر، للتعاون معها، حيث يقول الرجل القادم من القدس: «بس يتعودوا ع الشبع راح يعملوا المستحيل لحتى ما يجوعوا» ص ٣٨

وهنا بداية الصورة النمطية عن اليهود، والاختلافات التي صارت تظهر فجأة في المجتمع، والتي لم تكن سابقا إلا في حدود دنيا مقبولة.

من جانب سياسي، تكون في تلك الأثناء قد انطلقت نشاطات المثقفين العرب ضد سياسة التتريك جمعية تركيا الفتاة التي تتغير نظرتها تجاه الشعوب، فيظهر من الناشطين المختار وسامي البكري وإيلي، ويتم نقل المعلومات والمنشورات من خلال سيارة البعثة الفرنسية من بيروت الى الخليل عبر القدس، لتوزيعها، والتحضر لمؤتمر عربي في بيروت ثم في باريس، وصولا لاعتقال إيلي واكتشاف مخبأ الآخرين في سرداب الكنيسة.

كما تظهر أساليب التملص من الجندية، كذلك البنية الحاكمة، من خلال شوقي أفندي رئيس البوليس والشاويش حسن.

في ذلك الوضع السياسي العام، تسرد الرواية قصص المهمشات العاملات لدى الأسر الغنية، حيث تعاني لمياء وأمها في العمل لدى الأفندي، لدرجة تعرض لمياء لاغتصاب عصمت لها، في وقت لا تستطيع المقاومة. تعد برجيتا الممرضة الفرنسية العاملة في الإرسالية الروسية لمياء بأن تخلصها صفحة ٤٣، خاصة بعد وفاة أمها، التي تحرم من الدفن في مقبرة الكرنتينا، حيث تدفن في قبر حجري، يعود إلى لويزا ملكة رومانية، حيث لا يلبي الأفندي وصية أمها،

بل يسخر من ذلك، بأن أمها في مقبرة ملوك. وتظل لمياء مسكونة بوصية أمها، حتى وهي في آخر أيامها في جورجيا، طلبت من مريم إن عادت الى الخليل بأن تنقل رفات أمها الى مقبرة الكرنتينا (دلالة تصويب التاريخ بوحي العدالة). لمياء التي خسر زوجها كل ماله، فاضطرت للخدمة في قصر الأفندي، وما عانت وابنتها من ذل، ولعل حادثة حمالة صدر زوجة الأفندي، التي أخذتها لمياء لتجربها، وما آلت له من عقاب، جعلها تنفر من ارتدائها طوال حياتها، وصولا لآخر أيامها حينما ترى مريم لمياء في آخر مشهد لها وقد توفيت، حيث لم تكن ترتدي الحمالة.

تُهرِّب برجيتا لمياء من القصر، لكن لا تمضي الأمور كما تم التخطيط لها، فتلجأ الى الغجر، وهناك تكتشف وجود الطفلة، التي تتعلق بها، ولا يمانع الغجر من اصطحابها لها، وترك مكانهم في الجبال والذهاب بها الى المدينة. وهناك تعاني الرضيعة ليلى طويلا، فتصبح على حافة الموت، قرب مسجد علي البكاء الذي تلجأ له لتأمين الماء، فتلتقطهما برجيتا من خلال عربة الإرسالية، بعد أن صدرت الأوامر للأجانب بترك المدينة، ومن هناك الى مسكوبية الروس، وتحسن الحال، وتعرف لمياء على القدس. لذلك تطلب لمياء من ليلى في جورجيا، البلد الذي عاشت فيه، تعلم الطب.

فنيا:

اكتملت الرواية، لغة وبنية، وتشويقا وتأثيرا ووعيا، لا يكاد القارئ يبدأ بها، حتى يستمر، حيث أن المضمون الإنساني للرواية، كمضمون عميق، اعتمد بلاغة الأحداث نفسها، لا مجازية اللغة وجمالياتها الكلاسيكية.

لقد أفسحت اللغة العادية المجال لتتبع السرد الذي تم بسلاسة، بالاعتماد على الانسجام في اللغة الساردة، بين اللغة الفصيحة واللهجة الخليلية، ما منح النص مصداقية.

لذلك يمكن تفسير اختيار الكاتب لتقنية السرد في النص، بما يتلاءم مع مضمون النص وأحداثه؛ لقد بدأ النص متتابعا رأسيا، مستدعيا الماضي في أماكنه، مثل تداعيات البابور. أي أنه عاد الى الوراء، في أماكن محددة، حيث لم يشأ أن يشتت انتباه القارئ، لسبب رئيس هو ثقته بقصته

القادرة بحد ذاتها على شد القارئ/ة.

كذلك ظهر السرد، الزمكاني، مرتبطا بالشخصيات، بمعنى أنه يسرد في الرواية بشكل عام عن الأحداث، مخصصة سردية خاصة عن شخصيات الرواية، كأنه يتنقل في الوقت الواحد في أماكن متنوعة. في الوقت الذي انتقل زمان شخصيات ومكانها، كي يصور أبعاد الشخصيات، عن طريق استدعاء البدايات. حدث ذلك في سرد بدايات لمياء وأمها، وميسون.

عناوين الفصول تشي بالتاريخ، مثل الفصل الأول: «ولاية بيروت متصرفية القدس قضاء الخليل»، وتشي بالمكان، ضمن محيطه، في إشارة من بعيد لتأمل ليس فقط حارة السواكنة بتعدديتها، بل لتأمل بلاد الشام كبلد تعددي، بما له علاقة بشخصيات الرواية والموضوع الديني، الذي لم يكن مفرقا بل مجمعا لفسيفساء ثقافية.

من عوامل قوة النص هي قوة الوصف، وهو وصف الكاتب المحترف، ووصف العارف بتفاصيل المدينة، ومحيطها، من ذلك وصف حارة السواكنة، مثل وصف تنقل عودة إيلي من الدير لتوزيع المنشورات، كذلك وصف الأحداث، والمشاهد المؤثرة، مثل دخول المدينة وقت الجراد صفحة ١٠١، ولجوء لمياء والطفلة الرضيعة مريم، عند مقام علي البكاء صفحة ١٠٩.

واستخدم الكاتب الصحف ليضفي على النص تاريخيته، من جهة، وليجعله من عوامل التأثير داخل الأحداث. أما استخدام أغاني التراث، فكانت من باب تصوير التحولات، والعلاقات الاجتماعية والطبقية.

كذلك وصف الشخصيات كان من الداخل، لا من السطح، ولعل تصوير علاقة لمياء مع عصمت ابن الأفندي، مثال واضح، حيث تم تصوير الاغتصاب من باب الرضى الجسدي تارة، ثم النفور والكره تارة أخرى.

واستخدم الراوي بذكاء خاصية الدائرة، حدث ذلك في «حمالة الصدر» التي جيء بذكرها في الرواية، والعقاب الذي تلقته لمياء، لتكتمل الدائرة، في مشهد رحيل لمياء في جورجيا، حين تنتبه مريم، لجسد لمياء، وأنه بدون حمالة صدر، لتظهر التأثير العميق على شخصيتها، لدرجة

زهدها بحمالات الصدر طول عمرها.

كذلك دائرة لقاءات بريجيتا مع صديقها إيلي، والد مريم، التي تكتمل بمأساة اللقاء الأخير، وهو متوجه في سفره الأخير نحو الإعدام، عند محطة القطار في القدس، ثمة لقاء اكتمل بوجود إيلي وبريجيتا ولمياء ومريم المحمولة، باقتراح من برجيتا، لكن الاكتمال في الوجود لم يكن مكتملا، فهو لم يعرف برجيتا بسبب ارتدائها ملابس الرهبنة، كما لم يعرف أصلا أن له ابنة، ولم يعرف حتى بموت لئيا.

وهنا، لربما ثمة علاقة رحمة ما، تشبه ما أخفى إيلي عن المختار من موت زوجته وابنه، وما أخفى المختار من موت لئيا.

أما الدائرة المأساوية التي اكتملت في الفصل الأخير، بعيدا عن الخليل هناك في جورجيا، فهي حينما استمعت لشباب عام ١٩٥٣، وهم يتحدثون عن أمل قيام دولة على غرار الدولة العثمانية، جعلها تستعيد الأحداث المؤلمة والمعاناة التي عاشتها وقومها تحت نير تلك الدولة، ما يستفزها صارخة فيهم، وفي داخلها، لتدخل حالة اكتئاب، تخللتها كتابة مذكراتها، لتكون بمثابة وصية لمريم (ولنا)، «كي لا تقعي في شرك الكذب والتلفيق والتمجيد لعصور شوهتنا جميعا»، في ظل أن «كل الحكايات التي تروى عن الماضي مدنسة وغير حقيقية».

كان لها وصية من كل ذلك، أن ينقل رفات أمها الى مقبرة الكرنتينا، إن قررت ليلى «الذهاب للبحث عن ملامحك الحقيقية».

الشعر الفلسطيني قبل النكبة:
هيمنة الرجال وغياب النساء

دنيا الأمل إسماعيل

أسفرت حرب ١٩٤٨ عن نتائج مدمّرة نزلت بالشعب الفلسطيني، أرضًا ومجتمعًا ومؤسّسات. كان الشعب الفلسطيني "موحَّدًا" في ظلّ الانتداب البريطاني، فمزّقته حرب ٤٨ شرّ ممزَّق: فأصبح جزء منه تحت الحكم المصري في قطاع غزّة، وضُمّت الضفّة الغربيّة إلى الأردنّ، ولجأ منه كثيرون إلى لبنان وسورية والأردنّ ليقيموا هناك في المخيّمات، تعرضت فلسطين، خلال هذه الحقبة التاريخية، لكثير من التطورات والأحداث السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية، وكانت - ولم تزل- ـ مسرحاً متواصلاً للثورات والحروب، فقد ظلت لقرون عدة تحت الاحتلال التركي، حين كانت جزءاً من الدولة العثمانية، عانت خلالها من الفقر والحرمان والإهمال في مختلف جوانب الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، ثم انتهى العهد العثماني باحتلال جديد تمثل في الانتداب البريطاني، الذي أنهى انتدابه سنة ١٩٤٨ بقيام دولة إسرائيل على الجزء الأكبر من فلسطين وتشريد الشعب الفلسطيني عن أرضه إلى الجزء المتبقي من فلسطين وإلى البلاد العربية المجاورة بمساندة بريطانية وأميركية وبمباركة دولية.

ولم تكن الحياة الأدبية في فلسطين عامة ـ والحركة الشعرية خاصة ـ بمعزل عن تلك الظروف، التي مرت بها، بل كان لها دورها الفاعل والمتواصل في رصد تلك الأحداث، والتفاعل معها،

وبالتالي كان لتلك الظروف دورها في تغيير مسار الحركة الشعرية الفلسطينية، وفي تطورها وتجديدها.

ومنذ البداية، أخذ الشعر الفلسطيني، على عاتقه، التأريخ لقضية بلاده وشعبه سياسياً واجتماعياً واقتصادياً ، وأصبح مصدراً من مصادر التاريخ السياسي والنضالي والاجتماعي الفلسطيني . «وما يميّز الشعر الفلسطيني قبل ٤٨، هو الانخراط الحميم في الحياة السياسيّة والنضال الشعبي، والمناحي اليسارية فكراً وصياغة، والاستقاء بشكل واضح من اللغة العاميّة والمأثور الشعبي» .

ويشير الدكتور سليمان جبران إلى أربعة شعراء يعتبرهم الممثلين الأبرز للشعر الفلسطيني في فترة الانتداب البريطاني. وأوّل هؤلاء، الشاعر وديع البستاني، ويعتبره رائداً للشعر الفلسطيني في عهد الانتداب، وذلك للأسباب التالية: السبب الأوّل: «أنّ البستاني اتصل بالقضية الفلسطينيّة منذ شهر تشرين الثاني ١٩١٧. وهو الشهر الذي في ثانيه صدر تصريح بلفور واعداً اليهود بالوطن القومي في فلسطين. ومنذ ذلك التاريخ كرّس نفسه وقلمَه لمناصرة الشعب الفلسطيني وقضيته». السبب الثاني: «أن وديع البستاني يُمثّل المرحلة الأولى من عهد الانتداب، بل يُمكن القول إنّه يمثّل طور الانتقال في الشعر الفلسطيني من الشعر التقليدي إلى الشعر التجديدي في الثلاثينات والأربعينات». والسبب الثالث: «أن البستاني يمثّل الجيل السابق على الشعراء الفلسطينيين الآخِرين، وهو أوّل مَن تنبّهَ إلى حقيقة الانتداب الإنجليزي ووعد بلفور.

الشاعر الثاني هو «إبراهيم طوقان»(١٩٠٥-١٩٤١) الذي أجمع الدارسون على أنّه شاعر فلسطين الأوّل، وقد وصفته أخته الشاعرة فدوى طوقان بأنّه «شاعر الوطن»؛ لأنه «سجّلَ آلامَ فلسطين وآمالَها خلال الانتداب الإنجليزي، كما لم يُسجّله شاعر فلسطيني من قبل».

ويرى الدكتور سليمان جبران أنّ تقدم إبراهيم طوقان على غيره من الشعراء لا يعودُ إلى الموضوعات التي تناولها، فالموضوعات مُلقاة على قارعة الطريق وقد تناولها كثيرون، وإنّما يعود إلى تَفَرده المتمثّل في «كيفيّة صياغة هذه الموضوعات في قصائده، في المقوّمات الفنيّة

الراقية التي استطاع إنجازَها آنذاك».

أما الشاعر الثالث؛ فهو عبد الرحيم محمود (١٩١٣-١٩٤٨) الذي يرى فيه ظاهرة نبيلة في تاريخ الشعر الفلسطيني، والشعر العربي الحديث عامّة؛ لأنه كما قال جبرا إبراهيم جبرا: «لم يكتف بالكلام عن الشجاعة ومجابهة الموت، كما يفعل معظم الشعراء، بل كان الشاعر الفارس الأوّل والأكبر في الشعر العربي الحديث. لقد قضى حياته مناضلاً مُسلحاً من أجل فلسطين، وكلما جاشت عواطفه كلاماً لاهباً وشعراً لاظياً، اتّبع القول بالفعل، وحمل بندقيّتَه ودخل ساح القتال، «حيث استشهد في معركة الشجرة، شرقي الناصرة سنة ١٩٤٨، وكان تأثُّر عبد الرحيم محمود واضحاً بالشعر العربي القديم، حيث ظهرت في قصائده أصداء الشعر القديم في الألفاظ والتراكيب الكلاسيكية الوعرة. كما أنّ تقليديّة عبد الرحيم محمود تبرز في موقفه التقليدي من المرأة، وخاصة في قصيدته «نون النسوة»، وقصيدة «حوشوا البنات من الشوارع» التي كتبها عام ١٩٣١، ويُطالب فيها البنات بالتحجّب.

كان الشاعر عبد الكريم الكرمي «أبو سلمى» (١٩٠٩-١٩٨٠) أحد أقطاب شعراء تلك الفترة، وقد عاش نصف عمره في فلسطين، ونصفه الثاني لاجئاً مُشرداً بعيداً عن البلاد؛ ما ترك أثره على حياته وشعره.

وكان للغزل حظاً وافراً في شعر أبو سلمى خاصة قبل عام ١٩٤٨، حتى أنّ إبراهيم طوقان سمّاه «رسول الهوى».

ما نلحظه هنا ، للأسف الشديد، أن غالبية الكتب والدراسات التي كتبت عن الأدب الفلسطيني كانت تتجاوز النساء المبدعات بطريقة واضحة تعكس غياب الاهتمام بأدب المرأة الفلسطيني، خاصة في المراحل المبكرة منه ، وقد راجعت الكثير جدا من الدراسات التي خلت من ذكر المبدعات في مراحل تاريخية متعاقبة خاصة مرحلة التأسيس والبدايات ، وفي أحسن الأحوال حين يأتي على ذكر المبدعات الفلسطينيات كانت الشاعرة الكبيرة فدوى طوقان تحظى بنصيب الأسد من هذا الذكر، فيما يغيب الكثير من المبدعات في الشعر وغيره عن أذهان المؤرخين الذين كانوا رجالاً غالباً، على الرغم من وجودهن وإبداعهن ، بل وغزارة

إنتاجهن الشعري خاصة والأدبي عامة ، والكثير من هؤلاء المبدعات جمعت في يدها أكثر من حقل أدبي كأسمى طوبي وغيرها . ورغم غزارة ما كتُب عن المرأة الفلسطينية في معظم المراحل التاريخية، ومجمل قضاياها المتشابكة والحساسة إلا أن الأدبيات حول واقع وقضايا هذه المرأة في عهد الانتداب البريطاني وما قبل مرحلة النكبة على وجه الخصوص، ظلت شبه نادرة، فلا نرى منها سوى مقتطفات صغيرة هنا وهناك لا تعكس حجم ونوعية مساهمات المبدعة الفلسطينية شعرا ونثراً وفناً وهذا من وجهة نظري له أسباب تتعلق بأنماط التنشئة الاجتماعية التقليدية التي كانت سائدة في تلك الحقبة وما تلاها ، والتي تعكس نظرة محافظة للنساء عامة ، وكل امرأة تخرج عن السياق التقليدي العام كان عليها مواجهة موروث ثقافي شديد التعقيد والانحياز للرجل، دون إنصات حقيقي لأصوات النساء عامة والمبدعات منهن خاصة ، أولئك اللواتي عانينَ من قهرٍ إضافي ناتج عن تميزهنّ واختلافهنّ عما هو سائد وعما هو مرسوم للنساء عادة في مجتمع تقليدي ومحافظ في أغلبه، ومن نفدت منهن من هذا المشهد، دفعت أثمانا باهظة لخياراتها غير المتوافقة مع النظرة الاجتماعية السائدة بمدلولاتها الثقافية والسياسية على وجه التحديد.، ويمكن القول أن ما سُجل عن تاريخ تلك الفترة هو تاريخ الرجل الفلسطيني، ولم يكن للمرأة فيه نصيبٌ كبير.

بالرغم من الإنجازات التي قدمتها المرأة في جميع المجالات في تلك المرحلة إلا أنّ "الهيمنة الذكورية" في تسجيل التاريخ حالت دون أن يكون لهذه المرأة نصيب من البحث والاهتمام. وقد «آن الأوان لأن نعود إلى روايات المرأة وتجاربها ونوثقها، مثل اهتمامنا بتوثيق روايات الرجال وتجاربهم، لئلا يضيع جزء مهم من تاريخ فلسطين".

أوراق المؤسسة

مؤسسة ياسر عرفات تحيي ذكرى ميلاد خليل الوزير (أبو جهاد)

أحيت مؤسسة ياسر عرفات، يوم الإثنين ٢٠٢٢/١٠/١٠، ذكرى ميلاد القائد الوطني أمير الشهداء خليل الوزير (أبو جهاد) أول الرصاص.. أول الحجارة، أحد مؤسسي وقادة حركة فتح، في قاعة المنتدى بمتحف ياسر عرفات.

وبدأت الفعالية بالنشيد الوطني الفلسطيني، ورحب عبد الفتاح دولة عريف الحفل بالحضور، ودعاهم للوقوف دقيقة صمت وقراءة الفاتحة على روح الرئيس الشهيد ياسر عرفات ورفيق دربه القائد خليل الوزير، وجميع شهداء فلسطين.

ومن ثم عرضت المؤسسة فيلماً من انتاجها بعنوان «أمير الشهداء.. أول الرصاص.. أول الحجارة» يستعرض سيرة ومسيرة القائد أبو جهاد واسهاماته في الثورة الفلسطينية من البدايات والتأسيس وحتى استشهاده، واسهاماته الكبيرة على جميع الأصعدة بالعمل الوطني.

وتحدث كل من د. أحمد صبح مدير عام مؤسسة ياسر عرفات، وحنان الوزير رئيس مجلس إدارة مؤسسة خليل الوزير(ابنة أبو جهاد)، ومحمود العالول نائب رئيس حركة فتح عضو لجنتها المركزية، وأجمعوا على أن هذه الفعالية تأتي ضمن الحفاظ على سيرة ومسيرة القادة الأبطال الذين ضحوا في سبيل القضية الفلسطينية، ولأن إحياء الذاكرة الوطنية يكون من خلال نقل الرواية من جيل إلى جيل، وإحياء الذكرى ال٨٧ لميلاد الوزير، هو إحياء مسيرة نضال ميزها عنفوان الثائر، وحكمة القائد، ومشاعر الإنسان النبيلة، إن أبو جهاد، هوالقائد، والأب، والمعلم الذي عمل بصمت، ورجل التفاصيل الدقيقة.

كما أكدوا على أن أبو جهاد رجل استثنائي، خُلق من أجل الثورة، وكانت مصلحته الأولى والأخيرة هي الثورة وتحقيق أهدافها في مسيرته النضالية الحافلة بالعطاء.

وشارك في إحياء الذكرى عدد من أعضاء اللجنة المركزية لحركة فتح، والمجلس الثوري وقادة فصائل العمل الوطني وحشد كبير من الجمهور.

كما كان هنالك معرض صور يعرض أهم المحطات في حياة خليل الوزير (أبو جهاد).

اجتماع مجلس إدارة مؤسسة ياسر عرفات الثالث والخمسون

عقد مجلس إدارة مؤسسة ياسر عرفات اجتماعه الثالث والخمسين يوم الخميس الموافق ٢٠٢٢/١٠/١٣، وجاهياً للمقيمين في أرض الوطن وعبر الاتصال المرئي لمن هم في الخارج، وترأس الاجتماع أ. علي مهنا القائم بأعمال رئيس مجلس الإدارة، وبمشاركة د. ممدوح العبادي رئيس مجلس أمناء المؤسسة، ومدير عام المؤسسة ومدير متحف ياسر عرفات.

وناقش الاجتماع وأقرّ برنامج إحياء الذكرى الثامنة عشرة لاستشهاد الرئيس المؤسس ياسر عرفات، وتَقرر إقامة الفعالية المركزية للمؤسسة يوم الخميس الموافق٢٠٢٢/١١/١٠، واعتمد مجلس الإدارة بأن يكون الإلتفاف حول العلم الفلسطيني والاعتزاز به والدفاع عنه، هو الموضوع السياسي للذكرى هذا العام.

كما ناقش المجلس واعتمد تقرير لجنة جائزة ياسر عرفات للانجاز للعام الحالي ٢٠٢٢، وقد تم تسليم الجائزة خلال إحياء الذكرى كما جرت العادة، وكان ذلك للسنة السادسة عشرة على التوالي.

وقرر مجلس الإدارة التحضير للدورة القادمة (الرابعة عشرة) لاجتماع مجلس الأمناء، والذي سيعقد في موعده خلال الربع الأول من العام القادم ٢٠٢٣.

واستمع مجلس الإدارة للتقرير الإداري والمالي المقدم من إدارة المؤسسة، وتم اعتماد هذه التقارير، وعبر المجلس عن ارتياحه لسير العمل بالمؤسسة على كافة الأصعدة.

وتم كذلك تقييم فعاليات ونشاطات وبرامج المؤسسة، وثمنّ عودة الزوار بكثافة لمتحف ياسر عرفات وإضافة لغات جديدة للعرض المتحفي (تسع لغات حالياً) وافتتاح معرض «أثر» في قاعة المعارض في المتحف، وثمن الاجتماع نجاح مسابقة المعرفة الوطنية في سنتها الخامسة على التوالي والعمل الجاري لتطويرها، وكذلك الأمر مُخيمات ياسر عرفات الصيفية، وأيضاً

وثمن مجلس الإدارة نجاح العام الأول من البرنامج الجديد: في الذاكرة الوطنية.. رفاق

الدرب، والذي أحيا ذكرى ميلاد القادة: خالد الحسن، ود. جورج حبش، وصلاح خلف- أبو إياد-، وخليل الوزير- أبو جهاد، وقرر مجلس الإدارة الاستمرار بهذا البرنامج الهام، واعتمد أسماء كوكبة جديدة من القادة لإحياء ذكرى ميلادهم خلال العام القادم.

كما قرر إقامة المعرض القادم في المتحف مع بداية عام ٢٠٢٣ حول (الاستعمار الاستيطاني في فلسطين.)

مؤسسة ياسر عرفات تحيي الذكرى السنوية

الثامنة عشرة لاستشهاد القائد المؤسس

أحيت مؤسسة ياسر عرفات، مساء يوم الخميس الموافق ١٠/١١/٢٠٢٢، الذكرى السنوية الثامنة عشرة لاستشهاد القائد ياسر عرفات، في فعالية نظمت بقصر رام الله الثقافي في مدينة رام الله، تم خلالها الإعلان عن الحائز على جائزة ياسر عرفات للإنجاز للعام ٢٠٢٢، وهي بلدية رام الله.

وحضر إحياء الذكرى، رئيس الوزراء د. محمد اشتية، ورئيس المجلس الوطني الفلسطيني روحي فتوح وأعضاء من اللجنتين التنفيذية لمنظمة التحرير والمركزية لحركة «فتح»، وأعضاء من المجلس الثوري للحركة، وعدد من الوزراء والسفراء وممثلي السلك الدبلوماسي لدى دولة فلسطين، وإدارة المؤسسة.

وبدأت الفعالية بالنشيد الوطني الفلسطيني، تلاها دقيقة صمت على أرواح الشهداء، ثم قرأ الشيخ فراس قزاز مقرئ المسجد الأقصى أيات من الذكر الحكيم.

ونقل رئيس الوزراء في كلمته، تحيات الرئيس محمود عباس لحضور الذكرى الـ١٨ لرحيل القائد والمعلم والرئيس الشهيد ياسر عرفات، الذي كان ملهماً بحضوره وبسيرته وبإرثه العظيم وعطائه اللامحدود، وبقلبه الدافئ الكبير، وقد حفر اسمه في سِفر فلسطين قائدا مقداما وفي قلوب الفلسطينيين جميعا وعند أحرار العالم.

وقال اشتية، إن ما كرسته مؤسسة ياسر عرفات من جهد تشكر عليه، وأؤكد باسم السيد الرئيس والحكومة أنها تنال كل دعم وتأييد من طرفنا.

وجدد باسم أعضاء اللجنة المركزية، برئاسة الرئيس أبو مازن، وهيئات الحركة وكوادرها وشركائها بالنضال، وباسم أعضاء مجلس الوزراء والشعب الفلسطيني، العهد لروح ياسر عرفات، والالتفاف حول المشروع الوطني حتى إنجازه ودحر الاحتلال وإقامة الدولة الفلسطينية المستقلة متواصلة الأطراف وذات السيادة وعاصمتها القدس، مع حق العودة للاجئين.

من جهته، رحب القائم بأعمال رئيس مجلس إدارة مؤسسة ياسر عرفات علي مهنا، بالحضور، وقال: «نلتقي اليوم للترحّم على روح الراحل ياسر عرفات الطاهرة وروح رفاق دربه وشهداء شعبنا كافة، شهداء الأمس واليوم والغد، على درب أبوعمار في الصبر والصمود والمقاومة وعلى شهداء أمتنا جميعاً".

وأكد أنه ورغم مرور ١٨ عاماً على رحيل جسد أبو عمار، إلا أن وقع الصدمة لازال ماثلاً على الجميع، مضيفاً أن من وُلد مع ارتقاء أبوعمار أصبح اليوم شاباً يافعاً صلباً مقاوماً يحمل الراية ويجدد العهد والقسم ولا يتردد في مقاومة الاحتلال.

وأضاف مهنا أن مؤسسة ياسر عرفات قالت فيما مضى أنها ليست بحاجة لأي دليل إضافي للجزم بأن الرئيس ياسر عرفات قد استشهد جرّاء تسميم الاحتلال له، بجريمة معلنة من قادته، مؤكداً أم المؤسسة تتابع ضرورة أن تفتح الأمم المتحدة تحقيقاً دولياً خاصاً بهذه الجريمة التي لا تسقط بالتقادم لمعاقبة القتلة المحتلين، متابعاً، أن عمل المؤسسة استمر بمكتبيها الفرعيين في غزة والقاهرة.

وتوجه القائم بأعمال رئيس مجلس الإدارة، بالشكر للرئيس محمود عباس الرئيس الفخري للمؤسسة على دعمه المتواصل لها والشكر موصول لكل من تابع ودعم عملنا. كما توجه بالشكر والتقدير لمعالي د. ممدوح العبادي رئيس مجلس الأمناء على متابعته وانخراطه معنا بشكل مستمر ولإدارة المؤسسة وكافة العاملين فيها لتفانيهم بإنجاز أهداف وبرامج

المؤسسة وتعزيز بنائها المؤسسي بحيث أصبحت مؤسسة راسخة متينة لها حضورها المميز في العمل الوطني الفلسطيني

وقد سبق كلمة المؤسسة عرض فيلم وثائقي استعرض نشأة وعمل وبرامج المؤسسة.

ومن الجدير بالملاحظة أن مؤسسة ياسر عرفات قد أضافت فقرة للتكريم في ظِلال الذكرى وباسمها، وقدّم د. أحمد صبح مدير عام المؤسسة، كل من، أم ناصر أبو حميد تكريماً لصمودها وثباتها وصبرها، كأم الشهيد وأم الأسرى وما تمثله من أيقونة نضالية نعتز ونفتخر بها، وروح الشهيدة شيرين أبو عاقلة لما تمثله من صوت الحقيقة والتغطية الصادقة لنضال شعبنا، وروح صائب عريقات حيث تحل اليوم الذكرى الثانية لارتقائه للعلى، كقائد وطني كبير ورفيق درب الرئيس أبو عمار.

ومن جهتها، أعلنت د. علا عوض رئيسة لجنة الجائزة عضو مجلس إدارة مؤسسة ياسر عرفات منح جائزة ياسر عرفات للإنجاز للعام ٢٠٢٢، وبالنسخة السادسة عشرة من الجائزة لبلدية رام الله.

وقالت عوض، كما كل عام تتوج مؤسسة ياسر عرفات فعالياتها لإحياء الذكرى السنوية لاستشهاد القائد الرمز أبو عمار بالإعلان عن الفائز بجائزة ياسر عرفات السنوية للإنجاز.

وإذ دأبت المؤسسة على منح الجائزة سنوياً منذ تأسيسها، بهدف تشجيع الإبداع والأعمال الجادة والمتميزة التي يقوم بها الافراد والمؤسسات وفرق العمل في مجالات العمل الوطني، الثقافي، الاجتماعي، الاقتصادي، والعلمي/الأكاديمي، حيث يُمنح الفائز براءة الجائزة ومجسماً رمزياً، إضافة الى مبلغ ٢٥,٠٠٠ دولار. وقد تم الاعلان عن الجائزة هذا العام خلال الفترة من ٠٥/٠١ -٢٠٢٢/٠٨/١٥، وواكب ذلك حملة إعلامية للترويج للجائزة والتعريف بها وتشجيع المؤسسات والافراد على تقديم طلبات للتنافس عليها، وذلك على مختلف وسائل الاعلام ومواقع التواصل الاجتماعي.

وإذ نؤكد على أن جميع الاعمال المتنافسة على الجائزة تشكل انجازات وتستحق التكريم،

فكل الشكر والتقدير لهم جميعاً مرشَّحين ومرشِحين.

وسلم رئيس الوزراء د. محمد اشتية والقائم بأعمال رئيس مجلس الإدارة أ. علي مهنا، ورئيسة لجنة الجائزة د.علا عوض مجسم الجائزة وبراءتها وشيك الجائزة بمبلغ خمسة وعشرين الف دولار،

وتخلل الحفل عرض غنائي من التراث الوطني الفلسطيني قدمه الشاعر د. موسى الحافظ وفرقته الموسيقية، كما تولى الإعلامي سلام الديك عرافة الحفل، وقد تخلل الحفل عرض فيلم وثائقي عن مؤسسة ياسر عرفات.

والمؤسسة مُتجهة لعقد مجلس أمنائها الرابع عشر في العاصمة المصرية القاهرة في شباط/ فبراير القادم.